البرنامج القومي للبحث
حول تاريخ الحركة الوطنية
ردود الفعل على الاحتلال
الفرنسي للبلاد التونسية
في سنة 1881
بحوث الندوة الأولى لتاريخ الحركة الوطنية
نقلها إلى اللغة العربية حمادي الساحلي
29-30-31 مايو 1981
سيدي بوسعيد - تونس

المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة مؤسس
الحزب الدستوري الجديد ورئيس الجمهورية التونسية

فخامة رئيس الجمهورية السيد الحبيب بورقيبة
يستقبل الاستاذ شارل اندري جيليان
وذلك بقصر قرطاج يوم 29 ماي 1981

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

البرنامج القومي للبحوث
حول تاريخ الحركة الوطنية التونسية

بحوث الندوة الاولى
لتاريخ الحركة الوطنية

ردود الفعل
على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية
في سنة 1881

نقلها الى اللغة العربية
حمادي الساحلي

29 – 30 – 31 ماي 1981
فندق سيدي الظريف ـ سيدي بوسعيد
تونس

ردود الفعـــــل
على الاحتــلال الفرنسي للبــلاد التونسية
فــي سنـــة 1881

الآراء الواردة في البحوث تعبر عن وجهة نظر أصحابهـا

الفهرس

الصفحة

- تقديم البرنامج القومي للبحوث حول تاريخ الحركة الوطنية 13
- تمهيد 15

● **الجلسة الافتتاحية**

- كلمة الترحيب : المنصف الشنوفي 19
- كلمة الافتتاح : عبد العزيز بن ضياء 21
- المدخل العام : شارل اندري جوليان 25

● **الجلسة الثانية**

- المقاومة التونسية في سنة 1881 : مظاهرها المختلفة ، خليفة شاطر 35
- ردود الفعل الجزائرية على الاحتلال الفرنسي : محفوظ قداش 41

● **الجلسة الثالثة**

- مظاهر مقاومة الامبريالية : تأويل اجتماعي جديد : محمد الباقي الهرماسي 65
- طموحات الاسرة المالكة والمنافسات العرقية والدسائس الدبلوماسية : عز الدين قلوز 73

● **الجلسة الرابعة**

- دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881 : يحيى بوعزيز 87

- استقلالية المقاومات بالمغرب العربي : دور المدن بالجزائر في العقد الثامن : اندري نوشي 101

● **الجلسة الخامسة**

- علي بن خليفة النفاتي قبل سنة 1881 : عبد المجيد كريم 115
- المقاومة الصفاقسية للاحتلال الاستعماري في سنة 1881 : توفيق العيادي 127

● **الجلسة السادسة**

- الحدود الجزائرية التونسية حسب وثائق وزارة الحرب بفانسان : أني راي غولدزيغار 157
- ملاحظات حول ردود الفعل الايطالية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية : رومان رينارو 177

● **الجلسة السابعة**

- ردود فعل المدن على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881 : محمد الهادي الشريف 183
- دور الصادقيين في حركة التحرير الوطني : نور الدين سريب 195

● **الجلسة الثامنة**

- ردود الفعل الجزائرية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881 : الطيب شنتوف 217
- دور الشبان التونسيين في تطوير الحركة السياسية والمؤسسات بالبلاد التونسية : خالد قزمير 233

● **الجلسة التاسعة**

- ردود الفعل المغربية تجاه الاحتلال الاسباني والفرنسي : جرمان عياش 243

● **الجلسة العاشرة**

- موقف الباي تجاه الاحتلال الفرنسي : صالح المثلوثي 257
- ظاهرة الربا بالبلاد التونسية في سنة 1881 : سامي البرقاوي 279
- **استنتاجات الندوة** : محمد الهادي الشريف 285
- **كلمة الختام** : شارل اندري جوليان 289

تقديم البرنامج القومي للبحوث حول تاريخ الحركة الوطنية

على اثر الايام الدراسية التي نظمتها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ايام 4 و 5 و 6 ماي 1979 بالحمامات لاعادة تنظيم البحث العلمي القومي ، احدثت في شهر اكتوبر 1979 لجنة تاريخ الحركة الوطنية في صلب وزارة التعليم العالي والبحث العلمي . وهي تتكون من :

- السيد **المنصف الشنوفي** ، المنسق والسادة : **الرشيد ادريس ، البشير التليلي ، عبد السلام دمق ، عبد القادر الزغل ، حمادي الساحلي ، محمد الهادي الشريف ، توفيق العيادي ، خالد قزمير ، احمد القصاب ، عبد القادر المهيري** ، اعضاء اللجنة .

ولقد وضعت تلك اللجنة برنامجا قوميا للبحوث يهدف الى تطوير وتشجيع التدريس والبحث في هذا الميدان من التاريخ التونسي .

أ - في ميدان التدريس :

لقد قدمت لجنة تاريخ الحركة الوطنية عدة اقتراحات تتمثل فيما يلي :

- تعزيز برامج تاريخ الحركة الوطنية في المعاهد التي تلقن تلك المادة ، مثل معهد الصحافة وعلوم الاخبار وكلية الشريعة واصول الدين والمدرسة القومية للادارة ، الخ ...
- تدريس تاريخ الحركة الوطنية بمعاهد التعليم العالي ذات الصبغة القانونية والاقتصادية ، مثل كلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية بتونس وكلية العلوم الاقتصادية بصفاقس والمعهد الاعلى للتصرف ومعهد الدراسات التجارية العليا . وقد ضبط برنامج لهذا الغرض واحيل الى المعاهد المذكورة .

- احداث شهادة للدراسات العليا مخصصة لتاريخ الحركة الوطنية بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس .

- اعادة تدريس تاريخ الحركة الوطنية في كل من شعبة العلوم والرياضيات وشعبة العلوم التقنية بالسنة السابعة من التعليم الثانوي ،

كما وضع فهرس شامل للمؤلفات على ذمة الاساتذة المكلفين بتدريس هذه المادة وعلى ذمة الطلبة .

ب - **في ميدان البحث :**

ان هذه الندوة التي نظمت ايام 29 و 30 و 31 ماي 1981 حول موضوع **ردود الفعل التونسية على الاحتلال الفرنسي في سنة 1881** والتي شارك فيها عدد كبير من الجامعيين التونسيين والاجانب ، تمثل الحلقة الاولى من سلسلة الاشغال الرامية الى توضيح معالم ماضي البلاد التونسية .

وستتبعها ندوة ثانية ، من المقرر تنظيمها ايام 27 و 28 و 29 ماي 1983 حول موضوع **مصادر ومنهجية تاريخ الحركة الوطنية من سنة 1920 الى سنة 1954** .

ج - **في ميدان التوثيق :**

حرصا على تنمية التوثيق الكفيل باثراء البحث حول تاريخ الحركة الوطنية ، شجع **البرنامج القومي للبحوث** على بعث لجنة تعنى بجمع وتصوير الوثائق التونسية الموجودة بفرنسا .

ولقد قامت تلك اللجنة التي ظهرت للوجود في شهر جوان 1981 باحصاء اهم مجموعات الوثائق المتعلقة بالتاريخ التونسي ، واستهلت عملها بفرز وتصوير تلك الوثائق واحصاء الاطروحات والرسائل والصور على اختلاف انواعها (وقد تم لحد الآن تصوير وثائق وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية وسيشرع في تصوير وثائق الاقامة العامة بمدينة نانت) .

لجنة البرنامج القومي للبحوث

تمهيد

ان مواقف القومية التونسية تجاه تصاعد مختلف الايديولوجيات في الوقت الحاضر ، (الشرعية منها والاقل شرعية) تتمثل في اثبات وجودها ، سواء ضد تلك الايديولوجيات او ضمن البعض منها كالوحدة المغربية او حتى الوحدة العربية (مقابل بعض الشروط) . بل انه يتعين علينا - في صالح البناءات الوحدوية المحتملة - الاعتراف بوجود القوميات المحصورة في بعض الكيانات مثل البلاد التونسية ، وارساؤها على امتن الاسس الممكنة ، والا نكون قد بنينا مشاريعنا على اسس واهية ، وذلك لفائدة اصحاب الاوهام ومحترفي النظريات السياسية الخيالية .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان تاريخ حركتنا الوطنية يمثل صفحة من الصفحات التي لها وزنها في تسلسل التاريخ التونسي ، بل التاريخ المغربي عامة ، حيث ان تونس كانت غالبا السباقة في الاحداث التي شهدها المغرب العربي . الا ان ذلك التاريخ قد شهد نسبيا عددا قليلا من الباحثين الذين اهتموا بتوضيح مختلف اطواره ، فهل ذلك راجع الى الخجل ام خشية عدم الموضوعية ام الخوف من الرقابة الذاتية ؟ الواقع ان المؤرخين كثيرا ما يتراجعون امام ذلك التاريخ ولا سيما امام اقرب اطواره عهدا .

وحرصا على الاستجابة الى المقتضيات الجديدة وتدارك النقص الملاحظ في هذا الميدان ، اقدم البرنامج القومي للبحث في تاريخ **الحركة الوطنية** منذ شهر اكتوبر 1979 ، على درس امكانات تكثيف تدريس تاريخ الحركة الوطنية وتنظيم ندوات مخصصة لذلك التاريخ (مثل الندوة التي ننشر اليوم بحوثها والندوة المقرر عقدها

أيام 27 و 28 و 29 ماي 1983 بسيدي الظريف ، دائما) ونشر بحوث تلك الندوات ، وكذلك نشر الوثائق التي لم يسبق نشرها وخاصة منها المتعلقة بمصادر التاريخ التونسي والموجودة بفرنسا ، وقد قام فريق من المتخصصين بتصويرها على الاشرطة ، واصدار الدراسات المخصصة لتاريخ الحركة الوطنية حسب ثلاثة محاور اساسية :

- الاسس الاقتصادية والاجتماعية
- الاحداث السياسية وعلاقتها بالسياق التاريخي
- دراسة افكار اهم ممثلي الحركة الوطنية امثال علي باش حانبة والحبيب بورقيبة .

والجدير بالملاحظة ان هذا الكتاب يمثل الحلقة الاولى من سلسلة من الكتب ، نرجو ان تكون طويلة وثرية .

لجنة البرنامج القومي
للبحوث

الجلسة الافتتاحية

- الكلمة الترحيبية التي القاها السيد **المنصف الشنوفي** ، منسق لجنة تاريخ الحركة الوطنية .
- كلمة الافتتاح التي القاها السيد **عبد العزيز بن ضياء** وزير التعليم العالي والبحث العلمي .
- المدخل العام لموضوع الندوة :

بقلم **شارل اندري جوليان** ، الاستاذ الشرفي بجامعة السربون والعميد الشرفي لكلية الآداب بالرباط .

كلمة الترحيب

السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي ،
السيد سفير فرنسا بتونس ،
السيد الاستاذ شارل اندري جوليان ،
حضرات الزملاء والاصدقاء ،

انه ليطيب لي ان أرحب بكم وان اقدم اليكم البرنامج القومي للبحث المتعلق بتاريخ الحركة الوطنية .

فلقد نظمت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالحمامات في شهر ماي 1979 ندوة هامة خصصت لبحث مشاكل البحث العلمي بتونس وآفاقه .

وعلى اثر ذلك ظهرت للوجود عدة برامج قومية للبحوث منها البرنامج الخاص بتاريخ الحركة الوطنية .

وقد دخل ذلك البرنامج مرحلته العملية ابتداء من شهر اكتوبر 1979 ، حيث تكونت لجنة اتشرف بتنسيق اعمالها ، شرعت في تطبيق بعض المشاريع التي تحوم حول المحاور الثلاثة التالية :

- تجميع الباحثين العاملين في ميدان تاريخ الحركة الوطنية ، حتى يتحقق التعاون المثمر فيما بينهم ،
- توجيه البحث الى اتجاهات مختلفة ،
- تمكين الباحثين من وسائل العمل الملائمة .

اما من الناحية العملية ، فقد دعي البرنامج القومي للبحوث الى القيام بحملة على ثلاثة مستويات : التوثيق والبحث والتنسيق المنتظم بين الاعمال المنجزة .

ولقد شرعنا في انجاز بعض المشاريع التي ينص عليها ذلك البرنامج ، منها ضبط برنامج تعليمي ملائم لمعاهد التعليم العالي المعنية بتاريخ الحركة الوطنية .

كما ان هذه الندوة تمثل مساهمة متواضعة ترمي الى تحقيق هدف من الاهداف التي رسمناها لانفسنا ، الا وهو القيام ببعض الدراسات المتعلقة بالفترات الحاسمة من التاريخ التونسي مثل الفترة التي شهدت تحول بلادنا من وضعية دولة مستقلة ، ولو كانت مرتبطة بالباب العالي بروابط تبعية قوية او ضعيفة ، الى وضعية دولة محمية .

ذلك ان الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في شهر ماي 1881 يمثل خاتمة المطاف بالنسبة لسلسلة من الاهداف التي يشكل لحمتها التغلغل الاقتصادي والثقافي الغربي بالاقطار التابعة للامبراطورية العثمانية ، كما ان ردود الفعل التونسية والمغربية على حد السواء ، على ذلك الاحتلال ، لا تمثل الا مظهرا من مظاهر الاهتزاز الناشىء عن ذلك التغلغل الحاصل في ذلك الجزء من المغرب العربي الذي عرف منذ سنة 1830 اثناء احتلال عاصمة الجزائر ، صدمته الاستعمارية الاولى .

ولا يسعني في خاتمة هذه الكلمة الا ان اجدد لكم باسم **لجنة تاريخ الحركة الوطنية** وباسم وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، اسمى عبارات الشكر . واخص بالذكر زملاءنا الاجانب الذين تفضلوا بتلبية دعوتنا عن طيب خاطر .

ثم احيل الكلمة الى السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي .

وشكرا

المنصف الشنوفي
منسق لجنة تاريخ
الحركة الوطنية

كلمة الافتتاح

سعادة السفير ،
حضرة الاستاذ ،
زملائي الاعزاء ،
سيداتي سادتي ،

انه ليطيب لي ان ارحب بهذه المبادرة السعيدة التي قامت بها **لجنة تاريخ الحركة الوطنية** ، بتنظيمها لهذه الندوة الاولى المخصصة لدراسة **ردود الفعل على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881** ، والتي تجمع عددا من الاختصاصيين التونسيين وغير التونسيين .

واسمحوا لي ان احيي بادىء ذي بدء الرجل الذي نعتبره اول من اهتم بالبحوث المتعلقة بتاريخ المغرب العربي الكبير ، الا وهو السيد شارل اندري جوليان صديق تونس والتونسيين وصديق السيد رئيس الجمهورية التونسية .

ان هذه الندوة التي تمثل تظاهرة ثقافية وعلمية ممتازة ، هي ايضا تعبير متواضع عما يكنه تلامذة الاستاذ شارل اندري جوليان من تقدير لعمله المنقطع النظير الذي شرع فيه منذ سنة 1914 لتوضيح موضوع تصفية الاستعمار بالقول والعمل .

فباسم الحكومة التونسية اجدد له شكري على تفضله بتلبية دعوة لجنة تاريخ الحركة الوطنية ، رغم مشاغله الكثيرة .

كما أتوجه بالتحية ايضا الى الزملاء الجزائريين والفرنسيين والايطاليين والمغاربة والتونسيين الذين استجابوا الى دعوتنا والذين سيساهمون بدون شك في توفير اسباب النجاح لهذه الندوة .

سيداتي سادتي ،

ان ما حدث في 12 ماي 1881 لهو من الاهمية بمكان بالنسبة للتاريخ التونسي .

ذلك ان تونس ، الايالة العثمانية ، قد انتقلت تدريجيا من **الرعاية** الى **الحماية الفرنسية** في نطاق التغلغل الاقتصادي الاوروبي الذي حصل خلال القرن التاسع عشر .

ولقد واجه الشعب التونسي هذه الوضعية **الواقعية** ثم **القانونية** بمقاومة بلغت ذروتها مع كفاح الرئيس الحبيب بورقيبة ، ومن خلال المحن والآلام ظهرت للوجود البلاد التونسية المعاصرة .

والآن وقد عمل الزمان مفعوله ، فانه ليجوز لنا ان ننظر الى ذلك الحدث ونحلله بصورة هادئة وبأقل ما يمكن من الاهواء .

وليس المقصود هنا ادانة او تمجيد الوقائع التي فرضتها حركة التاريخ خلال القرن التاسع عشر وما أسفرت عنه من نتائج خلال القرن العشرين .

فالهدف الذي رسمته هذه الندوة لنفسها يتمثل في محاولة كشف النقاب عن الاحداث التي جدت ، كرد فعل على الاحتلال الفرنسي للبلاد ، مثل مقاومة القبائل المسلحة ، ومقاومة صفاقس وقابس ونشاط اهالي قرى الساحل بمعاضدة الفارين من الجيش الملكي .

وان الامر لا يتعلق في نظرنا بتمجيد المقاومة او استعراض الاعمال البطولية التي قام بها اولئك الذين ادوا واجبهم ، لا غير ، في غمار معركة غير متكافئة بشكل مرعب . بل المقصود هو ان نتبين صورة الاحداث وظروفها ، ما كبر منها وما صغر وما لها من نقط قوة ونقط ضعف .

ذلك انه من الامور الاساسية ان نتجاوز اليوم مركب الرجل المستعمر (بالفتح) وان نحلل تحليلا واضحا وموضوعيا ردود فعل الشعب التونسي اثناء انتصاب الحماية الفرنسية .

ولا يتعلق الامر بالاشارة فحسب الى الاعمال العسكرية الباهرة وبطولة المقاومين ، بل ينبغي ان ندرس كيف جرت تلك الاعمال مع كل ما تتضمنه من حدود ومن ظروف غير ملائمة في ذلك التاريخ اي في سنة 1881 .

على ان دراسة ردود الفعل الحربية التي واجهت بها القبائل الاحتلال لا ينبغي ان تنسينا ان ذلك سيمثل آخر انتفاضة قبلية عرفتها البلاد .

ذلك ان الحركة الوطنية التونسية سوف لا تنشأ من ساحات معركة 1881 بل من المدن التي واجهت الاحتلال الفرنسي بأقل مقاومة في ذلك التاريخ أي في سنة 1881 . وهذا لعمري شيء متناقض .

ولكن هذا التناقض الذي ستتأملون فيه ، سيجد بدون شك الجواب الاولي من خلال اشغال ندوتكم . وبما اني لست من اهل الاختصاص في هذا الميدان فساكتفي بما قلته حول هذا الموضوع .

اشكركم على حسن عنايتكم واحيل الكلمة الى الاستاذ شارل اندري جوليان .

عبد العزيز بن ضياء
وزير التعليم العالي
والبحث العلمي

المدخل العام لموضوع الندوة

السيد الوزير ،

سعادة السفير ،

سيداتي سادتي ،

انه ليسعدني ان احيي في شخصكم الرجل الذي يسهر على حظوظ الثقافة في اعلى مستواها وان احيي السيد السفير الذي ابى الا ان يتذكر ما كان تلقاه في الماضي من تعليم من لدن الرجل الذي امكنه ان يقول له ولرفقائه ان قمة السياسة تتمثل في اسمى ما فيها من نبل . ولقد تفضل باعلامي بانه لم ينس تلك المقولة . اشكره على ذلك كما اشكر التونسيين على هذا الاستقبال الحار الذي تأثرت منه شديد التاثر وهو ما يذكرني اكثر من اللازم باني رجل عاطفي في بعض الاحيان .

اقول لكم بكل صراحة اني لم اهيء شيئا لهذه الندوة واني الى الآن لا ادري ماذا سأقول . فسأستسلم الى مشاعري الذاتية . واطلب منكم المعذرة على ذلك .

لقد اعاد السيد الوزير الى الاذهان مقتضيات التاريخ . كلنا هنا نشهد بأنها الزامية وانه من الواجب احترامها . ولكن الضمير التاريخي يتعرض في بعض الاحيان لبعض المصاعب التي لا يتسنى للمرء ان يتأكد منها ، لاننا ورثنا جملة من الافكار المسبقة والقوالب الجاهزة التي يصعب علينا التخلص منها مهما حسنت نيتنا . على ان التاريخ الاستعماري مثقل كاهله بالقوالب الجاهزة اكثر من اغلب اصناف التاريخ الاخرى ، اذ تتشابك فيه مختلف الظروف

والاتصالات الاكثر والاقل قساوة ، الى حد انه يعسر على المرء التغلب على ذكرياته والنظر الى الوقائع ، رغبة في الحقيقة دون سواها .

فالمؤرخ مهما حسنت طويته لا يستطيع دائما التخلص من بعض الضرورات .

وانه كان يلذ لي ان أعلم طلبتي بأن استاذا من المع الاساتذة الفرنسيين ، كان يشغل منصب مدير مدرسة روما ، قد الف كتابا عن الغوليين وهو كتاب رائع ينم عن مجهود ذهني خارق للعادة ، وضع في صدره نصا من تصنيف المؤرخ فوستال دي كولانج يقول فيه ما معناه : انه يتعين على الانسان قطعا ان ينسى العقلية التي يتحلى بها حينما يدرس الماضي . على ان الفصل الاول من ذلك الكتاب كان يحمل العنوان التالي **الغوليون ونحن** ! فهذا الرجل الذي كان مقرا العزم على الانفصال عن حاضره قد رجع بغتة الى تلك الحاجة القديمة المتمثلة في تصور الماضي بعقلية العصر الحاضر .

وعندما اطالع دراسات حول يوغرطة او خير الدين ، كثيرا ما يبدو لي انهما قد انزلا في سياق تاريخي مخالف لسياقهما وانه من الواجب بذل مجهود خاص لفهم الماضي فهما احسن . ذلك انه من الصعب مثلا تخليص الظاهرة الاستعمارية من مجموع المظاهر التي لا تنتمي الى نفس العصر .

فان ما نعبر عنه بالتعسف الاستعماري او القساوة ، ينبغي مقارنته بما كان يجري آنذاك بانكلترا ، حيث يعمل الاطفال البالغون من العمر ثماني سنوات كامل الاسبوع بالمناجم وحيث يعمل الشغالون اربع عشرة ساعة في اليوم وحيث يتميز نظام الجيش بقساوة فائقة . فمن هذه الناحية ينبغي اذن وضع الواقع الاستعماري في اطاره الاصلي . كما ينبغي ان نبين ما يمكن ان يميزه عن السلوك الاجتماعي العام في فترة ما .

ولا ريب ان العنصر الاستعماري الثابت يتمثل في الاستيلاء على بلد من البلدان وفرض السيطرة عليه ، الا انه توجد طرق تطبيق تتخذ اشكالا طريفة متغيرة .

من ذلك مثلا ان الفوارق التي تميز بين النظام الجزائري والنظام التونسي هي اعمق من الفوارق الموجودة بين بعض الاقطار الاروبية .

وأرى شخصيا ان اكثر امكانيات التقارب توجد على المستوى الثقافي . ذلك انه خلافا لما يعتقده البعض ، فان المسائل الثقافية تستطيع ان تؤثر في سير الامور بقدر ما تؤثر السياسة في الثقافة . من ذلك انني اندهشت في مستهل هذه الندوة من تنوع المواضيع التي ستطرقونها . وهذا ما يدعو حقيقة الى الابتهاج بالنسبة الى رجل كان مجبورا على الرجوع الى المجلات عندما الف كتابه التاريخي الاول منذ خمسين سنة بالضبط . فعندما اشاهد كل هذا الانتاج المحلي ، ارى لزاما علي في بداية هذا العرض ان اعبر للمؤرخين التونسيين الذين طالعت كتاباتهم ، عما اوليه لهم من اهتمام وما اكنه لهم من محبة ، وهي محبة الاب الذي يشاهد ابناءه يسيرون الى الامام . ثم اقول لكم لا توجهوا نقدكم المطلق لغاية التحطيم فقط . فان الاخطاء التي ارتكبت في المؤلفات السابقة لا يرجع سببها وجوبا الى سوء النية . ولكن لا تتورعوا من النقد ولا تحترموا الاعلام فلا تقولوا مثلا : « قال فلان كذا » فهو اذن صحيح . ذلك انه بقدر ما يكون تفكيركم حرا وبقدر ما تكونوا مناضلين ، تتقدمون على درب العلم . واقول على سبيل المثال انه يوجد بفرنسا كتاب فوستال دي كولانج الرائع : **المدينة القديمة** . فلم يبق الآن من ذلك الكتاب كثير من المعطيات الثابتة ، الا ان الانتقادات والحملات التي وجهت ضده قد تسببت في تقدم العلوم التاريخية وجعلت منه تأليفا عظيما .

فكل تقدم علمي راجع لا الى معركة متسترة بل الى معركة شريفة . فالى هذا المجهود يجب ان تفضي مثل ندوة اليوم . فلأبدأ حينئذ بتوجيه عتاب ، وفقا للسنة الجاري بها العمل في هذا الشأن .

لقد اخذتم بعين الاعتبار جميع الآراء التي يمكن التعبير عنها بخصوص حوادث 1881 . الا اني لا اعتقد انه من الممكن دراسة تلك الآراء ـ كما ستقومون بذلك اليوم ـ دون دراسة ردود فعل الشعب الفرنسي . فلقد اخطأتم حينما غفلتم عن ادراج ذلك في برنامجكم . ذلك انه حينما يتواجه شخصان ، فمن الطبيعي ان نعتبر كيف كانت ردود فعل الخصمين وردود فعل الاشخاص المحيطين بهما .

فلو قمتم بتلك الدراسة ، لادركتم مدى قوة الحركة المناهضة للاستعمار التي انتشرت بفرنسا بمناسبة احتلال البلاد التونسية . ولرأيتم كيف قامت الحملة الفرنسية بتونس بدور هام في سنة

1881 في الانتخابات الفرنسية . ولرأيتم كيف كان القسيسون يتناولون الكلمة للتشهير بتلك الحرب الجائرة . ولو قمتم بتلك الدراسة لتمكنتم من الاطلاع على انتقادات البرلمانيين الفرنسيين الموجهة ضد تصريحات الحكومة . ولعلمتم ان كليمانصو ، وهو افصح الخطباء ومقوض الوزارات ، قد القى خطابه الاول حول جول فيري . ولرأيتم كيف كان النواب يطالبون على منبر البرلمان باستعمال الطرق المشروعة في السياسة المتبعة في هذا الميدان . ولادركتم كيف كانت القضية التونسية تحتل الصدارة في الصحف الفرنسية . ولرأيتم كيف اكتست محاكمة رسطان اهمية بالغة ، تلك المحاكمة التي شهدت مدة اربعة ايام مواجهة بين الفرنسيين بتونس وفرنسا ، وقد استظهر خلالها بعض كبار رجال السياسة بوثائق عجيبة . ولامكنكم الاطلاع على ما أثارته القضية التونسية من اهتزاز واهتمام بالغ . فرواية الكاتب موباسان **الصديق الجميل** التي تروي قصة جرت احداثها بالمغرب الاقصى ، لم تكن سوى نقل للاحداث التي جرت بالبلاد التونسية . حيث نجد فيها ذكر جول فيري والكردينال لافيجري تحت اسمين مستعارين ، بدعوى تورطهما في القضية المغربية . ولقد حصل هيجان كبير سوف لا يكون له اي اثر في بحوثكم . فلتسمحوا لاستاذكم القديم ان ينبهكم الى هذا النقص . ولتسمحوا لي ايضا بانتهاز هذه الفرصة لاتحدث بايجاز عن القضية التونسية . فلقد كانت تلك القضية بمثابة المسرحية المعقدة التي تتشابك فيها الاحداث والتي يعسر فيها الفصل بين الوقائع . ففرنسا هي بلاد اخذت منذ عشر سنين فقط في النهوض من الهزيمة . وهي بلاد تسعى الى اعادة شرفها وهيبتها . ولا ينبغي — بسبب ظهور افكار مناهضة لمثل تلك النظرية — ان نحكم بعقليتنا الحاضرة على عصر كان الناس يعتقدون فيه ان الغزوات ترفع من شأن الامة . فلقد كان رجال الاعمال يقومون بدور كبير ولو ان اي رجل دولة فرنسي لم يساهم في اية متاجرة . ولكن الناس كانوا يعيشون في عصر لا يوجد فيه اي فرق بين السياسة والاقتصاد .

فعندما اشترك خير الدين مع فيلي للتخفيض من الدين ، كانت النتائج الاجتماعية لتلك العملية فظيعة . ولكن العملية كانت متماشية مع روح العصر . فكان المسؤولون يفكرون في تحقيق التوازن المالي دون التفكير في عواقبه المالية وما قد ينجر عنه من بؤس وشقاء . وبناء على ذلك فقد وافق خير الدين على التخفيضات التي اقرها الشريك الفرنسي الذي كان ، مع ذلك ، رجلا على غاية من

النزاهة . اننا ندين اليوم ، بحق لا الوقائع فحسب بل العقليات ايضا .

ولقد كان اشد الناس تحمسا في ذلك العصر السفراء : كوسال ونواي وسان فالي .... ولم يكن احد ينازع في نزاهة اولئك الدبلوماسيين . الا انهم كانوا يعتقدون ان مساندة رجال الاعمال — حتى في تطرفهم — أمر طبيعي بالنسبة لذلك المجتمع الذي يشهد ازدهار رأس المال .

فهذه اذن نقطة من النقط التي ينبغي التدقيق في تحليلها مع محاولة التخلص من الاخلاقية الجديدة التي تطبع سلوكنا الحالي والتي لم يكن احد يتصورها في العصر الذي حدث فيه احتلال البلاد التونسية . الا انه توجد دائما اقلية متقدمة منفصلة عن النماذج التقليدية . اذكر من بينها كليمانصو . وينبغي من ناحية اخرى التخلص من بعض الاساطير . من ذلك مثلا ان الناس يعتقدون ان جول فيري قد اهتم على وجه الخصوص بالبلاد التونسية . والواقع انه ، خلافا لذلك ، قد كان مناهضا للحملة التونسية . ولو لم يكن كذلك لما اتخذ موقفه المعروف اثناء اجتماع مجلس الوزراء الذي صادق على امكانية التدخل بالبلاد التونسية . فلقد امسك ثلاثة وزراء فحسب عن التصويت وكان جول فيري من بين الذين اجابوا بالرفض . ولكن حصل ضغط دبلوماسي ، لا مجال لذكره هنا ، افضى الى استمالة اشد رجال السياسة نفوذا الا وهو غمبطا .

لقد كان غمبطا وطنيا مفرط الوطنية وقد تم اقناعه بدون شك بان رجال الاعمال في خدمة التوسع الاقتصادي . فلو كانت فرنسا دولة امبريالية حسب تعبيرنا اليوم لماذا انتظرت سنة 1881 ؟ هذا مشكل ينبغي طرحه . فكل اولئك الرجال العظام الذين تقلدوا المناصب الوزارية قد ورثوا قرارات مؤتمر برلين ، وهي قرارات على غاية من الغموض . واكبر دليل على ذلك ان جول فيري قد صرح بانه « لم يدر الحديث حول القضية التونسية ببرلين » . وهذا هو عين الحقيقة ، ولكنها حقيقة دبلوماسية . حيث لم يدر الحديث حول تلك القضية اثناء الجلسات ولكنها اثيرت في المعابر . ومن الجلي ان المنافسة الفرنسية الايطالية في ذلك التاريخ كانت شديدة للغاية وان فرنسا كانت في حالة دفاع وبالاحرى في حالة نقص ، تجاه القنصل الايطالي ماشيو . وكان الاتجاه نحو امكانية التدخل . فماذا كانت تفعل انكلترا ؟ انها كانت تريد تعويض

مساندتها لفرنسا بالحصول على قبرص . حقا ان هناك تحالفات مريبة . لقد كانت انكلترا تبحث عن صيغة لاحتلال قبرص دون ان تثير معارضة فرنسا . فالبريطانيون هم الذين قالوا للفرنسيين : استولوا على البلاد التونسية . ولماذا تم تسليم تلك البلاد الى فرنسا ؟ لقد كان بزمارك يرغب في تحويل نظر فرنسا عن خط جبال الفوج الازرق . فلتطرحوا هذا المشكل . كل هذا قد وقع في سنة 1878 ولكن لم يتم التدخل الا في سنة 1881 . لماذا ؟ لان كرسال قد تمكن من اقناع غمبطا الذي كان معارضا لمثل تلك الاجراءات . وبعد ما خمدت تلك القضية مدة ثلاث سنوات ، افضت الى تدخل متسرع ، حيث اختلق الفرنسيون مشكلة خمير . وهو اختلاق بديع اثار استهزاء الصحافة في ذلك العهد . ولقد تناول المجادل العنيد روشفور تلك القضية بسخرية فائقة ، فنشر صورة تمثل الجنرال فور جمول وهو يبحث بدون جدوى عن أهالي خمير في جبال طبرقة بواسطة قنديل . وعندئذ ظهر بفرنسا هذا الشعار « ابحث عن الخمير » . ولقد كتب روشفور يقول : كل من يأتي بأحد ابناء خمير يحصل على مبلغ طائل من المال . وكل هذا ليس من باب النوادر . فما علينا الا ان نطالع كتاب المؤلف لودوفيك هالفي الذي يحمل عنوان **الراهب قسطنطين** ، لندرك مدى تغلغل فكرة الخمير **بفرنسا** .

كما ان دور النساء كان هاما بالنسبة لنشأة القضية التونسية . ولنذكر على سبيل المثال السيدة الياس موصلي التي لعبت دورا اساسيا في هذه القضية . ولقد قال كمبون في سنة 1882 ان السيدة موصلي مسيطرة على مدينة تونس . وهي من بين النساء الجميلات اللائي تحدث عنهن التاريخ . فقد وصلت للمرة الاولى الى باريس وهي في سن الثامنة عشرة . ولقد بلغت جاذبيتها الى حد ان احد المسؤولين بوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية قد تبارز من اجل تلك الحسناء . ولقد كانت تلك المرأة الجنوية (نسبة الى مدينة جنوة) في علاقاتها الاجتماعية على غاية من المروءة . كما سلطت مناورات السيدة موصلي ضغوطا على الباي . وذلك هو الوجه البشع من القضية التونسية . ولكن من الواجب اخذه بعين الاعتبار . لانه لا ينبغي اقصاء اية حقيقة . ولو ان سيطرة الرجل على المرأة عبر التاريخ قد حاولت ابعاد تأثير النساء .

وبهذه الصورة تمكنت من ادراك ما لم يستطع اي احد ادراكه الى حد الآن بخصوص مسألة تخلي فرنسا عن البرازيل وغينيا في

القرن الخامس عشر . فلقد اطلعت في الوثائق البرتغالية على معاهدة الملك جان الثاني الذي كان رجلا من طراز ممتاز ، وقد رأى من الضروري التفاهم مع فرنسا . فاختار شابا بديعا يبلغ عشرين سنة من العمر . وبفضل الصلات الحميمة التي ربطها ذلك الدبلوماسي الشاب بالدوقة ايتامب ، تمكنت هذه الاخيرة من الحصول على موافقة خليلها الملك على التنازلات التي كانت ترغب فيها حكومة لشبونة . كل هذا قد حصل حينئذ بين شاب وحظيته . ولا اود ان اختم حديثي بهذه النادرة ، فهناك اشياء كثيرة يمكن التحدث عنها .

بل اود ان اقول بالخصوص للمؤرخين الشبان ان من حقهم النقد وليس من حقهم السهو .

فاذا كنتم غير متيقنين من حدث فليس من حقكم ان تعتبروه شيئا مفروغا منه . فلا وجود الا لعلم واحد . ولا وجود الا لطريقة واحدة للنزاهة . فمع التعبير عن افكاركم يتعين عليكم ان تعبروا ايضا عن افكار خصمكم بدون تحريف . اذ لا يحق لكم ان تقدموا جانبا واحدا من الاشياء لتفرضوا آراءكم على الغير . فمن حق القارىء ان يكون آراءه بنفسه .

وان الفائدة من مثل هذه الندوة تكمن في تضارب الآراء الذي سينشأ عنها فيما بعد ، بشرط ان لا يكون ذلك التضارب لاذعا او خبيثا بل ان يكون متولدا عن حاجة الجميع للوضوح !

فلا ينبغي للمؤلف الذي كان محل معارضة ان يغتاظ . بل عليه ان يعتبر ان خطأه المعروض بصريح العبارة يمثل تقدما بالنسبة للعلم . فلا يعتبر اي مصدر كافيا ، اذ هناك من الاشياء ما نعتقدها صحيحة لانه لم يتم التحقيق فيها قط . كما ان الاسطورة تكون احيانا اقوى من الحقيقة . ويقال ان ليوتي قد استشهد في رسالة موجهة الى اخته ببيت شعر منسوب الى الشاعر شيلاي « فرحة الانسان في العمل » . ولم اكتشف الا في سنة 1945 ان شيلاي لم يكتب ابدا مثل هذا .

فهنـاك حينئـذ افكـار متلقـاة . ومهمـا تكـن عظمـة الـرجل وصـواب التـوثيق ، يتعـين عليكـم اعـادة النظـر في كـل مـا كتـب ، ولقد قـال المؤرخ كركوبينـو : « انمـا تـوجد الثلمـات في المسـالك المتعـرجة » فعليكم سـد تلـك الثلمـات . ولتشـرعوا في العمـل وليسعفكـم الحظ !

شـارل انـدري جـوليـان
الاستـاذ الشـرفي بجـامعة السـوربون
والعميـد الشـرفي لكليـة الآداب بالـرباط

الجلسـة الثـانيـة

رئيـس الجلسـة :

ـ **عبد القـادر الـزغل** ، الاستاذ المحاضر بمركز الدراسات والبحـوث الاقتصادية والاجتماعية بتـونس .

البحـوث :

● المقـاومة التـونسية في سنـة 1881 : مظاهرهـا المختلفـة : **خليفـة شـاطر** ، الاستـاذ المحاضر بكليـة الآداب والعلـوم الانسـانية بتـونس .

● ردود الفعل الجزائريـة على الاحتـلال الفرنسي : **محفـوظ قـداش** مديـر معهـد علـم المكتبـات بالجزائـر .

المقاومة التونسية في سنة 1881
مظاهرها المختلفة

لقد اجتاح جيش الغزو الفرنسي الايالة التونسية يوم 24 افريل 1881 بدعوى مجابهة خطر الخمير والدفاع عن المستعمرة الجزائرية المتعرضة لذلك الخطر . وكانت العملية تبدو سهلة ، فهي عبارة عن **استعراض القوة** او بالاحرى ـ حسب العبارة المعروفة ـ **جولة عسكرية** ترمي الى تحقيق احتلال تلك المقاطعة الواقعة تحت سلطة الباي .

وسرعان ما اجبرت الجيوش الفرنسية على التخفيف من غلوائها . ذلك ان امضاء معاهدة قصر السعيد القاضية بانتصاب الحماية في 12 ماي 1881 ، لم يضع حدا للمعارك . فاضطرت الحكومة الفرنسية الى توقيف عملية ترحيل الجيوش وارسال امدادات جديدة واعادة تكوين جيش الغزو لمواجهة الثورة العامة . وسيتواصل غزو البلاد الى سنة 1883 . ولكن جميع المقاومين لم يلقوا السلاح . حيث استطاعت عدة جيوب مقاومة وبالخصوص في الجنوب التصدي لجيوش الاحتلال . وكان من الضروري ان تستمر عملية **التهدئة** أي اخضاع المجموعات المقاومة بحد السلاح ، مدة اطول من ذلك .

فرغم نقص السلاح وتخلي السلط الرسمية عن المعركة ، استطاعت حركة المقاومة ان تشكل **سلطة مضادة** شعبية وان تعرقل حركة تقدم جيوش الاحتلال والاحراز على بعض الانتصارات . وان حركة تكتسي مثل هذه الاهمية لهي جديرة بان تحلل وتدرس لانها تمثل حدثا بارزا في تاريخ البلاد التونسية الحديث .

أولا : ملاحظات عامة : (1)

1) تعتبر المقاومة التونسية في سنة 1881 اولا وبالذات **جهادا** (2) ضد المحتل النصراني . وبهذه الصورة فان المقاومة تكتسي صبغة دينية لاغبار عليها . حيث يتعلق الامر بالدفاع عن ارض اسلامية تعرضت للغزو والاعتداء ولم يكن يتمثل – من حيث المبدأ على الاقل – في حركة مقاومة وطنية ، وذلك حسب تاكيد المقاتلين . ولكن الواقع متشعب اكثر من ذلك . فلا يفوتنا ابدا ان رد الفعل التونسي ابان احتلال الايالة الجزائرية لم يتجاوز التعبير عن مشاعر التضامن . ومن ناحية اخرى فان المقاومة كانت في سنة 1881 مقصورة على المجال السياسي والاجتماعي الخاص بالايالة التونسية . فالامر يتعلق حينئذ **بالجهاد** من اجل الدفاع عن كيان بعينه الا وهو **الكيان التونسي** المطابق لتراب دولة العائلة الحسينية .

2) وهذا يدعونا الى ان نأخذ بعين الاعتبار هذا **المبنى السياسي** التونسي . ذلك ان الرؤية الوحدوية او السابقة للقومية ، التي كانت لبعض المصلحين التونسيين (طبعا في نطاق **الامة** ومجال السلطنة والخلافة العثمانية) ، لم تكن متبادلة مع رعايا الباي من سكان الايالة ، حيث ان دراسة المجتمع التونسي قبل الحماية تدل على وجود مشاعر جماعية خصوصية . ذلك ان الجماعة (في القبيلة او القرية او المدينة او حتى الحي في بعض الاحيان) تبدو الخلية الاساسية التي تتخذ في صلبها القرارات الهامة . وان الدولة التونسية لم تتوصل ابدا الى ادماج تلك الشبكة من القبائل والقرى ضمن بنية سياسية متمركزة . فالدولة التابعة للاسرة المالكة لم تكن – من الناحية النظرية على الاقل – سوى حلقة من تلك السلسلة أي الواسطة بين المجموعة المحلية والامة الاسلامية . (3)

(1) راينا من المفيد في مقدمة هذا البحث ان نتلو بعض الفقرات من رسائل الفارين من الجيش في سنة 1881 وذلك حرصا منا على اعطاء الكلمة لأولئك الذين « قاموا بدورهم » في مجرى الاحداث والذين « اقصوا من التاريخ » أي اولئك الجنود الذين اتجهوا في وقت الشدة الى الخيار الحاسم فالتحقوا بالمقاومة وتخلوا عن السلطة التي القت السلاح . وسنتولى نشر هذه الوثيقة في فترة لاحقة .

(2) راجع رسالة مواعيد السرس الى الحاج علي بن عون (خزينة الوثائق التونسية صندوق 26 ملف 306 رسالة 33) .

راجع ايضا رسالة محمد المرابط الى مصطفى بن اسماعيل (نفس المرجع 17 ملف 192، رسالة 120 في 9 جوان 1881) .

ورسالة الطيب بن الحاج ومحمد بن عمار ومحمد الناصف الى مصطفى بن اسماعيل (نفس المرجع صندوق 178 – ملف 968 رسالة ، 5 في 28 أوت 1881) .

(3) راجع دراستنا « عناصر دراسة بعض مظاهر العصبية بالبلاد التونسية في القرن التاسع عشر » – مجلة « كراسات تونسية » 1977 صفحات 61 – 73 .

وليس غرضنا التنقيص من قيمة مختلف عوامل الاندماج في القرن التاسع عشر ولا نكران تقدم حركة التمركز او تجاهل خضوع عمال القبائل الذين يتصرفون ، في فترات الهدوء بالخصوص ، بصفتهم اعوان الحكومة . ولكن في فترة التأزم تتحول المجموعات القبلية احيانا الى **سلطة مضادة** .

3) ان « وحدة » الايالة لا يمكن الا ان تمثل التاليف او بالاحرى الجمع بين مختلف انواع : **عصبية الانتحام** ، ذلك ان التضامن الثوري لم يكن في الحقيقة سوى تحالف المجموعات التي لا تستطيع ولا تريد في تلك الظروف الاندماج بعضها في بعض . ولقد اتضح ذلك اثناء ثورة 1864 التي عرفناها بكونها «مقاومة بدائية » أي ان ابناء الصفوف المتنافسة والسكان شبه الرحل والسكان الحضريين قد استمروا في مراقبة بعضهم بعضها . اما تحالف الحضريين وابناء المثاليث (اولاد نجم) ابان ثورة صفاقس يوم 30 افريل 1864 ، فهو يعتبر من الحالات الاستثنائية . على انه من الجدير بالملاحظة ان ذلك التعاون قد اكتسى صبغة ظرفية . حيث ان ثورة 1864 قد بينت وجود نوع من التفاوت بين مواقف القبائل ومواقف القرى والمدن (4) .

ثانيا : مختلف مظاهر المقاومة :

ان ما اتخذته مختلف المجموعات في سنة 1881 من مواقف يقيم الدليل ، من خلال نوع من التعبير عن مشاعر التضامن الجماعي ، والتشارك في المحنة على بلوغ درجات معينة من الالتزام ويبرهن على مراحل نضج الظاهرة الثورية .

ولا شك انه توجد مواقف مختلفة لا يكفي تفسيرها بتقدير مدى الخطورة ولا بدرجة الشجاعة .

1) تخلي السلطة الحكومية عن المعركة :

لقد رفض الصادق باي من اول وهلة خيار الكفاح المسلح (5) وبالعكس من ذلك ، فقد حاول الاعتراض بالطرق الدبلوماسية حيث اصدر الامر الى اعوانه للاحتجاج على اي غزو للبلاد ووجه البرقيات الى القناصل ورفض التأكيدات الفرنسية (6) واظهر رفضه امضاء معاهدة 12 ماي مصرحا

(4) نفس المرجع صفحات 68 – 73 .

(5) رسالة من محمد الصادق باي الى باي المحلة علي (خزينة الوثائق التونسية صندوق 215 ملف 3002 وثيقة 2 افريل 1881) .

(6) راجع رواية مصالح الحكومة التونسية لاصول الازمة الفرنسية التونسية (خزينة الوثائق التونسية صندوق 215 – ملف 300 – وثيقة 3 ، 25 – 1881/4/27) .

بانه يـوقع عليها مكرها ومرغما (7) وبعد 12 مـاي ستتعاون السلط التونسية مع سلط الاحتلال بدون تحفظ على « تهدئـة » البـلاد .

2) مختلـف ردود الفعـــل :

منذ 20 جـوان 1881 ، اعتبرت البـلاد باكملها ـ ما عـدا بعض المناطق المحدودة ـ في حالة تمرد : ثورة القبـائل واجتماعات « الحلـق » المتعددة (8) والتحالف بـين البدويين والحضريين للدفـاع عن صفـاقس (40 شيخـا من شرطة صفاقس و 10 مثاليث) (9) وثورة الفلاحين . ولقد تبعت ذلك سلسلة من المعـارك (10) واصبحت البـلاد في قبضة الجنـود الذين فـروا من الجيش (معـارك القلعة الكبرى والساحلين واولاد ليـة والاعمال البطولية بالجنوب ، الى غـير ذلـك ...) .

وهـل يمكننـا ان نتحدث عن ارتـداد المـدن ؟ لقـد ظهر اهـالي المـدن نسبيـا بمظهر الاستسـلام (11) ولكن لا ينبغـي ان نهمـل بعـض مظـاهر

(7) راجـع محاضر المقابلـة بـين الباي والجنرال بريار (نفس المرجع والوثيقة 161 و 166) ولقـد اكدت ذلـك ايضـا المصادر الفرنسية ، راجـع مثـلا كتاب « احتـلال البـلاد التونسية 1881 1883 » (تونس 1885 صفحات 47 ـ 52) .
راجـع ايضـا : « انتصـاب الحماية الفرنسية بتونس كمـا راته الصحافة الامريكية »
ـ المجلـة التاريخية المغربية ـ نوفمبر 1981 ـ صفحـة 294 .

(8) رسالـة محمـد المرابط الى مصطفى بن اسماعيـل ، خزينـة الوثائق التونسيـة صندوق 17 ملف 192 رسالـة 108 ـ ومـاي 1881 : حلقـة ماجـر والفراشيش واولاد عيار .
ـ رسالـة من نفس الشخص الـى نفس الشخص : عـدد 19 4 جـوان 1881 حلقـة اولاد ايـديـر .
ـ رسالـة من نفس الشخص الى نفس الشخص عـدد 120 وجـوان 1881 ، حلقـة المثاليث الهمامـة وبنـي يزيـد الـخ .
ـ رسالـة من نفس الشخص الى نفس الشخص عـدد 163 اوت 1881 حلقـة جـلاص (5) راجـع عن مقاومة صفـاقس : خزينـة الوثائـق التونسية : صندوق 41 ملف 464 وصنـدوق 215 ملف 307 .
وراجـع ايضـا : جيـرار « ذكـريـات بحريـة » 1881 ـ 1883 ـ بـاريس 1895 ـ صفحـات 63 ـ 68 .

(10) بالنسبـة لتلـك المعارك ، راجـع بالخصـوص :
ـ « احتـلال البـلاد التونسية » المرجع السابـق
ـ جـرار ـ المرجـع السابـق ـ
ـ برود لاي « الحرب البونيقية الاخيرة » (باللغـة الانجليزية) لنـدن ـ جزءان ـ

(11) باستثنـاء المقاومة المسلحـة في صفاقس وبنسبـة أقل في قـابس .

المقـاومة بالمـدن : مثل الاعتزام على المقـاومة بالكـاف (12) وبعض المناوشات التي حصلت بطبرقـة (13) والتأثر الشديـد بالعـاصمة على اثـر التوقيع على المعـاهدة واقتراحات المقـاومة التي قدمهـا كل من العربـي زروق وشيخ الاسـلام احمد بن الخوجـة ورفض دفع الغرامة بباجة (14) ورفض تسلـيم الاسلحة الى جيش الاحتـلال بمـاطر (15) ومشـاعر المناهضة التي عبـرت عنها البـلاد باسرهـا (16) .

وتـدل تقـارير ضبـاط الاستعلامات ان سكـان المـدن كانـوا منقسمين الى شقـــين :

ـ حزب النظـام الذي يـرى ان المقـاومة ليس لهـا اي حظ من حظوظ النجـــاح .

ـ وحـزب المقـاومة والاحتجـاج .

فردود فعل كل مجموعة مرتبطة حينئذ بموازين القـوى بالنسبة لكل شق من الشقـين وذلك بالنظر الى التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للشقق المعني بالامر . (الطبقات الاجتماعية ومصـالح المجموعة وقادتهـا ، الـواجب الحفـاظ عليهـــا) (17) .

الخـاتمـــة

ان الاحداث المأسويـة التي شهدتهـا البـلاد التـونسية في ذلك التـاريخ قـد تسببت في ظهور بـوادر الـوحدة في كنف المقـاومة (تجـاوز الخصومات القبلية والعمل على التنسيق بين انشطة السكـان شبه الرحل وانشطة سكان القرى والمـدن عن طريق الجيوش المشتركة) . ولا ينبغي ان ننقص من شـأن تغيير الروابط التي كانت موجودة بين مختلف المجموعات . فلقد كان البـاي

(12) احتـلال البلاد التـونسية ـ المـرجع المذكور صفحـات 30 ـ 31
(13) نفس المصـدر ـ صفحـة 34 .
(14) رسالـة بـاش شاوش الوجـق بباجـة علي بن محمـد بلافي الى رسطـان ـ خزينـة الوثائق التونسية ـ صندوق 30 ـ ملف 365 رسالـة 94 في 25 جـوان 1881
(15) انظـر رسالـة عامـل ماطـر الى الوزير الاكبر
نفس المرجـع ـ صندوق 31 ملف 375 رسالـة 14 في 15 اوت 1881
(16) انظـر مثـلا مواقف مدينـة تونس ومدينـة باجـة :
« احتـلال البلاد التونسية » صفحات 5 ـ 52 و 62 ـ 63 .
(17) خزانـة الوثائق التونسية ـ صندوق ملف 307 ـ رسالـة 47 في 17 ديسمبر 1881 (صـادرة عن نائب القنصل الفرنسي بصفـاقس) .

يمثل دعامة البنـاء السياسي التونسي ، وبعد 12 مـاي ظهرت للوجـود سلط مضـادة وتجمعات تحـاول فرض نفسها . ولكن رغم انخفاض سلطة البـاي والتـأكيـد على الانتمـاء الى **أمـة** فـان التمسـك بكيـان يغطـي المـجـال التونسي قد بقي امرا اساسيـا . الا ان التفـاوت بين مواقف المجموعات تجاه المحنة ، بالنظر الى عدم تكافؤ القـوى ، قد وضع حـدا للتطـور الـرامي الى اعـادة البنـاء السيـاسي ، والذي يتعين علينـا السعي الى تحليلـه .

خليفـة شـــاطر
بكليـة الآداب والعلـوم
الانسانيـة بتـونس

ردود الفعـل الجـزائريـة على الاحتـلال الفـرنسي

لم يهتم بردود فعل اهـالي الجزائـر المسلمين ومواقفهم تجـاه احتـلال بـلادهم الا عـدد قليـل من المشاركين والشهـود الاروبيين بـل قـل من المـؤرخين للسنـوات الاولى من الاحتـلال الفرنسي . فيتعـين على المـؤرخين الجزائريـين الذين يريـدون اليـوم كتـابة تـاريخ بـلادهم ان يدرسـوه من الـداخل وان يحللـوا التـألم من ذلك الاحتـلال ورفضه وبالتـالي مقـاومة اجدادهم ، وتلك هي وحدهـا المقاييس الصحيحة لتقريـر الاحـداث من وجهة النظر الجزائريـة ، بـدون ان نهمل ذكر مـا ابـداه بعض الجزائريـين من استسلام وخضـوع بـل حتى من تخـاذل وخيـانة ، وبالتـالي تعاونهم مع المحتل ، مع الاشـارة الى وجـود فوارق دقيقـة في بعض المواقف . الا ان عـامل المقـاومة هو المطـابق اكثر لتـاريخ الجزائر الـوطني الذي يبحث عن مصـادره في المـاضي لتأكيد الحـاضر والدفع بـه الى الامـام .

اولا : المقـــاومة المسلحـــة :

لقد كانت المقـاومة الجزائريـة صـادرة عن الجيش النظـامي وبعـض المـدن والعـروش والقبـائل ، على وجـه الخصـوص .

1 – جيـــش التـــرك :

لقد ادى الجيش النظـامي واجبه . ولكن ممـا لا شك فيـه انه لم يكن مستعدا لذلك كما ينبغي ، وقـد كانت تنقصه القيـادة الحكيمة ، كما كان الآغـا ابـراهيم يفتقر الى روح المبـادرة . امـا ان الجيش قد كانت تنقصه الشجاعة وانـه اخـل بالمهمـة الملقـاة على عاتقه ، فهذا قـول يفنده الواقع .

فلقد تحول الجيش المتمركز بمدينة الجزائر صحبة قايد سباو في اتجاه الجنود الفرنسيين بسيدي فرج والتحقت به وحدات القوات المسلحة بالاقاليم الثلاثة بقيادة احمد باي وبو مزراق وخليفة باي وهران (1) ولقد وجه احمد باي الغارة ضد الجناح الايمن للجيش الفرنسي بينما انقض باي تتري على قلب الجيش وهجمت الوحدة التي يقودها ابراهيم على الجناح الايسر (2) .

ورغم الدعاية الفرنسية التي كانت تحاول معارضة الاتراك لبقية سكان الجزائر (3) ، فقد قام كثير من الاتراك بواجبهم . من ذلك انه سجل وجود عدد من القاتلين يتراوح بين 50 و 60 000 بمركز سطاولي ، من بينهم 7 000 مقاتل تركي مات منهم 3 000 رجل ، وقد أشار بارشو بانهوان في هذا الصدد الى ان « العدد الاخير ليس بالامر الغريب اذا ما لاحظنا ما ابدوه من اندفاع طوال ساعات عديدة من القتال واذا ما قارناه بكثرة عدد القوات الموجودة في عدة نقط من ساحة العمليات . ويمكن ان ناخذ فكرة عن تحمسهم اذا علمنا ان كثيرين منهم قد انتحروا كي لا يقعوا في قبضتنا وهم احياء » (4) .

وعند انتشار خبر فشل معركة سطاولي عم الاستياء مدينة الجزائر ثم زال الفزع قبل نهاية النهار . فجمع الداي وزراءه واهم ضباطه بالديوان كما اجتمع العلماء من جهتهم . وتم ارسال عدة مبعوثين الى جميع انحاء البلاد لطلب تجميع كافة الجيوش المتفرقة . كما تم تعزيز الدفاع عن برج السلطان وقد ركزت به حامية تضم 2 000 رجل . ومن الغد خرجت عدة آلاف من الرجال بمدينة الجزائر ينادون « اننا مستعدون للموت في سبيل الله » وفي صبيحة يوم 20 جوان التحقت بهم عدة وحدات من العروش (5) .

وانعقد آخر اجتماع بالديوان في الليلة الفاصلة بين 4 و 5 جويلية 1830 بحضور الفين من الاتراك . وقد اقترح المفتي محاولة الخروج من

(1) « مجموعة اعلانات ومذكرات جمعية الآثار بقسنطينة » 1865، ص 73 .

(2) دوق اورليان « حملة جيش افريقيا » (المقدمة) .

(3) نذكر على سبيل المثال هذا النداء الذي وزعه قنصل فرنسا بتونس : « نحن الفرنسيون اصدقاؤكم سندهب الى مدينة الجزائر لنطرد منها الاتراك ، اولئك الطغاة الذين يضطهدونكم ويستحوذون على املاككم وخيرات ارضكم والذين ما زالوا يهددون حياتكم » (جريدة « المونيتور » 25 ماي 1830)
« مذكرات ضابط بافريقيا » ـ المذكرة 12 الصفحات 434 ـ 435 ـ
(Barchou de Penhoen) (4)

(5) العريد (Alfred) تاريخ غزو الجزائر ـ باريس 1856 ص 364 .

المدينة والبحث عن ملجا داخل البلاد عوض قبول الاستسلام (6) فرحب عدد كبير من جند الانكشارية بهذا الاقتراح . ولكن الاغلبية رفضت هذا الحل خوفا على حياة النساء والاطفال .

ويمكن ان نذكر عدة اعمال بطولية قام بها الانكشاريون . منها هذه القصة المؤثرة التي رواها الامير شفرزنبرغ : « اثناء القصف الذي وجهته مدفعية سان لويس صوب برج السلطان تمكن احد الشبان الاتراك الذي كان في مقدمة جنوده ، من الصعود فوق المتراس حاملا سيفه ، وغرس علما . فأصيب بطعنة سيف وتدحرج في الخندق ولكنه استطاع ان ينهض ، محاولا تجميع جنوده الذين كانوا قد انسحبوا . فجرح مرة ثانية ، ورغم الكسر الذي اصاب ركبته استطاع ان ينهض من جديد ، موجها نداءه الى رفقائه . وعندما راى ان نداءه لم يجد نفعا شتم الفرنسيين ثم طعن نفسه بسيف تركي محدب (يطقان) » (7) .

وفي شهر سبتمبر 1830 بعنابة ، كان الاتراك هم الذين بادروا الى شن الثورة ضد الفرنسيين . وقد استعانوا مقابل مبالغ مالية بالجنود المسلمين العاملين في الجيش الفرنسي ، فتمكنوا من الاستيلاء على القصبة وصد الفرنسيين الذين اجبروا على التخلي عن المدينة وتركوها تحت سلطة ابراهيم ، قائد الاتراك الثائرين .

وفي فج وادي الشفة خاض الاتراك المعركة بنفس الحماس الذي اظهرته الوحدات المسلحة التابعة للعرش ، وذلك لمعارضة الفيالق الفرنسية المتجهة الى مدية .

2 ـ مقاومة سكان المدن :

لقد بدأ الفرنسيون حملتهم بالهجوم على المدن . فمن المفيد حينئذ التعرف على ردود فعل سكان المدن .

رغم الظروف غير الملائمة ، فان كثيرين من سكان المدن قد كافحوا في اغلب الاحيان الى آخر رمق . ولقد سجلت في هذا الميدان اعمال بطولية متعددة يمكن ان نذكر منها عدة امثلة . من ذلك ان مقاومة اهالي بجاية قد

(6) « احتلال مدينة الجزائر يرويها أحد الجزائريين وهو الحاج احمد افندي الذي هو من مواليد مدينة الجزائر » .
« المجلة الآسيوية » أوت 1862 ص 3 .

(7) تاريخ غزو الجزائر ـ المرجع السابق صفحة 416 .

كانت مثيرة للاعجاب . ففي ضواحي المدينة اجبر البحارة الفرنسيون على احتلال البيوت التي التجأ اليها بعض القبائليين ، بيتا بيتا . كما ان شهادة دوق أورليان لا تدع مجالا لاي شك حول المقاومة المستميتة التي ابداها اهالي بجاية في سبتمبر واكتوبر 1821 : « فبالرغم من الهزائم التي تكبدها القبائليون ، لم تكن تلوح عليهم اية علامة من علامات الوهن او الملل . حيث كانوا يشعرون بمساندة سكان جبال جرجرة المقاتلين الذين مافتئوا يأتون لتعزيز صفوفهم . فكانوا مستعدين للرجوع الى القتال بحماس وثبات متجددين » (8) .

اما مقاومة قسنطينة فلم تكن تفتقر الى العظمة . فلقد وصف لنا دوق اورليان ما اتخذه السكان من تدابير وما تحلوا به من حزم « لقد اقيمت المتاريس القومية المتصل بعضها بعض في الشوارع الضيقة المفضية الى الفتحة . وكانت المنازل محتوية على فتحات لتمكينها من تلقى الاوامر كلما ابتعدت عن اسوار المدينة . واما المقاتلون المسلمون الذين كانوا واثقين بتلك التدابير وواثقين بانفسهم وواثقين اكثر من كل شيء بالله ، فقد كانوا ملازمين مراكزهم ينتظرون كامل الليل ، وسط الابتهالات الخاشعة ، الهجوم بدون تخوف » (9) ، وجوابا عن اقتراح الاستسلام الذي قدمه الفرنسيون صرح ابن البجاوي بما يلي : « اذا افتقر النصارى للبارود بعثناه لهم واذا افتقدوا الرغيف تقاسمنا رغيفنا معهم . ولكن مادام احدنا على قيد الحياة لايمكنهم احتلال قسنطينة (10) ولم يكن هذا الجواب رائعا ببلاغته فحسب بل كان اسمى من ذلك . فوفاء ليمينه بعدم مشاهدة احتلال قسنطينة وهو على قيد الحياة ، انتحر قائد الدار باطلاق رصاصة على راسه .

ومما تجدر الاشارة اليه ما ابداه من بطولة بعض سكان الواحات الذين يمكن ان نعتبرهم « حضر » الصحراء . ولقد اتضحت روح المقاومة بالخصوص مع المجاهد بوزيان . حيث اضطرت الجيوش الفرنسية في الزعاطشة الى تحطيم كامل الواحة بيتا بيتا ، وكان آخرها بيت بوزيان الذي وقع في الاسر ثم اعدم رميا بالرصاص . وقد اصبحت الزعاطشة كوما من الاطلال والانقاض . ورغم ذلك فقد تمكن بعض المقاومين الاباة الذين

(8) دوق ادورليان (Duc d'Orléans) حملة جيش افريقيا 1835 ـ 1839

(9) نفس المرجع صفحة 353 ـ

(10) نفس المرجع صفحة 346 ـ

اختفوا في بعض الحفر ، من اصابة عدد من الفرنسيين بجروح (11) . وقد ارتدت النسوة اجمل الثياب لحضور موكب دفن شهداء الجهاد .

وللمقاومة بصورة افضل ، طلب بعض سكان المدن العون من الخارج . من ذلك مثلا ان اهالي تلمسان ، غداة سقوط مدينة الجزائر في شهر جويلية 1830 ، قد خاطبوا سلطان المغرب الاقصى ، طالبين منه ان يتولى امرهم وان يساعدهم بالسلاح في صورة تعرضهم لهجوم النصارى . واستقبل السلطان المغربي وفدا من سكان تلمسان يضم الكولوغليين والاتراك والعرب ، جاءوا لتجديد طلبهم والتعبير عن موافقتهم على احتلال مدينتهم من طرفه . ولقد قدر سكان تلمسان مساعدة السلطان حق قدرها (12) وكذلك قبائل معسكر وبني شقران واولاد هاشم وحميان ... (13) كما وجه اهالي مدينة الجزائر انفسهم نداء مماثلا الى مولاي علي . وقد تمكن الفرنسيون من القاء القبض على بعض المبلغين لذلك النداء .

ولقد فر بعض سكان مدينة الجزائر المحتلة ، للالتحاق بالمناطق الاخرى التي مازالت مستقلة ، حتى لا يكونوا تحت سلطة « الكفار » . على ان تلك الهجرة تعتبر فرضا دينيا على من استطاع . وفعلا فقد غادر عدد كبير من الجزائريين العاصمة في شهر جويلية 1830 . وتبعا لذلك فان التعداد الاول لسكان المدينة الذي جرى بعد دخول الفرنسيين ببضعة ايام ، قد احصى 16 000 مسلم ، في حين كان عدد السكان يقدر بحوالي 25 000 نسمة قبل ذلك التاريخ (14) وعندما دخل كلوزال الى بليدة يوم 19 نوفمبر ، وجد المدينة خالية من السكان الذين فروا الى الجبال (15) .

وحتى في صورة الاضطرار الى الاستسلام امام القوة العسكرية وظهور سكان المدن بمظهر الخاضعين ، فان الواقع مخالف لذلك تماما ، حيث لم يستطع الفرنسيون استمالة القلوب . واصبح الاستسلام يمثل عائقا في وجه الحوار الحقيقي . فكما اشار الى ذلك دي بوسي « عندما صارت اية مقاومة جدية مستحيلة مالت افكار الاهالي « نحو

(11) هربيلون (Herbillon) : رواية حصار الزعاطشة ـ صفحة 193 .

(12) الملاحظ ان الكولوغليين بعد اعترافهم بمولاي علي الذي عينه السلطان خليفة بتلمسان ، التجأوا الى المشوار ـ

(13) كور (A. Cour) : الاحتلال المغربي لمدينة تلمسان (سبتمبر 1830 جانفي 1938) ـ المجلة الافريقية ـ 1908 ـ

(14) يعتبر البارون بيشون (Pichon) ، ان المدينة قد فقدت ثلثي (2/3) سكانها

(15) دوق دروليان (Duc d'Orléans) المرجع السابق (المقدمة)

مقاومة الضعفاء اي المقاومة السلبية التي تمثل « الدرع » الذي واجهوا به الفرنسيين » . فاحتجوا « على الاضطهاد والظلم ، وكانت احتجاجاتهم غالبا ما تجد الاستحسان » (16) . وظل الاهالي ، المفعمة نفوسهم « بالافكار الدينية المسبقة » ، مناهضين لكل ما هو فرنسي (17) .

3 ـ مقاومة العروش :

على اثر الخيبة التي منيت بها السلطة المركزية اصبحت العروش والقبائل المحرك الرئيسي للمقاومة . وقد تقرر انضمام جميع القبائل الى المقاومة خلال اجتماع كبير . وكان الفرنسيون قد هاجموا بليدة ، فاضطرت جيوشهم التي كان يلاحقها مقاتلو العروش ، الى التقهقر . واتضح ان الجيش الفرنسي ليس بالجيش الذي لا يقهر . الامر الذي شجع القبائل والعروش على مكافحته . فتقرر عقد اجتماع عام . وتم ذلك يوم 23 جويلية ببرج بمنفوس غربي راس متيفو . وتناول النقاش قضية السلم والحرب . وندد الحاضرون بما اقترفه الفرنسيون من اعمال شنيعة كسلب الممتلكات وتدمير البيوت والمساجد واحراق المحاصيل الزراعية والاعتداء على الحرمات ... « وحظي انصار مقاومة المعتدين بالاستحسان الشديد . لا سيما وقد كانت تحيط بمكان الاجتماع جماهير غفيرة من الاهالي الحاملين للسلاح والمهرولين على الخيول ، وقد تعالت هتافاتهم عند الاستماع الى خطب الشيوخ الراغبين في اشهار الحرب . وتحت تأثير انتصار بليدة المزعوم انساق الشعب والمجلس الى خوض المعارك وتقرر بالاجماع اعلان الحرب ، وسط الهتافات الحربية الصاخبة » . (18)

وكان ذلك الاجتماع نقطة الانطلاق لتحركات كبيرة . فقد اخذ المبعوثون يتنقلون من قبيلة الى اخرى « للتفاهم حول القرارات النهائية وضبط خطة الهجوم المعينة » (19) وكانت تلك التحركات تحظى بتأييد كل من باي تتري وباي قسنطينة ... وقد اتفق الاتراك بسهولة مع العروش لمواصلة الكفاح وتعهدوا بنقل الاسلحة والذخيرة المخفية في المدينة الى العروش . كما تقرر ان يحاول

(16) دي بوسي (De Bussy) : حول انتصاب الفرنسيين ص 105 .
(17) نفس المرجع ـ ص 106 ـ
(18) بارشوادي بالنهوان ـ المرجع ـ السابق ـ صفحات 310 ـ 318
(19) نفس المرجع ـ صفحة 312 .

بعض الاتراك شق عصا الطاعة داخل العاصمة وان يقود البعض الآخر هجومات العروش . وفي يوم 27 جويلية 1830 القي القبض على شخصين من ابناء منطقة القبائل ، كانا يقودان جملين محملين بالخراطيش . وقد لاحظ القائد العام للشرطة اوبينيوز انهما قد اعدما رميا بالرصاص بدون ان يعترفا بمن سلم اليهما تلك الاسلحة والى من سيوجهانها . « وخلال الاسابيع الستة الاولى من احتلال مدينة الجزائر حكمت لجنة عسكرية على اثنين من ابناء منطقة القبائل بالاعدام شنقا وعلى اثنين آخرين بالجلد اثناء عملية الاعدام . وقد كان وقع العثور عليهم وهم يحملون الذخيرة الحربية الى العدو » . (20)

ومنذ شهر جويلية اصبح الحجويون المقيمون غربي منطقة متيجة ـ حسب رواية بيليسي دي رينو ـ الد خصوم الجيش « وصارت حرب العصابات منظمة احسن من اي وقت مضى على ايدي تلك العصابة المكونة من بعض المتعصبين والنهابين الذين يطوفون على خيولهم آناء الليل واطراف النهار حول الفرنسيين بدون امكانية العثور عليهم وذلك على امتداد مسافة حوالي عشرين فرسخا » . ويقول لنا دوق أورليان في شأنهم ، ان كل رجل يملك جوادا صالحا وبندقية ، الا ويلتحق « بتلك الفرقة المتركبة من الناقمين والتي تتضخم يوما بعد يوم بسبب السياسة والدين والبؤس والبخل وحتى الحب » . (21) وكان اهالي متيجة يمدون يد المساعدة لأولئك المقاومين « ولا يترددون كلهم بدون استثناء عن تقبيل ايديهم والتعبير لهم عن حقدهم ضد النصارى ، اذا ما تيقنوا من غياب السلط الفرنسية ». (22)

اما العروش الموجودة في ضواحي مدينة الجزائر فقد انضمت تحت راية ولد بومرزاق وابن زموم اللذين يقودان المقاومة ، الاول قرب بوفاريك والثاني في الضفة الشرقية من الحراش . وامام السياسة الارهابية التي ينتهجها الجيش الفرنسي ، تضاعف حماس الجزائريين الذين انتقموا منه بالقضاء على سرية من اللفيف الاجنبي . وقد لاحظ دوق اورليان ان جرأة القبائل العربية والبربرية « تزداد يوما بعد يوم وان المقاتلين كانوا يتقدمون الى ان وصلوا الى اسوار

(20) نفس المرجع صفحة 314 .
(21) دوك دوراليان ـ المرجع السابق صفحة 284
(22) اليون روش ـ (Léon Roche) 32 سنة عبر الاسلام ـ رسالة 5 نوفمبر 1832 ص 75 .

مدينة الجزائر فأطلقوا عليها النار » . (23) وفي كل مكان يصرح الجزائريون علنا بعداواتهم لنا .

وعندما تضعف او تستسلم بعض المدن او القادة ، فان ابناء العروش يرفضون قبول الامر الواقع ويرفعون راية المقاومة . من ذلك انه عندما عبر باي وهران الحسن الطاعن في السن عن استعداده لامضاء معاهدة الاستسلام ، رفضت القبائل هذا الموقف وحجزته في مدينته مع جنوده . وعندئذ وعد الحسن كلوزال بمنح فرنسا الغرامة التي كان يدفعها لداي الجزائر بشرط ان يترك له الحق في تسيير منطقته . كما عبر عن استعداده لتسليم بروج المدينة للقوات الفرنسية اذا تقدمت الى وهران . كما احتج على دخول الجيوش المغربية الى تلمسان ووجه رسالة في هذا المعنى الى السلطان عبد الرحمان ، ثم طلب الحسن الى الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الالتجاء اليه . فجمع هذا الاخير افراد عائلته للنظر في ذلك الطلب . واعرب جميعهم عن استعدادهم للصفح عن الباي . وعندئذ لاحظ عبد القادر ان القبائل لا يمكنها ان تغفر للحسن موقفه تجاهها وان عائلة محي الدين لا تستطيع ضمان امن الطاغية والخائن . (24)

وفي شهر اوت 1831 رغم ضعف سكان عنابة ، رفضت العروش التفاوض مع الفرنسيين وهبت لحمل السلاح . واثناء الغارة التي وقعت في الليلة الفاصلة بين 7 و 8 اوت اجبر الفرنسيون على التخلي عن عنابة .

وقد هبت قبائل منطقة بجاية عدة مرات لنجدة المدينة المحاصرة بأعداد متزايدة اكثر فاكثر : 300 رجل يوم 12 اكتوبر 1830 و 4000 رجل ايام 18 جانفي و 20 افريل و 5 جوان 1831 و 6000 رجل يوم 9 جويلية 1831 . وانتصب المقاتلون في منحدرات الهضاب المحيطة بمدينة بجاية موجهين هجوماتهم الى ابواب المدينة لنجدة اهالي بجاية ومد يد المساعدة اليهم .

كما تم اغتيال « القياد » الذين عينتهم فرنسا : ففي 9 سبتمبر 1831 مثلا قتل قائد بني خليل (25) . وعند حصول اية انتفاضة فان « القياد » هم الذين يتعرضون في غالب الحالات للهجومات .

---

(23) دوق اورليان ـ المرجع السابق صفحة 224 .

(24) دي بوسي (De Bussy) المرجع السابق صفحة 47

(25) بول ازان (Paul Azan) الامير عبد القادر 1803 ـ 1883 صفحة 8 ـ

وكانت القبائل هي التي تفرض استراتيجيتها على الفرنسيين . من ذلك ان فرسان العروش قد كشفوا عن مناورتهم تجاه الجنود الفرنسيين بسيدي فرج . « فانقضوا بسرعة على الرماة ، وعوض ان يطعنوهم ، ردوا على طلق النار بطلق النار وهم يركضون ثم ولوا الادبار وعبأوا بنادقهم ثانية وهم فارون وفجاة غيروا وجهتهم ورجعوا من جديد واخذوا في طلق النار للمرة الثانية ، واستمروا في ذلك ، مظهرين ما هم قادرون عليه من خوض غمار هذه الحرب المتنقلة التي اختصوا بها » . (26) وكانت النتيجة انسحاب 310 فرنسيا من ساحة الوغى .

وسيحدد عبد القادر فيما بعد الخطة التكتيكية التي اتبعها انصاره (في رسالة بعث بها الى بوجو) : « عندما يتقدم جيشك الى الامام ننسحب نحن من الميدان ولكنه سيكون مضطرا الى الانسحاب وعندئذ نرجع من جديد ونقاتل عندما نرى فائدة في ذلك ، لاننا ، كما تعلم ، لسنا من الانذال . اما ان نواجه القوات التي تجرها وراءك ، فان ذلك من باب الجنون . ولكننا سننهكها ونضيق عليها الخناق ونسحقها جملة وتفصيلا . وسيضطلع الطقس ببقية المهمة . فلترسل لنا رجلا ضد رجل ومائة ضد مائة والفا ضد الف وسترى هل اننا سنتقهقر ام لا . فهل تتحرك الموجة عندما يلمسها العصفور ؟ ذلك هو مثال مروركم بافريقيا » . ولقد قاتل ابناء العروش للدفاع عن اراضيهم وعائلاتهم وللذود عن الاسلام . وكان قادتهم يقولون لهم وبأيديهم مصاحف القرآن ، : « هبوا للدفاع عن الشريعة ، كبارا وصغارا ، وسنضمن لكم الموت والسعادة والمجد » . (27) كما لاحظت لجنة افريقيا في تقريرها : « ان اولئك القوم قد اظهروا ، ابتداء من سن السادسة ، بمقاومتهم المستميتة وتضحياتهم المختلفة ما يعلقونه من أهمية على استقلالهم . فكل العرب يعتبروننا مغتصبين » . (28)

كما لاحظ الجنرال بروسي « ان العرب هم قوم مقاتلون ومسلحون دوما وابدا ، فاذا لم يكونوا خاضعين او حلفاء ، كانوا اعداء ... فيجب اقصاؤهم وقتلهم او قهرهم » . (29)

---

(26) دوق اورليان «الكتاب الذي نشره ابنه بعنوان) حملة جيش افريقيا

(27) دي جوبار (Desjobert) قضية الجزائر ـ ص 96 .

(28) دي جوبار ـ المرجع السابق صفحة 84

(29) نفس المرجع ص 84 ـ 85 .

ولكن حتى العروش الخاضعة تبقى متحفظة . من ذلك ان ليون روش الي عاش في وسطها سنوات عديدة لم يخف ما شعر به من خيبة امل لرؤيتها دوما وابد في حالة انكماش فقال في هذا المعنى : « لقد تبين لي ان حلفاءنا العرب يخفون تحت مظاهر خضوعهم النقمة الوراثية التي يكنها المسلمون للنصارى واننا نجهل كيف يمكن ان نحكمهم . ومهما يكن من امر فاني استطيع ان اؤكد ان بعض القبائل المتحالفة معنا اليوم لم تقبل هيمنتنا الا لانها لم تجد راية تلتف حولها » . (30)

4 – ذكرى المقاومة – الشعراء :

لقد كانت المدائح التي يتناقلها الناس من سوق الى سوق ومن دوار الى دوار ، تذكر بالهزيمة وتدعو الى الانتقام . وهذه الاغاني نجدها في اغلب الانتفاضات الجزائرية . ففي قصيدة من نظم الشيخ عبد القادر (31) الذي يحتمل ان يكون من سكان مدينة الجزائر الحضريين ومن الذين شهدوا سقوط العاصمة ، يتحسر الشاعر على فقدان الجزائر (سلطانة جميع المدن) وقد سقطت في قبضة اعدائنا واصبحت تحت سلطة النصارى الانذال ثم يذكر بمجد مدينة الجزائر الزاهية حينما كانت لها رايتها ووجهها ، وحينما كانت الامم ترتعد منها في البر والبحر ، ويستعرض باعتزاز الميناء الذائع الصيت والسناجق الحريرية ومجاهدي البحر حينما تدخل بواخرهم الى حوض الميناء ويعيد الى الاذهان تلك الفترة التي كانت فيها « الامم المسيحية مثل النساء » . وبعد ذلك يوجه اصبع الاتهام الى النصارى الذين قوضوا جدران بيت الانكشارية واقتلعوا الرخام واعمدة الشرفات وقضبان الشبابيك كما خربوا الاحياء السكنية ودمروا المساجد . ثم يوجه اللوم الى الذين لم يعرفوا كيف يدافعون عن المدينة فيقول ما معناه : كنا نظن ان كثيرين من الجنود سيصمدون في ساعة الوغى وان الشبان سيتحدون الموت ويقاومون الى آخر رمق من حياتهم . ولكن واحسرتاه ! فان مقاتلي المدينة الجميلة قد طلبوا الامان وانهزموا . (32)

(30) ليون روش – المرجع السابق ص 70 – 71 .

(31) كان في سنة 1830 طالبا باحدى زوايا العاصمة .

(32) ادي برمي (Desparmet) – المجلة الافريقية النصف الثاني من سنة 1930 ص 255 .

واخيرا يعبر الشاعر عن امله في قدوم « المهدي » المنتظر ويتمنى ان تظفر البلاد بسلطان يدير شؤونها وفقا للشريعة الاسلامية ... (33)

وهذا الشاعر القبائلي الحاج عامر ولد الحاج من قبيلة ام شداتن يبكي سقوط العاصمة مشبها سكانها بالبهائم التي تأكل العشب النابت فوق المزابل (34) .

فكل مدينة تسقط يرثيها الشعراء . من ذلك هذا الشاعر الذي عبر عن « احتراق قلبه لان النصارى قد احتلوا قسطنطينية » ثم طالب بالبارود والاسلحة واستنجد برؤساء البلدان الاسلامية التي مازالت مستقلة وهم باي تونس وسلطان المغرب الاقصى وملك مصر وسلطان اسطنبول وباي طرابلس ...

اما الشاعر محمد بن سيدي ضيف الله فقد ودع بدموعه منطقة متيجة المخربة ، وقد دعاها باسم « ام الجوع » ، ووعد بان يغادر بلاده ... (35)

واما الشاعر الشيخ سيدي محمد ابن اسماعيل (36) فهو لم ينس انه مسلم متمسك « بقوميته » ، فأشار الى حرب القرم ، مستخفا بأهمية مساهمة الفرنسيين والبريطانيين والايطاليين ، ومشيدا بحماس المجاهدين المسلمين ضد الكفار ، داعيا للاسلام بالنصر . (37)

ولم يكتف كثير من الشعراء بالتحسر والتمجيد بل شاركوا في المعارك التي خاضها المقاومون . ونخص بالذكر منهم بوثلجة (38) الذي نوه به دوق اورليان ، فقد كان بوثلجة مقتنعا بضرورة الكفاح وكان يوميا يدعو المسلمين الى بغض النصارى . وقد كانت قصائده الغنائية المفعمة بالاسى والحمية الوطنية تحظى بشعبية فائقة في منطقة متيجة . ولقد رفض بوثلجة التشريفات وفضل البقاء وسط المجاهدين الحجويين ، حيث كان يرى ان الجهاد لا ينبغي ان يتوقف ابدا . وقد مات بيد احد الفرنسيين في « سبيل الوطن الكبير

(33) دوما (Daumas) : العادات والتقاليد الجزائرية صفحة 151 .

(34) هانوتو (Hanoteau) : الشعر الشعبي بجرجرة – ممي (Memmi) ص 18 .

(35) دوما – المرجع السابق ص 126 .

(36) اصيل مدينة الجزائر ولد في سنة 1820 وتوفي في سنة 1870 .

(37) ابن الشنب – المجلة الافريقية 1907 ص 202 – 203 .

(38) توافي بو ثلجة في سنة 1837 .

الذي كان يحلم به » . ووصف دوق اورليان هذا الشاعر البطل كما يلي : « ان اناشيده الحربية ستهدي لاجل طويل ابطال الاسلام وستغذي روح الحماس في شعب بقي وفيا لذكرى الرجل الوحيد الذي سخر له تفكيره وكلامه ... اما نحن احباء الوطن المتحمسون ، نحن الذين نعتبر الدفاع عن القومية والوطن اول واجب ، فانه لا يسعنا الا ان نتأسف على ذلك الجندي الباسل والشاعر الملهم الذي توفي وهو يخوض غمار حرب هي ـ حسب هذا التعبير الجميل ـ بمثابة الرحى التي لا ترحم والتي تدور بالنسبة للطرفين : فتسحق بلا انقطاع ضحايا جددا ، والتي لا يمكن ان تدوم الى ما نهاية له الا في جهنم » . (39)

ثانيا : محاولات الحوار :

نظرا الى تجمع السكان ، فان المدن ليست ابدا في مأمن ، امام جيش يتمتع بقدرة فائقة على القتال . وبناء على ذلك فقد كانت المدن في أغلب الاحيان هي أول ما تسقط في قبضة الفرنسيين وتتخلى عن كل مقاومة بعد ما يتم احتلالها . ذلك هو ما وقع بالنسبة لمدينة الجزائر ووهران وعنابة وقسنطينة فيما بعد . فاجبر السكان حينئذ على الخضوع الى النظام الجديد والدفاع عن انفسهم في اطار التشريع الاستعماري . وذلك هو الشان بالنسبة لمن يطلق عليهم اسم عرب الجزائر واعيان الحضر . ولقد تمكن بعضهم من الدفاع عن مواطنيهم ، وليس دائما بعبارات متزنة .

ففي مرحلة اولى يحتج السكان على التعسف وعدم احترام اتفاقية سنة 1830 ثم يتجهون نحو كل الذين يريدون ـ او الذين من واجبهم ـ ان يستمعوا الى شكاوي اهالي العاصمة ولا سيما المناهضين للاستعمار وكذلك السلط بالجزائر وبباريس على وجه الخصوص . ويبرزون التقاليد الفرنسية الخاصة بالحرية وما قدمته فرنسا من مساعدة للشعوب المكافحة من اجل استقلالها ، وكذلك الوعود الفرنسية . ويتجاسرون على المطالبة بالعدالة والمساواة وحتى حق ادارة شؤون بلادهم . كما يسمحون لانفسهم بمخاطبة الاجانب . واننا نلاحظ هذه الاستراتيجية السياسية ـ واكاد اقول الاصلاحية قياسا على السياسة المتبعة في القرن العشرين ـ في مساعي اعيان اهالي

(39) دوق اورليان ـ المرجع السابق ص 285 ـ 286 .

العاصمة (40) وبالخصوص سي حمدان ابن عثمان خوجة . فأمام تردد السلط الفرنسية كان الاعيان في معظمهم يأملون ان يتم ارجاع مدينة الجزائر الى صاحبها السابق او على الاقل تسليمها اليهم . ولكن لم يستمع اليهم احد بالجزائر فاضطروا ـ الواحد تلو الآخر ـ الى الفرار من الاضطهادات (41) والاستقرار بباريس حيث وجدوا آذانا صاغية . ذلك ان بعض الاشخاص « المناهضين للاستعمار » كانوا ينددون بما اقترف الضباط والجنود الفرنسيون من اعمال تعسفية كما ان قسما من الرأي العام الانجليزي كان يرى ان فرنسا لم تبر بوعدها (42) . حيث تعرض حلفاؤها لشتى انواع الاضطهاد عوضا عن المنافع التي كانت قد وعدت بتقديمها اليهم . وبناء على ذلك فقد التجأت القبائل الى المقاومة واصبحت فرنسا مدة اكثر من 3 سنوات محصورة في ثلاث مدن . وقد راى الكاتب بانيستار ان فرنسا اذا استمرت في اضطهاد الافارقة « فسترى ان لهم من السيوف ما يمكنهم من شن معركة اخيرة في مدخل المدن الثلاث التي تحتلها . وفي صورة الفشل فان الصحراء والجبال تسهل عليهم الانسحاب » (43) وفي سنة 1831 قدم اعيان الجزائر عرائض الى الحكومة الفرنسية للمطالبة بحكومة اسلامية مستقلة في عاصمة الجزائر « اذا ما قررتم تسليم مدينة الجزائر واقليمها الى احد الملوك ، فلتعينوا على الاقل واليا من بيننا . ولتطلبوا من سكان المدينة واقليمها ان يختاروا من بين الشخصيات البارزة في البلاد رجلا حكيما ومستنيرا . ولتسلموا اليه المدينة واقليمها » .

ويعتبر سي حمدان ابن عثمان خوجة اشهر المحتجين . فهو ينتمي الى اسرة جزائرية ثرية . وقد كان ابوه مدرسا للقانون والسكرتير الاول للايالة . ولقد سنحت له الفرصة بزيارة اسطنبول وتونس واوروبا وتمكن من البقاء بفرنسا ما يكفي من الوقت لحذق اللغة الفرنسية . ولربما كان اكثر ممثلي الاعيان تضلعا في العلوم . وقد مكنته معرفته للغة الفرنسية من القيام بدور كبير في ربط العلاقات بين السلط الفرنسية والجزائرية . كما ساهم مساهمة فعالة في

(40) بودرباح ـ حمدان ابن عثمان خوجة ـ سطنبولي ـ ابراهيم ابن مصطفى باشا ـ حميد بونمندرة الحاج محمد امين السقا .

(41) ـ اجرون (Ageron) جريدة لوموند (Le Monde) 25 جوان 1962

(42) ـ (Bannistère) نداء لفائدة الجزائر ـ صفحة 8 ـ

(43) نفس المرجع صفحة 10 ـ

الحملة التي شنها بباريس الاهالي المبعدون من الجزائر : بودرباح وتركي حمدان وتركي آغا وابراهيم بن مصطفى باشا وعمر ، ضد اعتداءات النظام العسكري وعدم احترام بنود وثيقة الاستسلام . وقد توجه سي حمدان عدة مرات الى السلط الفرنسية واكثر من المساعي : حيث قدم عريضة الى مجلس الدولة في شهر ماي 1833 وعريضة اخرى يوم 3 جوان الى الماريشال سولت عرض فيها شكاوي الجزائريين في 18 نقطة . وجدد طلبه متوجها الى الملك يوم 10 جويلية ثم وجه اليه يوم 16 سبتمبر 1833 رسالة جديدة يقول فيها بالخصوص « يجدر بملك الفرنسيين تحرير الجزائريين واستعادة الوفاق بين الشعبين ... فللجزائريين حقوق ايضا وذلك للتمتع بالحرية وبكل المزايا التي تتمتع بها الامم الاروبية » . (44) وبما ان حمدان لم يتصل بأي رد ،فقدتوجه الى الرأي العام الفرنسي ، حيث الف كتاب « المرآة » (45) ووجهه الى اعضاء لجنة التحقيق مصحوبا برسالة . ويعتبر ذلك الكتاب محاكمة حقيقية للاحتلال الفرنسي مع تقديم المطالب الجزائرية في اسلوب جريء .

ففي «المرآة » ادان حمدان خوجة بشدة الادارة الفرنسية « التي اناخت بكلكلها على البلاد » ، واستعمل عبارات عنيفة ، حيث وصف الاعمال التعسفية بالاخطاء والاهانات والجرائم « لقد اصبح سكان مدينة الجزائر المساكين تحت نير الاستبداد والابادة وجميع آفات الحرب » . وتحدث المؤلف عن المعمرين بدون مجاملة « فقد استولوا على الممتلكات بالمدينة ونهبوا المنازل والبساتين وانتزعوا املاك السكان . فماذا بقي للجزائريين ؟ الهجرة والمغادرة والخوف من ابادة الشعب الجزائري . لقد قامت فرنسا بعمل سلبي يتمثل في عدم احترام اتفاقية الاستسلام ونفي الزعماء الجزائريين وتدمير بناءات المدينة وتحطيم المغازات ومصادرة الاملاك الخاصة وتخريب المساجد او تحويلها الى كنائس والاعتداء على قبور الاجداد . فلا يمكن للشعب الجزائري ان يرضى بمثل هذا المصير . فهو يستنجد بفرنسا وبحكمة عاهلها وعطف شعبها ويتوجه الى الشرف الوطني الذي يشعر به اعضاء اللجنة . لان فرنسا لا علم لها بما يرتكب من فظائع باسمها .

(44) « المرآة » المستندات ـ رقم 10 صفحة 426 .

(45) صدر الكتاب في سنة 1833 بعنوان ، « لمحة تاريخية واحصائية عن الايالة الجزائرية »

ولان ممثليها بالجزائر يتصرفون تصرفا منافيا لمبادىء الحرية والمدنية الحقيقية » .

والجدير بالملاحظة ان هذه الحجج هي نفسها التي ستقدمها الحركات الاصلاحية في القرن العشرين . فماذا يريد الجزائريون ؟ لا يمكن للفرنسيين ان يعلموا ذلك بالتوجه الى السلط القائمة بالجزائر ولا الى المعمرين الذين لم يقدموا للدفاع عن الشرف الفرنسي بل للاثراء . كما لا ينبغي لهم الرجوع الى تقارير رجال القانون كالقضاة والمفتيين الذين عينتهم السلطة الفرنسية وباعوا لها ضمائرهم . كما لا يجوز الوثوق في التقارير التي اعدها بعض الجزائريين الذين ثبطت عزيمتهم اعمال التعسف واصبحوا عاجزين عن التعبير عن آرائهم بصراحة . كما ان المعلومات الممكن استخراجها من بعض النشريات لا تعكس المطالب الجزائرية الحقيقية . ولا يمكن ان يتكلم باسم الجزائريين الا المثقفون الجسورون ، المهاجرون في اغلب الاحيان .

ثم تحتد اللهجة وتتسم المطالبة بأكثر جرأة . فيحق للجزائر ان تكون لها حكومة . وبما ان هناك جنسية فهناك اذن امة تريد ان تصبح مستقلة . ومن حق الجزائريين ان يطالبوا بالاستقلال مثل اليونانيين والبلجيكيين « فللجنسية الجزائرية نفس الحقوق في الوجود التي تتمتع بها الجنسية البلجيكية او البولونية » . وان الجزائريين المثقفين قادرون على تنظيم حكومة تمتزج فيها على احسن وجه ممكن التقاليد الاسلامية والمبادىء التحررية . وتتلخص خاتمة كتاب سي حمدان في العبارة التالية « الجزائر للجزائريين » . ولا يوجد بالنسبة لفرنسا الا حلان : اما ابادة الشعب الجزائري واقصاؤه الى الصحراء او السهر على انتخاب امير مسلم يكون قادرا على حكم بلاده في الاتجاه التحريري ، وابرام معاهدة معه .

ولقد استعمل نفس هذا الاسلوب امام لجنة افريقيا التي أنشئت في سنة 1833 للتحقيق حول الوضع بالجزائر والنظر في القرار الواجب اتخاذه حول الحضور الفرنسي بالجزائر . وبالاشارة الى « المبادىء الفرنسية المتعلقة بالحرية والقومية » والى المصالح الفرنسية الواجب اخذها بعين الاعتبار لتكون حاجيات الجزائر المتزايدة مصدرا للربح ، طالب اهالي الجزائر باستقلال بلادهم . ولتركيز ذلك الاستقلال ، جاء في نداء موجه لفائدة الجزائر ما يلي : « اننا نطالب بتمكين ابناء البلاد الطبيعيين من التعبير امام أوروبا حول الصيغة التي يرونها صالحة لحكومتهم . اذ اليهم يرجع حق

تحديد تلك الصيغة . وعلى اوروبا وفرنسا بوجه الخصوص ان تساعدهم بحكمة وشرف ... » . (46) وبعدما تنتصب الحكومة المستقلة بالجزائر ستسهر على توفير الضمانات اللازمة للاروبين المقيمين بالجزائر « حيث يمكن للاروبيين الذين اقتنوا املاكا بالجزائر بصورة عادلة ، ان يتمتعوا باراضيهم ومنازلهم بكل امان » . (47)

ولم يتردد اعيان الجزائر عن التماس مساندة اصحاب الافكار التحررية بباريس (48) . بل انهم سمحوا لانفسهم بمخاطبة الجنرال لافايات الذي نعتوه بوصف « محرر الشعوب » واخبروا « صديق واشنطن » بان اغلبية الشعب الجزائري مقرة العزم على مناهضة الهيمنة الفرنسية وان المضين اسفله يطالبون الامة الفرنسية « بارجاع الجنسية » وتنظيم حكومة حرة وتطبيق دستور ملائم لعاداتهم وتقاليدهم وذلك من اجل تحرير الافارقة ويعدون فرنسا بمنحها عدة امتيازات حقيقية في الميدان التجاري والسياسي . وعندما تصبح مدينة الجزائر حرة يمكنها ان تتطور وان تكون عاصمة تسمح فيها الحرية والحضارة الحديثة للجزائريين بان ينعموا بالله ويتمتعوا بالسلام والحرية .

ثالثا : الخيانة والتواطؤ

على ان ردود الفعل الجزائرية لم تتضمن الاعمال البطولية فحسب ، فهناك ايضا اعمال اخرى تتسم بالوهن والتخاذل والخيانة والتنكر ، وقد شجبها الشعب في اغلب الاحيان ، كما اشار الى ذلك جوبين بقوله « ان العرب يكرهون الاشخاص الذين يغيرون دينهم او وطنهم » . ففي 28 جوان 1830 ، أي قبل الاستيلاء على مدينة الجزائر ، توجه خفية بعض الجزائريين ومنهم احمد بن شنحان من قبيلة بني جياد ، الى الجنرال برتيزين لاعلامه باحتمال الهجوم عليه يوم 29 جوان 1830 . كما ان بعض التجار قد وجهوا رسالة الى كلوزال ، عن طريق احمد القهواجي امين بني مزاب بعاصمة الجزائر ، لاعلامه باستعدادهم للقتال الى جانب الفرنسيين في مدينة معسكر . (49) كما اعرب امين

(46) لقد اثير احتمال مساهمة التحريين بباريس في تحرير النص الفرنسي لكتاب « المرآة »

(47) اجرون (Ageron) جريدة لوموند (Le Monde) 25 جوان 1962 .

(48) نفس المرجع .

(49) ديجوبير ـ المرجع السابق صفحة 230.

الحواتين عن رغبته في مصاحبة الجنود الفرنسيين وطلب في المقابل تعيينه كأمين لفندق الزيت . (50)

واثناء الحملة على مدينة مدية ، التقى الفرنسيون في طريقهم باعرابي يحمل رسالة موجهة من السلط المحلية الى قائد الجيش الفرنسي لاعلامه باستعداد المدينة للاستسلام . ولقد كتبت تلك الرسالة في المساء بعد هزيمة الباي (51) وفي 23 جويلية 1830 وصلت الجيوش الفرنسية الى ضواحي بليدة ، فقدم اعيان المدينة لتقديم استسلامهم . وفي 2 اوت 1830 فتح اعيان عنابة ابواب المدينة في وجه الفرنسيين ، ولكن لم يتمكن دمريمون من التفاوض مع القبائل . وفي صائفة 1831 ، طلب بعض اعيان عنابة الحماية من فرنسا فأرسلت اليهم المقدم هوتين صحبة 25 جنديا اغلبهم مسلمون .

ولقد خان بعض القادة والاعيان وطنهم وتعاونوا مع السلط الفرنسية ، امثال البايات الذين استعملتهم فرنسا واحتقرهم الجزائريون . من ذلك ان الباي ابن عمر الذين عينه كلوز ال بمدينة مدية في سنة 1830 ، لم يستطع الخروج من منزله واضطر الفرنسيون الى القدوم لتخليصه وارجاعه الى الجزائر . ولم يستطع الجنرال ارلون فرضه على سكان بليدة كما لم تتمكن السلطة من تعيينه في منصب باي شرشل . اما الباي ابراهيم الذي تم تنصيبه بمعسكر ، فقد اشعلت النيران في مدينته واجبر الفرنسيون على تنصيبه بمستغانم التي فر منها سكانها . كما عين باي جديد بمعسكر ولكنه لم يستطع الدخول الى المدينة . ولم يستطع باي تلمسان الخروج من مدينته . اما الباي محمد الذي عين في سنة 1833 بمدية فلم يتمكن من الانتصاب بعاصمته واضطر الى الفرار والاختفاء مدة ثلاثة اشهر بمخزن في قبيلة حسن ابن علي . واخرجه كلوزال من هناك ونصبه بمدية . فاحتجزه احد اعضاد عبد القادر واستولى على البنادق والاموال التي تركها الفرنسيون . وسير بالباي على ظهر حمار وقد كان عرضة لاستهزاء جنوده . وان ما قام به يوسف ، الذي عين في منصب باي عنابة ، من اعمال ابتزاز واغتصاب ، يفسر ارتداد قبائل منطقة قسنطينة . كما أسفر تعيين أميرين تونسيين على راس قسنطينة (18 ديسمبر 1830) ووهران (6 فيفري 1831) عن نتائج مماثلة . حيث هجر السكان

(50) مكلوزال ـ المراسلات ص 283 .

(51) بيلسيي (Pelissier de Reynaud) الحوليات الجزائرية ج 1، ص 147 .

المدينتين اللتين اصبحتا عرضة لهجومات القبائل واضطر الاميران التونسيان الى مغادرة الجزائر .

ولقد كتب الكثير حول خيانة مصطفى ابن اسماعيل . فقد وجه رسالة الى كلوزال في 9 نوفمبر 1835 يقول فيها ما يلي « سيدي الوالي يجب عليكم الاطاحة بعبد القادر ويمكنكم ان تعتمدوا دائما على رجال طيبين لن يخونوكم ولن يخدعوكم أبدا » . (52)

كما وجه الباي ابراهيم رسالة الى الوالي العام في 4 جويلية 1835 يقول له فيها ان سكان جميع الدوائر والزمالات عملاء لفرنسا : فنحن « مستعدون للموت من اجلكم في مقدمة الجيوش الفرنسية ». (53)

وفي بعض المدن الجزائرية ، عندما لاحظ الجنود الاتراك انقراض السلطة وضعوا انفسهم على ذمة الفرنسيين وتطوعوا في جيشهم . كما التحق بعض الجزائريين بالفرق الخاصة التي احدثها الفرنسيون .

ولقد كانت العصبية والقبلية منافيتين لفكرة المقاومة . من ذلك ان الكولوغليين الذين لم يتفقوا مع الحضريين بمدينة تلمسان قد رفضوا الانضمام اليهم والى الجنود المغاربة واعتصموا بالمشوار . كما ان بعض مشايخ القبائل الذين اعتبروا انفسهم في مامن من الهجومات الفرنسية سواء في جبالهم او واحاتهم الصحراوية ، رفضوا خوض المعركة ضد الفرنسيين ، اما من باب الحذر او لانهم لا يريدون الاعتراف بالسلطة المشرفة على المقاومة . والامثلة على ذلك كثيرة في عهد الامير عبد القادر الذي وجد نفسه مضطرا الى مقاومة عدة قبائل مستعصية .

كما ان بعض الاعيان قد وضعوا انفسهم في خدمة الفرنسيين وذلك حرصا منهم على القيام بدورهم داخل المدينة او على صيانة مكاسبهم بل قل امتيازاتهم . ورضي بعض الاهالي بالقيام بدور البايات تحت الطلب وقبل البعض الآخر الاضطلاع بمهام ادارية ، مع محاولة اللعب على حبلين في بعض الاحيان ، مثلما هو الشأن بالنسبة الى بودباح ، وهو تاجر قديم استقر بمرسيليا ومثقف باللغة الفرنسية ، فقد توجه يوم 4 جويلية 1830 الى المرشال دي بورمون لتقديم استسلام مدينة الجزائر . وكان اول رئيس بلدية

(52) كلوزال ـ المرجع السابق .

(53) كور (A. Cour) « احتلال تلمسان » ـ المجلة الافريقية ـ 1908 صفحة 53 ـ

ينصبه الفرنسيون ، ولكنه كثيرا ما احتج صحبة الاهالي الآخرين على اعمال الفرنسيين التعسفية واضطر الى الهجرة الى باريس . وانتهى به الامر الى قبول الاحتلال الفرنسي ، وصار يتحدث عن وطنه الجديد داعيا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة لكي يعترف المغلوبون بالغالبين ، كما اقترح بعض الوسائل الضرورية لتحقيق ازدهار الجزائر وذلك لفائدة الحكومة الفرنسية والمستعمرة ولفائدة الاهالي المقيمين في المدن الجزائرية الداخلية . وكان يرى ان له واجبات ازاء فرنسا وطنه الثاني وازاء مواطنيه . ومهما يكن الحل الذي سيختاره الفرنسيون سواء اكان نظام القوة والسيف او التخلي عن الجزائر او الاقتصار على احتلال بعض الموانى المشتملة على قواعد عسكرية او احتلال الجزائر وعنابة ووهران والاكتفاء بالحكم غير المباشر بالنسبة الى المناطق الداخلية العامرة بالاهالي ، فان المعني بالامر يأمل ان تسلك فرنسا سلوكا يتسم بالعدالة والاعتدال والصبر . كما يقترح تكوين مجلس كبير استعماري برئاسة الوالي ، يتركب من سبعة اعضاء منهم عضو واحد مسلم . وبالنسبة لكل مجلس بلدي يقترح ثلاثة اعضاء فرنسيين وخمسة مسلمين وعضوين اسرائيليين . على ان يقع اختيار ممثلي المسلمين من طرف الاهالي المعروفين بتعلقهم بالفرنسيين . ويكون رئيس البلدية من ذوي الجنسية الفرنسية . اما المناطق الداخلية فيديرها مدير برتبة عسكرية او مدنية رفيعة ، يساعده نائبان مسلمان تعينهما الحكومة ، وتكون تحت تصرفه فرقة من الصبايحية واقترح اتخاذ عدة اجراءات لاستدراج القبائل الى الرضى بالسلطة الفرنسية ومجازاة القبائل التي ستخضع لتلك السلطة . واخيرا فهو يوصي السلط باحترام الدين الاسلامي « فيجب على الفرنسيين ان لا يمسوا احدا لا في معتقداته ولا في عاداته » ، ويقترح عدة تدابير لحسن تسيير ادارة الاوقاف والجمارك والشرطة ... (54)

وهكذا فقد وجد منذ السنوات الاولى من احتلال الجزائر اناس لم يؤدوا واجبهم الوطني ، مع جميع الفروق الدقيقة بين مختلف مظاهر التعاون ، ولا سيما المظهر الذي سنشاهده طوال العصر الاستعماري ، المبني على التخاذل الناتج لا فحسب عن سلبية ارادية ـ مفروضة في مثل هذا الحال من طرف النظام الاستعماري وقابلة للتبرير شيئا ما ـ بل ايضا عن عرض للخدمات ، حرصا من المعنيين

(54) جورج ايفار (Georges Yver) المجلة الافريقية 1913 ـ الصفحات 218 ـ 244 .

بالامر على الحفاظ على امتيازاتهم وممتلكاتهم ، مثلما هو الشأن بالنسبة لبعض القادة الاتراك وبعض الاعيان .

رابعا : الخاتمة

لقد اوردنا في نطاق هذا البحث عددا من الامثلة حول ردود الفعل الجزائرية . ولكن تصنيفها لم يتم بعد . الا ان الامثلة التي تناولناها بالدرس تسمح لنا باستخلاص بعض النتائج . حيث ان ردود الفعل تلك تنبىء بردود الفعل الاخرى التي سنلاحظها خلال مختلف مراحل الغزو الفرنسي سواء منها المتعلقة بفترة بلوغ الاستعمار ذروته او المتعلقة بالكفاح السياسي الذي سيقوم به الجزائريون في القرن العشرين . واهم رد فعلي شعبي ، قد انجر عن رفض حضور المحتل الذي هو كافر واجنبي ومغتصب ... وقد تمثل ذلك الرفض الذي املاه الاسلام وحب الوطن ، في الكفاح المسلح والانتفاضة او الثورة . وعندما لا تكون الظروف ملائمة للعمل المسلح تلتجىء الجماهير الشعبية الى الاستسلام الذي يكاد يشبه احيانا ولاجل طويل في اغلب الاحيان التخاذل ، وذلك في انتظار الساعة والنداء الى الجهاد الذي سيوجهه زعيم او رئيس حزب او حركة . وخلال فترة الكفاح السياسي ستساند الجماهير الرجل او الحزب اللذين سيقترحان اشد البرامج تطرفا للدفاع عن الشخصية الجزائرية والقومية والاستقلال . وفي كثير من الاحيان اخفت تقلبات الحياة اليومية والظواهر ، ذلك الرفض عن الملاحظ الاجنبي فانساق بعضهم الى الحديث عن الخضوع النهائي . والواقع ان الجماهير كانت في انتظار المرشد او الحركة او الحزب الذي سيعبر عما يخالج ضميرها من مشاعر .

وفي مستوى القادة ، أي الذين يمكن ان نطلق عليهم اسم النخبة ، نجد :

- الذين وضعوا انفسهم في خدمة فرنسا ، اي الذين تعاونوا مع الاستعمار وخانوا وطنهم سواء للحفاظ على امتيازاتهم او لاكتساب امتيازات اخرى .
- والذين تولوا التفاهم مع المحتل والتلاؤم مع النظام الاستعماري ، مع السعي الى تلبية اكثر ما يمكن من مطالب مواطنيهم وذلك باستعمال الحجج المستمدة من مبادىء القانون الفرنسي .

- والذين أرادوا ان يوفقوا بين برنامجهم وعملهم وبين المشاعر العميقة للجماهير ، فدعوا الى الجهاد والى الكفاح من اجل الاستقلال .

وهذا التصنيف بسيط ، بل هو مفرط في التبسيط ولكنه ، اعتبارا للفروق الدقيقة التي يفرضها الواقع ، مطابق لما نلاحظه لا فحسب غداة الاحتلال بل طوال الفترة الاستعمارية .

وحيث ان نفس الظروف ـ الاحتلال الاجنبي واستعمال القوة ، والارهاب والتعسف في جميع الميادين ـ تتسبب في نفس ردود الفعل ـ الكفاح والاستسلام والمماطلة ومحاولات الحوار ـ ربما مع شيء من انعدام الموضوعية الوطنية التي لا مفر منها ـ ، فاننا نستطيع ان نقول ان رد الفعل المركز على رفض الاحتلال والكفاح بجميع اشكاله الممكنة ضد الاجنبي ، قد كان صادرا عن الجماهير الشعبية الجزائرية .

محفوظ قداش

مدير معهد علم المكتبات بالجزائر

الجلسة الثالثة

رئيس الجلسة :

أحمد القصاب أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس .

البحوث :

- مظاهر مقاومة الامبريالية : تأويل اجتماعي جديد :

ـ **محمد الباقي الهرماسي** ، أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الانسانية .

- طموحات الأسرة المالكة والمنافسات العرقية والدسائس الدبلوماسية :

ـ **عز الدين قلوز** ، المدير العام لدار الكتب الوطنية بتونس .

مظاهر مقاومة الامبريالية
تأويل اجتماعي جديد

لئن كانت دراسة الحركات الاجتماعية تمثل ميدانا من ميادين علم الاجتماع الممتازة ، فان دراسة حركات مقاومة الاحتلال الاجنبي والمركزية السياسية وتعميم اقتصاد العرض والطلب أعني الحركات التي ميزت ملامح المجتمعات المعاصرة ، ان تلك الدراسة تمثل المجال الأمثل للعمل المشترك بين العلوم الاجتماعية والعلوم التاريخية ، ذلك انه مهما اختلفت الاتجاهات ، فان المؤرخين وعلماء الاجتماع متفقون على الاعتراف بما تكتسيه الامبرالية من صبغة عالمية ، وهم يعلمون بالخصوص ان الظاهرة الاستعمارية تمثل بعدا من ابعاد تاريخنا .

على أن مساهمتي في هذه الندوة تتمثل في تقديم بعض المباديء العامة للتأويل والتحليل ، التي يمكن أن تكتسي شيئا من الاهمية ، أكثر مما تتمثل في تقديم وقائع أنتم بدون شك أدرى بها منى ، حيث يتعلق الامر أولا بالذات بعرض مسألة اقحام البلاد التونسية في التاريخ الحديث . واني أود ان أناقش وأن اطرح اشكالية المفهوم الاساسي لهذه الندوة ، ألا وهو مفهوم المقاومة . حيث يبدو لي أنه لا يمكن بدون تعسف تطابق المقاومة مع مجرد المواجهة العسكرية بين القوى الداخلية والقوى الأجنبية . وسأبين كيف يمكن للمواجهة أن تتخذ أيضا أشكالا سياسية وثقافية ، كما أن مقاومة الاستعمار يمكن ان لا تمثل في الظاهر الا قوى داخلية في بلد بذاته . وسأناقش بين السطور أيضا الاسس التي يرتكز عليها الحكم على حركات المقاومة .

ففي النطاق المغربي ، يبدو ان البلاد التونسية لم تعرف حركات مقاومة مماثلة من حيث الدوام والكثافة لحركات المقاومة بالجزائر والمغرب الأقصى . اجل ، لقد حاولت بعض المناطق الداخلية أن تقاوم ، وفي بعض الاحيان ، بمجازفة نظرا الى تفوق الخصم تفوقا مفرطا . الا ان ذلك لا يشبه أبدا ملحمة عبد القادر او عبد الكريم مثلا . ولكن ذلك هو التاريخ الرسمي ، الذي هو تاريخ مصنوع بالقياس مع النظرة العسكرية للامور ، ومحدد بتواريخ مضبوطة . وسيمكننا نص حرره توكفيل ، من توضيح مجازفة المعارك ابان انتصاب النظام الاستعماري بل سيسمح لنا باعادة تأويل حركات المقاومة بالبلاد التونسية .

ففي التقرير الذي رفعه توكفيل الى مجلس النواب (وقد كان آنذاك نائبا) ، وصف الجزائر بكونها بلدا متعدد العناصر عرقيا ومنقسما سياسيا الى « **الاتراك** الذين يكونون الفئة الارستقراطية المستقرة بالمدن **والعرب** الذين لم يقع اخضاعهم تماما بالسهول **والبربر** (القبائل) الذين هم شبه مستقرين بالجبال » . وبقطع النظر عما يكتسيه هذا الوصف من صبغة مبسطة ، فللنظر الى هذا التحليل السياسي للوضع : « بعد القضاء على الحكومة التركية وعدم تعويضها بأي شيء ، انتقلت البلاد التي لم تكن قادرة بعد على ادارة شؤونها بنفسها الى حالة مريعة من الفوضى . وانقضت جميع القبائل بعضها على بعض في كنف الارتباك التام ، وانتشرت أعمال السطو في كل مكان . ولم يبق أي أثر للعدل والتجأ كل أحد الى القوة » . فبمقتضى هذا الوصف ، تجري الامور كما لو أن الحرب الرسمية قد انتقلت الى المرتبة الثانية ، حيث أن أهم ما يلاحظه المرء هو حالة تنازع السيادة . اذ يقول توكفيل في هذا المعنى مايلي : « الان وقد انفلتت السلطة من الايدي التي كانت تمسكها مدة ثلاثة قرون ، لا يملك أحد حق الحكم بدون منازع ولا يحتمل أن يقدر أحد على اقامة سلطة غير منازع فيها لاجل طويل » . الا ان توكفيل بوصفه عالما محنكا من علماء الاجتماع والسياسة فقد كان يرى ان البشر لا يتحملون الفوضى مدة طويلة ، لذلك فقد اقترح ما يمكن ان نسميه اليوم ببرنامج الاستقرار السياسي .

وبما أن المجازفة ـ في نظر توكفيل ـ معقدة أكثر من مجرد المواجهة الفرنسية الجزائرية ، فقد حث بلاده على توخي الحذر ، حيث أن بعض المجموعات ليست معارضة لفرنسا بقدر ما هي معارضة لهيمنة السلطة المركزية بوصفها تلك ، فيتعين مراعاتها . أما الامير عبد القادر فينبغي تنظيم سلطته في اقليم وهران ، لانه « لا يقوم بالحرب في

الخارج فحسب بل يقوم بها ايضا ضد الارستقراطيات الوراثية ببلاده . . فهو بصدد تركيز عمل الدولة الرهيب » . فيجب على فرنسا حينئذ أن تقصر طموحاتها على المناطق الساحلية .

ان هذه التقارير والرسائل يرجع عهدها الى سنة 1837 . ونحن نعلم جيدا أن المنطق العسكري هو الذي تغلب في آخر الأمر . ولكن خلال حوالي عشر سنوات على الاقل كانت الأطراف متعددة والرهان غير معروف ، ومن وراء النزاع المسيطر بين فرنسا والجزائر تظهر في الأفق ملامح المقاومة البدائية للمجوعات التي أفلتت الى حد ذلك التاريخ من أية مراقبة مركزية ومن جميع مشاريع تنازع الدولة بين الأتراك والجزائريين وغير ذلك من المظاهر . واعتبارا لهذا التحليل واعتبارا ايضا لكون جميع المنطقة قد انقلبت تحت الوصاية الاستعمارية بعد احتلال الجزائر ، يصبح من الضروري اعادة تحديد دائرة المقاومة بالبلاد التونسية وعدم حصرها في ردود الفعل التي ظهرت في سنة 1881 . بل أقترح ان تدمج فيها المقاومة الفعالة المستميتة والبطولية التي وقعت في سنة 1864 والتي يمثلها أصدق تمثيل علي بن غذاهم .

ذلك أنه لا يمكن ان نقدر ثورة 1864 حق قدرها اذا لم نعتبرها أولا رفضا للسيطرة الامبريالية على ادارة شؤون البلاد السياسية والاقتصادية، حيث ان البلاد التونسية ، كما أشرنا الى ذلك آنفا ، قد وجدت نفسها تحت الهيمنة الاستعمارية قبل الاستعمار الشكلي بمدة طويلة ، وتتمثل تلك الهيمنة في الضغوط المستمرة التي يسلطها قنصلا فرنسا وانجلترا على الحكومة التونسية وفي الامتيازات المجحفة التي افتكاها لفائدة مواطنيهما وفي تبعية الاقتصاد التونسي للاقتصاد الاروبي بوجه عام . وأمام الاستياء الذي انقلب الى عصيان القبائل والفلاحين في آن واحد ، أصبح الاعيان متخوفين من القوى الداخلية . ولكن محمد خزنه دار عامل سوسة قد تبين بوضوح المجازفة حين قال » اننا لا نخشى الاعراب بل نخشى البحر الذي يتصاعد منه الدخان واللهيب » ، فلتحرصوا حينئذ « على أن لا يمس الأروبيين أي أذى » .

ومن الجلي ان حركة 1864 كانت موجهة ايضا وعلى وجه الخصوص ضد الاسرة المالكة التي لم تجد اي حل لتكاليف بذخها المفجعة ومحاولاتها التعصيرية ، سوى مضاعفة الضريبة الشخصية ، تلك السياسة الجبائية التي يشبهها السكان نفسانيا بالنهب والربا . وقد تكون تلك الزيادة التعسفية بمثابة نقطة الماء التي أفاضت الكأس . ولكن لا بد ان يكون الاستياء عميقا وعاما الى

حد أنه افضى الى التحالف بين اهل المدن واهل البوادي وبين الحضريين وشبه الرحل ، المنقسمين عادة بمفعول التجزئة الاجتماعية والريبة المتبادلة . هذا ولم يخف عن كبار رجال النظام القائم مدلول تلك الحركة فقرروا قمعها بقساوة بقيت آثارها عالقة بالاذهان مدة أجيال متعاقبة . ولم يبالغ زروق اثر عمليات القمع حين اكد لمليكه انه قد مكنه « من استرجاع عرشه » ومن قبول « بيعة جديدة » . ولئن كان هناك انتصار فهو لن يدوم طويلا . فباقتصاد مفلس وشعب منهك القوى ، سوف تكون الاسرة المالكة عاجزة عن منع فرض الوصاية الاجنبية على الايالة .

ذلك ان البلاد التونسية قد عرفت شكلا من المقاومة قد ظهر بوضوح اقل في بقية اقطار المغرب العربي ، واقصد بذلك الجهود التي بذلتها النخبة لتحاشي الوضع الاستعماري عن طريق التعصير الوقائي والداخلي . من ذلك ان رجالا من امثال خير الدين وابن ابي الضياف ومحمد بيرم الخامس وقابادو قد بذلوا كل ما في وسعهم لتقديم برنامج مضاد للاستعمار قبل ظهور الاستعمار . ومن هذه الناحية فان البلاد التونسية قد قامت بالفعل بدور همزة الوصل بين المشرق والمغرب وساهمت في حركية تاريخية تجعل منها مع تركيا ومصر احد مراكز الانطلاق بالنسبة للعالم العربي الاسلامي المتطور . فقد كانت النخبة في كل قطر من الاقطار الثلاثة تطرح نفس الاسئلة : ماذا ينبغي ان نتخذ من اجراءات للحفاظ على الاستقلال ؟

ولقد كانت اجوبة المصلحين التونسيين عن تلك الاسئلة مماثلة تماما لروح « التنظيمات » ولبرنامج محمد علي ، اي التغيير من الداخل قصد اقامة نظام دستوري وعقلنة الادارة وتعصير الجيش وبذل الجهود لفك القيود عن الانشطة الاقتصادية . ففي هذا الاطار يندرج اقرار تسجيل المراسلات وامداد جامعي الضرائب بالمقتطعات . وفي هذا السياق تظهر اهمية احداث المدرسة الحربية ببارادو والمدرسة الصادقية وانشاء الرائد التونسي وازدهار الصحافة وحركة النشر والمكتبات والغاء الرق والنفس الجديد الذي اعطي للاقتصاد ، لتدارك ضياع مداخيل الجباية والمنافسة الاجنبية .

وبطبيعة الحال لا ينبغي ان نتعلل بالاوهام : ذلك ان هذا المشروع لا يمكن ان يفضي بداية صورة من الصور الى تحول يجعل البلاد في نفس المستوى الفني والتنظيمي الذي بلغته البلدان الصناعية الرائدة .

الا ان الشيء الممكن بالنسبة لاحسن الافتراضات هو التلاؤم مع النظام الراسمالي باقل التكاليف . ولكن عرقلة ذلك المشروع لا تنقص ابدا من قيمة النخبة التي كافحت ضد شتى الضغوط وحاولت اجتناب ما لا مفر منه .

فمن الأمور المشروعة حينئذ طرح المسألة الاساسية التالية : كيف يمكن أن نفسر عدم تمكن المقاومة البدائية ، ولا تلاؤم الطبقات الحاكمة ولا جهود المصلحين من تغيير مجرى تلك الحركة التوسعية التي تبدو وشيكة الوقوع ولا مفر منها ؟

يميل بعضهم الى حمل المسؤولية على عاتق الأسرة المالكة ويتوجه البعض الآخر باللوم الى تمسك الجماهير بالقديم ، وأخيرا فمن الناس من تأثروا بتفوق الهيمنة الاستعمارية في العالم الى حد انهم أهملوا في آخر الامر المقاومة المحلية .

وبالنسبة الي فاني أعتبر ان من واجب أي تفسير علمي أن يأخذ بعين الاعتبار مجموع هذه المتغيرات في تفاعلها بعضها مع بعض ، وان يقدر تأثير كل واحدة منها بحجمها الخاص ، في التطور التاريخي للبلاد .

ولا شك أن القصر الذي هو حلبة حقيقية للدسائس ، كان مفتوحا في وجه المتملقين والاقوياء أكثر مما كان مفتوحا في وجه الاصلاحيين ، وقد كان نظام الحكم القهري واضحا كل الوضوح ، وليس أدل على ذلك من احتكار الضرائب وطرق الضغط المادي ، ولكن الامر يتعلق باحتكار خاص ـ يستثني بطبيعته الطبقات الاجتماعية الموجودة في البلاد ـ وبالتالي فقد كانت للأسرة المالكة من القوة ما يمكنها من مقاومة القوى المركزية ولكنها كانت أضعف من ذلك بكثير تجاه القوى الخارجية ،

ذلك أن السكان التونسيين ـ ولا سيما المجتمع الريفي ـ قد انهكت قواهم الحلقة المفرغة : الاستغلال والثورة والقمع . فهل من الغريب حينئذ ان نلاحظ ظهور انتفاضات وثورات جبائية ضد التفكك الاجتماعي الناجم عن وجود سوق غير مراقبة وتلاعب القوى الاقتصادية التي لا يفقه الناس منها شيئا وليس لهم عليها أية سلطة ؟ وهل من الغريب أن تكون تلك الحركات غير محددة ومحافظة سطحيا ؟ فلقد وجهت الانتقادات لتلك الحركات لافتقارها الى خطط استراتيجية ووسائل عمل متلائمة اكثر مع العصر . ولكن ذلك يدل على جهل لطموحاتها

التي لا تتمثل أبدا في انشاء عالم جديد وكامل الشروط بل في اقامة نظام سلفي يعامل فيه الانسان معاملة عادلة . ويبدو لي أن ما قاله أنطونيو غرامسكي حول مناطق ايطاليا الجنوبية في العشرينات مطابق لتلك الحركات التونسية خلال القرن التاسع عشر ، حيث قال بالخصوص : « لقد كانت تلك المناطق في حالة هيجان مستمر ولكن باعتبار ان الجماهير قد كانت عاجزة عن العثور عن تعبير مركزي عن طموحاتها وحاجياتها ».

ولكن هذا الحكم يدعونا الى تحويل السؤال الى مستوى آخر ، فيصبح السؤال هو الاتي : لماذا لم يوجد تحالف بين الاصلاحيين من أمثال خير الدين وبين اطارات الحركات القاعدية التي يمثلها رجال من أمثال علي بن غذاهم ؟

يبدو لي أن احدى نقط ضعف القرن التاسع عشر بل ربما المجتمع السياسي في العالم العربي ، تتمثل في الهوة العميقة والمستمرة التي تفصل دوما وأبدا بين الحكومات والمجتمع ، وفي هذا المقام يبدو من الواضح أن النخبة والجماهير قد واجهت النظام ولكن في صفوف مشتتة وعلى حساب الجميع . ومن المفيد ان نلاحظ في هذا الصدد أن النخبة لم تكن تتصور هذا التفرع بما يكفي من الوضوح ، فعندما عاب زملاء خير الدين على هذا الاخير عدم تطبيقه لما ورد في كتابه « أقوم المسالك » من اصلاحات سياسية لما أصبح وزيرا أكبر ، أجاب (على سبيل التقريب) : انه من الضروري توفير شرطين اثنين ليكون للقوانين الدستورية أي مدلول : أولهما وجود ملك يرغب في اصدار تلك القوانين وثانيهما وجود شعب قادر على ادراكها ومهيىء لتقبلها . ولكن كلا الشرطين مفقودان في البلاد التونسية ، وتبعا لذلك فان الدستور هو « اسم بلا مسمى » . ولقد تذمر ابن ابي الضياف من هذا التفاوت ولكنه لم ييأس من ذلك الشعب الذي حنكته المحن قائلا : ان عصرنا هذا قد فتح الأعين وأنطق (حتى) البكم .

ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظة ان المشروع الاستعماري قد أصاب حركة في حالة مخاض ، ذلك ان عزيمة التعصير الداخلي لا قيمة لها في اطار استراتيجية امبريالية تشمل العالم بأسره . فمن الغريب حينئذ ان نلاحظ الموقف الساذج شيئا ما الذي اتخذه بعض الاصلاحيين ، وقد صعب عليهم أن يدركوا كيف يمكن لممثلي أوروبا أن يؤيدوا الديمقراطية والتقدم في أوروبا وينحالفوا مع الاستبدادية ونظام الميز في الاقطار الاخرى . وقد كان بوسعهم ان يطالعوا ما كتبه توكفيل منذ سنة 1838 حين قال : « لم نحول الى افريقيا مؤسساتنا المتحررة

ولكننا نزعنا عن الاهالي هناك كل ما يمكن ان يشبه مؤسسات من ذلك القبيل » .

ومجمل القول اننا بينا كيف ان حركات المقاومة بتونس ـ رغم بعض الانقسامات الداخلية واذا ما نظرنا اليها بمنظار خاص ـ تبدو أهم واكثر تنوعا مما عرف عنها عادة . ويمكن أن نضيف الى ذلك ما كان لها من تأثير كبير في المستقبل الاجتماعي . ذلك ان الطاقات الشعبية عوض تبذيرها في مجهود حربي لا طائل تحته ضد الأجنبي ، قد وجهت توجيها ايجابيا أكثر نحو محتوى الدولة التونسية ومهامها وهياكلها التأسيسية ونحو نوع العلاقات التي ينبغي ان تسود داخل المجتمع . وان ابعاد مثل هذه الرسالة لم تعمل فحسب على تعديل اتجاه العمل الاستعماري في بلادنا ، بل انها مازالت تلهمنا الى يومنا هذا .

محمد الباقي الهرماسي
أستاذ محاضر بكلية الآداب
والعلوم الانسانية بتونس

طموحات الاسرة المالكة
والمنافسات العرقية والدسائس الدبلوماسية

ان اقحام هذا البحث في برنامجكم يستحق بعض التوضيحات بل بعض الاعتذار ، ولو ان الشروط الملزمة للغاية لاعداد هذه الندوة الاولى التي تنظمها لجنة تاريخ الحركة الوطنية ، تفرض من ناحية أخرى على جميع المتدخلين أن لا يحددوا لمساهماتهم في هذا الاطار الافتتاحي ، أهدافا طموحة ومدققة أكثر من اللازم .

وهذا هو الحال بالنسبة الي ، للضرورة من جهة ، وربما بمحض اختياري من جهة أخرى .

أولا في مستوى معادلة الموضوع الذي أعتزم طرقه في نطاق الغرض الذي تم تحديده في آخر الامر لندوتنا .

وتوضيحا لذلك أقول : بناء على التاريخ الذي وقع عليه الاختيار والاعلام الذي سبق هذا الاجتماع حتى الايام الاخيرة ، فاني أعتبر ندوتنا فاتحة عمل متعدد الاختصاصات ومخصص للتأمل في الحدث المتمثل في الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية ، سواء تعلق الامر بأصول الحدث المعني بالأمر أو بنتائجه أو بهذا العامل أو ذاك من العوامل التي تسمح بتغيير أو توضيح وصف الحدث والوضع المترتب عليه .

هذا وان الموضوع الذي وقع عليه الاختيار في آخر الامر الا وهو « ردود الفعل على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881» ، يجعلني أشعر بشيء من الحرج لأعرض عليكم بعض التأملات المتعلقة فحسب بنشأة الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية (واني أعلن عن ذلك منذ البداية

وأوضح ذلك بالحاح لا شك انكم تدركون سببه ، حيث أن الحماية لا تلتبس بالضرورة بالاحتلال الفرنسي للبلاد) .

وأوضح من ناحية اخرى أنني أدعي ضبط بحث شامل لأسباب الحدث الدبلوماسي والسياسي المعني بالامر . وهذا شيء مفروغ منه ، ولكن لا بأس من توضيحه بالنسبة لمن يروم التأمل في العبرة من الصرامة السليمة والرهيبة في آن واحد ، التي سادت أمس مناقشة مشاكل المصطلحات والمنهجية ومجالات الاختصاص على وجه الخصوص .

على اني مقتنع ـ اذا ما سمح لي بالمساهمة في هذا النقاش مساهمة متواضعة ـ بانه لا يمكن لأية مجموعة سببية ان تستنفذ تفسير تحديد حدث من الاحداث الملموسة وان المجال مفتوح دائما وبالضرورة للافراط في التحديد .

وهذا يعني ان هناك مكان لأكثر من تفسير واحد ولو ان ذلك لا ينبغي أن يجرنا الى قبول اي تفسير يعرض علينا .

كما تتضح لي بديهة اخرى ، وذلك بالرجوع ايضا الى نقاش أخذ يجري من حسن الحظ الى جانب ـ أو بالاحرى ـ في داخل أو في صلب أشغالنا ألا وهو النقاش حول موضوع التقارب أم التباعد بين تحليل الهياكل ودراسة الأصول . ويبدو لي أن قبول مفهومي الهياكل والأصول بوصفهما عاملين متزامنين ، هو الكفيل وحده بتمكين علم التاريخ من التقدم .

ومن الواضح حينئذ انى لا أدعي القيام بتصنيف أشكال مقاومة الاحتلال الفرنسي في سنة 1881 ، بل اني أرمي فحسب الى لفت نظر الباحثين الذين هم في موقع أحسن من موقعي ، الى ما يمكن أن تسفر عنه من نتائج مثمرة بعض فرضيات العمل حول ما يمكن اعتباره أهم رد فعل على الاحتلال الفرنسي في سنة 1881 أعني ابرام دولتين لمعاهدة الحماية . ذلك انه توجد طرق أخرى ـ ربما لم يقع التفكير فيها كما ينبغي ـ بالنسبة لدولة مغلوبة غير امضاء معاهدة مع الدولة الغازية ، كما أن هناك طرق متعددة لردود الفعل بالنسبة للدولة الغازية بعد نجاح غزوتها غير ابرام معاهدة الحماية .

ولتسمحوا لي على الاقل بأن ألاحظ لكم أنه اعتبارا لما أراه لانتصاب الحماية من أصول لم يقع تصورها أبدا او على الاقل لم يقع تصورها بما يكفي من التبصر ، ربما سأساعدكم على توجيه تحليل ردود الفعل على انتصاب تلك الحماية في اتجاهات لم يتم تفسيرها الى حد الآن .

وكما يوحي به العنوان الذي اقترحته لهذا البحث ، فاني أرمي أولا وبالذات لا الى تفنيد التفسيرات المقدمة الى حد الان حول انتصاب الحماية بل الى تهذيب البعض منها . ذلك أنه من الملاحظ ان العوامل الثلاثة التي أعتبرها من أسباب انتصاب الحماية الفرنسية هي مقبولة من طرف كافة المؤرخين ، ولو ان بعضهم يعطي الاولوية للتفسير الداخلي في حين يفضل البعض الآخر التفسيرات الخارجية ، ولو ان بعض المؤرخين يشيرون الى مسؤليات الأفراد او الأسرة المالكة ، في حين يفضل البعض الآخر التأكيد على الاسباب الاقتصادية والديمغرافية .

أما انا فاني أود أن أقتصر على اقتراح ابراز العوامل الثلاثة المذكورة وأبين من جهة كيف كانت على امتداد القرنين اللذين سبقا انتصاب الحماية ، متشابكة بصورة طريفة وبليغة بحيث يبدو كل عامل من تلك العوامل قبيل 12 ماي 1881 متأثرا تأثرا فعالا بالعاملين الآخرين ومؤثرا في كل منهما ، ومن جهة أخرى كيف أن تظافر العوامل المذكورة سيفضي لامحالة الى احداث وضعية دبلوماسية وقانونية هي موضوع محاولتنا التحليلية .

ذلك أن الحماية هي عبارة عن عقد دولي مبرم بين طرفين مدفوعين الى امضائه لا فحسب بموجب الوضع السائد على الساحة بالنسبة لكل منهما في ذلك التاريخ ، بل أيضا بموجب ثقل التاريخ الذي ضبط تصورهما للعالم . وان ما يمكن ان يقدمه مؤرخ القرن الثامن عشر المتعود أقل على القرن التاسع عشر ، الى هذه الندوة ، هي شهادة حول عدد من الوضعيات والتطورات التي حصلت فيما بين سنة 1705 وسنة 1830 على وجه الخصوص ، وهي شهادة تسمح لنا بالتأكيد على أن مذهبا دبلوماسيا قد تكون شيئا فشيئا خلال تلك السنوات المائة والخمس والعشرين من تاريخ كل بلد من البلدين المذكورين ، الى حد ان ربط علاقات مثل التي ستنص عليها معاهدة الحماية قد أصبح شيئا طبيعيا في نظر « الدوائر القنصلية » في كلا البلدين .

ولا شك أن عبارة « الدوائر القنصلية » تمثل ، فيما يتعلق بالطرف الفرنسي مؤسسة لها هيكلها وخبرتها ، في حين ان مثل تلك المؤسسة ليست موجودة بنفس الوضوح ، بالنسبة للطرف التونسي (ولا سبيل حينئذ الى تحليل المذهب) . ولكن هذا الفارق لا يمنع من التحدث من جهة ومن أخرى عن ضبط مذاهب دبلوماسية بالمفهوم الممكن ان نتحدث به مثلا بالنسبة لأطراف اخرى ، عن مذهب مونرو بخصوص الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر أو مذهب المنحدر البولوني بالنسبة

لبعض البلدان الاخرى في عصور أخرى .... على أن وجود مثل تلك المذاهب ، سواء أعلن عنها أم لا ، وربما بالخصوص اذا ما لم يقع التصريح بها وأصبحت من البديهيات المثيرة لردود الفعل والمتسببة في نتائج ايديولوجية ، ان من شأن وجود مثل تلك المذاهب تحويل اتجاه العوامل البنيوية والوقائعية ، لا تشويهها واستثناؤها . وهذه مناسبة جديدة وثمينة للاشارة الى ان تأثر الاعمال البشرية بالعوامل الخارجية لا يحصل أبدا بدون الاذعان الخفي لشرعية أو حتمية ذلك التأثر الذي « من الممكن مقاومته » دوما وأبدا ، مثل ارتقاء « أرتورو ـ وي » عند الكاتب برتولد براخت .

وهذا ليس من موضوعات ميتافيزيقيا العادات ، بل هو مظهر من أوجب وأوكد مظاهر التأمل السياسي . حتى ان العشرية 1970 ـ 1980 قد شهدت تحول التأمل في هذا الموضوع الى فكرة ثابتة ، حقيقية أو مصطنعة ، استحوذت على تفكير الرأي العام العالمي والمؤسسات الممثلة له (أو التي تعتقد تمثيله) ، حيث ان منظمات كبرى مثل منظمة الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو والبنك العالمي ، قد أعلنت عن وعيها بأولوية المؤثرات الثقافية ، بالمقارنة مع سائر المؤثرات الاخرى . واذا لم تكن هذه التصريحات مجرد ادعاءات ، فانها تلتقي بأشد اهتمامات المؤرخ على الدوام ، أي المؤرخ الذي يرتكز دوما وأبدا تطلعه للماضي ـ سواء أنكرة أم قبله ـ على الأمل في العثور بين خباياه على بعض مفاتيح الحاضر .

هذا وان القول بامكانية تأثير العوامل الثقافية التي يقتضيها تصورنا للعالم ، يعني الاقرار بأن امكانيات تأثير العوامل المتفاعلة في نظام متزامن بعينه ، تجد تفسيرا لها في نشأتها ، ويعني وجوب ارجاع تلك النشأة الى أبعد ما تقتضيه نوعية العامل المفروض . وذلك طبعا بقطع النظر عن كون الالتقاء بين تلك الاصول ضمن نظامها المتزامن ذاته ، قد يؤول الى افتراض وجود أصول أخرى .

ومن هنا جاء هذا التحقيق الذي أود ان أقترح عليكم خطوطه الكبرى ، حول التكوين التدريجي لمذهب دبلوماسي حسيني من جهة ومذهب دبلوماسي فرنسي من جهة اخرى ، ومن شأن هذا التحقيق أن ينير السبيل لادراك المسالك التي تسمح لنا احداث سنة 1881 بملاحظتها .

ولتسمحوا لي بأن أبدا تحقيقي بالتساؤل حول الظروف ذاتها لتأسيس العائلة الحسينية ، أو بالاحرى لتسمحوا لي بان أبدا بالتساؤل حول الطريقة التي نقلت لنا بها أخبار ذلك التأسيس . والحقيقية

أن جميع ما سأبديه من ملاحظات قد انطلق من التأمل في هذه الجملة المقتضبة التي صاغها مؤرخنا ابن أبي الضياف .

وهذه الجملة هي التالية ، وقد وردت بعد رواية إقدام ابراهيم الشريف على اغتيال مراد الثالث الذائع الصيت (الذي شبهه بوايي دي سان جار في بنيرون) . فقد قال ابن أبي الضياف ان المؤرخين ، لاعتبارات سياسية ، لم يذكروا أن اسطنبول هي التي أذنت لابراهيم الشريف . بهذا الاغتيال . لماذا ؟

لأن المؤرخين المأجورين لحسين بن علي قد أرادوا ان يعطوا لقضية ارتقاء مليكهم للحكم رواية تبرؤه من كل شبهة ، بخصوص معارضته للخلافة العثمانية .

فلقد عملوا ما في وسعهم لاخفاء المدلول الحقيقي لعصر ابراهيم الشريف العابر ، الذي يمثل رجوعا الى أصل نظام الايالة التركية بمفهومه الأصلي الخالص . ولم يشذ عن ذلك الا المؤرخ الصغير بن يوسف الذي تنقصه المهارة ولكنه لا يهتم بالاعتبارات السياسية . فهو وحده الذي يسمح لنا بادراك ماذا يعني هذا الرجوع السريع للغاية الى بذاخة العهود السالفة في نظر جنود الانكشارية الذين استمروا في الحنين الى تلك العهود بعد انقضاء عدة عقود . أما المؤرخون الآخرون فقد فضلوا ان يخفوا عنا ان حسين بن علي ـ بالرغم من أعمال مراد الثالث المجونية ـ قد كان من أنصار البايات المراديين وأنه قد ساعدهم على التغلب على محاولات ارجاع نظام البايات بقوة . كما فضلوا أن يخفوا عنا ان الخلاف بين ابراهيم الشريف وحسين بن علي له أسباب بعيدة المدى وبعبارة أحسن له أسباب بنيوية أو « طبقية » . فمن الجانب الاول هناك ابراهيم الشريف وهو ضابط من كبار ضباط جيش الترك ، كان قد ساهم في صفوف الجيش الجزائري في حملة كانت ترمي الى ارجاع محمد باي (ابن مراد) الى الجادة ، وقد اتهمة داي الجزائر « بتشجيع العرب الخبثاء وتفضيلهم على الجنود الاتراك ومحاولة انشاء ملوكية وراثية وحصرها في عائلته » . ومن الجانب الآخر يوجد ضابط من ضباط « المحلة » ـ حسين بن علي ـ الذي تكون في ظل البايات وباتصال مع السكان الأهالي وقد تزوج أبوه من بين قبائلهم المحلية ، أي قبيلة الشنوفي أولا ثم قبيلة الشاراني فيما بعد . وهكذا فان ارتقاء حسين بن علي الى العرش لا يمثل تعويض نظام مراد الثالث بنظام جديد ـ بل يمثل ـ بالرغم من الخصال الحميدة المعروفة ـ ارجاع النظام الذي كان موجودا في عهد مراد الثالث والذي أطاح به نظام ابراهيم الشريف المشهور ، وقد تم اخفاء جميع خصائصه الاساسية .

ذلك أن سلوك حسين بن علي العضد السابق لمراد الثالث والذي احتفظ بمهامه ، قد كان سلوك رجل يحن الى « النظام السابق » ويعمل خفية على ارجاعه . وهكذا فقد تخلى عن ابراهيم الشريف مرة أولى أثناء حملة طرابلس ومرة ثانية أمام الجزائريين . أما بالنسبة للرواية المكررة بالتواتر والتي تقول ان حسين بن علي قد تقلد الحكم « بطلب ملح من السكان الذين جاءوا زرافات ووحدانا ليلتمسوا منه التفضل بمسك زمام الامور » فان مجرد نظرة ، ان لم تكن نقديه فعلى الاقل حذرة ، تكفي لاعتبارها أسطورة نسج خيوطها بعناية فائقة المؤرخون المأجورون . ذلك ان قراءة نص ، قد اعتبر مدة طويلة ذا أهمية ثانوية، لها أكثر من مدلول في هذا السياق . وهو نص نسبه غرانشان للكاتب نيكولا بيرانجي ، مقتطف من مذكرات ملاحظ أوروبي قد عاش بالفعل حوادث 1702 – 1705 . فانتصاب حسين بن علي يمثل – كما أشار الى ذلك المؤرخون « الحسينيون » أنفسهم – عودة « نجوع » القبائل البدوية لحظيرة حكم البايات .

وقد قال ابن ابي الضياف على اثر ما قاله الآخرون ، حيث لم يكن يمثل سوى ترديد مجموعة متناسقة من الشهادات او الشهادات المزعومة ، قال ان ذلك بمثابة الحنين الى العودة لحظيرة الحكم الذي يمسك بزمامه أمير من ابناء البلاد . ومن بين النجوع التي عادت ، يوجد نجع محمد باي شقيق حسين بن علي ، وهذا يعني حصول عمليات فرار قبل هذه العودة ، وهي عمليات لم تكن لتخفى على حسين بن علي ومن الصعب ان نتصور أنه لم يشجعها .

ومن اللازم ان نتوسع شيئا ما في الحديث عن الظروف التي سبقت ارتقاء حسين بن علي . ففي الفترة الفاصلة بين القرن السابع عشر الذي يسيطر عليه البايات المراديون والقرن الثامن عشر الذي يسيطر عليه البايات الحسينيون ، – ونحن لا نعرف أخبار هذين القرنين الا من خلال الروايات المستوحاة من الحسينيين – ظهرت حكومة ابراهيم الشريف . وهي حكومة عابرة لا محالة ، ولكن أعمالها وما كتب لها من مصير توضح بما فيه الكفاية المدلول الحقيقي لنجاح حسين باي : أعني التغلب بأناة على حركة ترمي الى ارجاع النظام الاوليغارشي التركي ، وتهيئة الاعمال الرامية الى استعادة وتعزيز الجهود التي بذلها مدة عدة عقود البايات المراديون لاقامة حكومة تمتاز بخصائص ثلاث : الاستقلالية تجاه اسطنبول والملوكية الوراثية والاستناد الى السكان العرب « والمماليك » .

وان ما يؤكد هذا التحليل دراسة التوازن الذي استطاع حسين باي تحقيقه بين مختلف القوات المتواجهة (1705 – 1728) ودراسة ثورة ابن أخيه التي اخلت بذلك التوازن ثم قضت عليه في آخر الامر (1728 – 1735) .

ولقد عمل المؤرخ حسين خوجة ما في وسعه ليترك للاجيال القادمة عن حسين باي صورة الرجل المتحلي بجميع الخصال الحميدة والذي ، بفضل حكمته ونزاهته ، ضمن النجاح لجميع مشاريعه ، فضلا عن الامجاد التي حازها بدون ان يسعى الى الحصول عليها .

وقد وصفه القنصل الفرنسي بوايي دي سان جارفي بأنه « رجل معتدل ومجتهد ، لايبالي بالتعب ، متسق في اعماله ومنتظم في سلوكه » . والواقع ان حسين بن علي قد كان رجل الثورات الصامتة ، وقد حرص على ان يبقى كذلك ، حيث كانت رباطة الجأش والتكتم ، من العلامات البارزة لشخصيته . ولا بد ان نعترف للرجل الذي عرف كيف يجتاز جميع المحن ، بالقدرة الفائقة على اكتشاف انجع الوسائل للحياة السياسية بالايالة والتصرف فيها .

فلقد ارتقى حسين بن علي الى العرش بفضل ما كان يتمتع به من نفوذ لدى القبائل البدوية وبفضل ما كان يمثل ذلك العامل من قوة عسكرية ومالية ، لمن يحسن التصرف فيه . وقد عرف كيف يتصرف بدهاء ليظهر بمظهر زعيم التصالح الوطني والوحدة المقدسة . وعندما اصبح صاحب الامر والنهي ، ساند حلفاءه وجامل خصومه ، تاركا لهم الفرصة للتكفير عن ذنوبهم .

ولقد امتاز عهده بنوعين من المناورات : التحييد والاحتواء . اما الاحتواء فهو يتمثل في وضع اشخاص لا يشك في ولائهم للنظام ، على راس المؤسسات ولو كان هناك شك في كفاءتهم . واما التحييد فهو يتمثل في تمكين بعض المؤسسات من الاحتفاظ بعناوينها الرنانة دون منحها سلطة التقرير الحقيقية . من ذلك مثلا اسناد بعض الوظائف المخصصة للاتراك الى بعض الاشخاص الذين ليس لهم من الترك الا الاسم ، وتجريد بعض الوظائف الاخرى من اية فعالية ، فهذان المظهران هما اللذان يميزان تلك السياسة .

واننا نكاد لا نصدق كيف ان تلك الثورة الرامية بمثل ذلك الحزم الى اقصاء العنصر التركي من الدواليب الادارية الرئيسية بالايالة ، لم تثر اهتمام الباب العالي . على ان للمحاولة التمردية التي قام بها محمد بن مصطفى في سنة 1717 مدلولها الخاص .

وحسب الرواية الرسمية فان قبودان باشا ، جانم باشا ، قد ارسى بميناء غار الملح في سنة 1717 « وارسل الى الباي حسين يطلب منه التنازل لفائدة محمد بن مصطفى وادعى ان ذلك بمقتضى امر سلطاني ، استظهر به من قبل الدولة العثمانية » .

فجمع حسين باي رجال الديوان واخبرهم بالاقتراح الغريب ، قائلا لهم : « اني لم أطلب الولاية لولا الزامكم ، وهذا أمركم شورى بينكم » فكرهوا هذا المقال وسدوا آذانهم دونه .

وانه من الصعب التصديق بان الاوامر الكتابية التي حملها قبودان باشا ، كبير أمراء البحر ووزير البحرية ، لم تكن حقيقية كما ادعى ذلك انصار حسين باي ، خاصة اذا ما علمنا ان المطالب بالعرش هو محمد بن مصطفى ، الوزير السابق والموالي المتحمس لابراهيم الشريف . كما ان تحليل ثورة علي باشا تفضي الى نفس الشكوك . ففي سنة 1728 اصبح البناء الذي شيده حسين باي مهددا بالانهيار . حيث شق علي باشا ابن حسين باي ، ، عصا الطاعة في شهر فيفري 1728 والتجأ مع انصاره الى جبل وسلات ، وقد انظم اليه اهل المنطقة . هذا وان حسين باي ، منذ توليه الحكم قد اعتبر ابن اخيه علي في مقام ابنه ، وعهد اليه بتلك الصفة « ولاية المحلة » . ولكن في سنة 1726 غير موقفه تجاهه وقرر تكليفه بمهام شرفية واسناد مهمة « ولاية المحلة » الى ابنه محمد الرشيد . فظلت البلاد مدة خمس سنوات فريسة للحرب الاهلية التي اندلعت بين الحسينية (انصار حسين بن علي) والباشية (انصار علي باشا) .

ولنلخص تلك العملية بشيء من الايجاز : فلقد اعتبر الباي حسين رتبة الباشا ، ممثل الخليفة التركي ، بمثابة الوظيفة العاطلة المرغوب فيها اقل من ولاية المحلة . وبناء على ذلك فقد عين فيها ابن اخيه الذي يريد اقصاءه عن معابر الحكم . الا ان تلك الخطة والطريقة المتبعة لاحباطها ، تعبران عن توازن القوي في الايالة التونسية ، حتى قبل ان يفكر الشركاء الاوربيون في الاستفادة من ذلك .

ولكي لا استأثر بانتباهكم الى ما لا نهاية له ، ولا اعوض بقراءة جديدة للتاريخ التونسي في القرن الثامن عشر ، البحث الذي يشير الى ضرورة اعادة تلك القراءة لغرض واحد الا وهو محاولة تفسير احداث سنة 1881 بصورة احسن ، ادعوكم فحسب

الى اثارة بعض التساؤلات حول منعرجين اساسيين في التاريخ التونسي وبالضبط في تاريخ العلاقات الفرنسية التونسية . وينبغي تخصيص المحاولة الاولى لتحليل الحرب الفرنسية التونسية التي اندلعت في سنة 1770 . ومن شأن ذلك ان يسمح لنا بان نلاحظ ان العائلة المالكة الفرنسية (اسرة البوربون) قد انتهجت طوال القرن الثامن عشر ، اي قبل احتلال عاصمة الجزائر بمدة طويلة ، سياسة هيمنة تجارية ودبلوماسية على الايالة التونسية ، وذلك ـ بالضبط ـ باستغلال طموحات العائلة الحسينية نحو الاستقلال .

وان ظروف اشهار الحرب الفرنسية التونسية في سنة 1770 وتسلسل احداثها وانتهاءها ، لتقيم الدليل القاطع على ذلك . حيث ان تلك الحرب قد اعدتها ببراعة فائقة وزارة شوازول لتغيير سياسة فرنسا الاستعمارية تغييرا حقيقيا . ثم ان تلك الحرب التي اعلنت في الوقت المناسب قد سمحت لوزارة البحرية الفرنسية باجراء عملية ذات اهمية دبلوماسية وعسكرية بالغة ، كانت تحلم بها منذ عهد بعيد . ذلك ان الدبلوماسية الفرنسية كانت مهتمة بشؤون الايالة التونسية منذ اوائل القرن الثامن عشر ، حيث تعود المسؤولون بفرنسا على فكرة ترابط مصالح العائلة الحسينية الخاصة ، وطموحات عملائهم الاهليين السياسية ومصالح التجارة البحرية الفرنسية .

وهناك مثال اخير ولكنه على غاية من الاهمية ، يتمثل في تحليل موقف العائلة المالكة التونسية من النزاع الجزائري الفرنسي الذي افضى الى احتلال عاصمة الجزائر (1824 – 1830) . فمن بين البلدان المغربية الثلاث ، كانت العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الايالة التونسية هي الايسر . اذ من المعلوم ان الملوك التونسيين كانوا قادرين على استعمال جميع التعلات للتخلص من الضغوط الجزائرية المسلطة عليهم باسم التضامن العثماني . وقد كانت فرنسا من جهتها في حاجة الى تونس ، حيث كانت علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الايالة الجزائرية دقيقة بقدر ما كانت متينة . وبصورة متناقضة فقد وقع اختلاق سبب مصطنع بالتواطؤ مع وزير تونسي مأجور ، حسبما اثبتته بدون اي شك وثيقة من وثائق الغرفة التجارية بمرسيليا . فالنزاع المفتوح لا يمكن ان يفضي الا الى حرب خاطفة . ولقد حرص الذين سعوا من الجهتين الى اشعال نار الحرب ، على الظهور بمظهر دعاة التصالح . اذ كان على راس

الايالة التونسية مدة طويلة وزير اكبر حليف ومواطىء للدوائر القنصلية الفرنسية .

فمنذ عهد الامير حسين باي الثاني اعتبرت العائلة الحسينية من مبادئها الاساسية معارضة الدايات بالجزائر ومن مبادئها الاساسية ايضا مقاومة تولي الحكم من طرف جند الترك وكذلك التحالف مع فرنسا .

وان الجهود التي بذلها القناصل الفرنسيون دي سيزيو ودوفواز ودي ليسبس وشركاؤهم التونسيون مصطفى خوجة وحسن خوجة والعربي زروق وحسين باش مملوك ، قد توصلت الى جعل مصالح الحزب الحسيني متضامنة مع مصالح الدبلوماسية الفرنسية .

وعلى ضوء التاريخ خلال السنوات 1770 – 1830 ، وتقارير ماتيودي ليسبس يحق لنا ان نتحدث لا أكثر ولا أقل عن تواطؤ مقام على المصالح المشتركة .

ومن الممكن لا محالة ان ندرك ما كان يشعر به حكام تونس من لا مبالاة ومناهضة لحكومة الجزائر قبيل انزال الجيش الفرنسي بسيدي فرج ، بل حتى بعد احتلال عاصمة الجزائر . ذلك انهم لم يكونوا يفكرون وحدهم بان فرنسا ربما تكتفي بحملة تأديبية . ويمكن ان نفسر بدون ان نبرر ذلك ، امضاء « اتفاقيات كلوزال » من طرف باي تونس ، بالخوف من الانتقام ، وهي الاتفاقيات التي قبل الباي بمقتضاها تفويض ابن اخيه واخيه لتولي الحكم في كل من منطقتي وهران وقسنطينة ، تحت الوصاية الفرنسية .

اضف الى ذلك ان السلط التونسية قد ذهبت الى حد مد يد المساعدة لاعوان المخابرات الذين اوفدتهم حكومة باريس . بل الانكى من ذلك ان حكومة تونس قد منعت مبعوث اسطنبول ، طاهر باشا من التوجه الى الجزائر لخلع الداي المسؤول عن حالة التوتر مع فرنسا . ولو تمت تلك المهمة لربما ازالت تعلة الحملة الفرنسية وحددت من أبعادها .

ولقد تولت الحكومة الحسينية احباطها عن قصد . ذلك ان سقوط الجزائر يعني في نظر الحسينيين ارتقاءهم الى مصاف ملوك دولة ذات سيادة . ولقد تطابقت مصالحهم في هذا النزاع مع مصالح العائلة المالكة الفرنسية التي كانت ترغب في تحقيق ذلك الانتصار لتعزز بنجاح عسكري الوضع الداخلي المعرض للخطر . ولقد قال

طاهر باشا لابن ابي الضياف عندما التقى به في اسطنبول بعد سنة من الحادثة ما يلي : « ما يكون جوابكم لله عن تعطيلي الذي عطلتم به مصلحة جمهور من المسلمين » . وابتداء من سنة 1830 ستواجه العائلة المالكة التونسية حقيقة الخطر الذي اصبح يهددها على حدود بلادها . ولكن فرنسا تعتبر دائما الضامنة لاستقلال العائلة الحسينية ولصيغة حكمها الوراثي .

ذلك ان الوضع الدبلوماسي والحالة الداخلية قد جعلا العائلة الحسينية تعتبر تضامنها مع فرنسا من المعطيات المحسوسة . ومن ناحية اخرى فمن جانب حكومة باريس يعتبر الحضور الفرنسي بتونس من الامور المرغوب فيها طوال القرن الثامن عشر .

وبعد سنة 1830 غير الحضور الفرنسي بالجزائر معطيات المشكل وسلوك مختلف الاطراف . ولم يعد التونسيون ، وحتى اكثرهم مناهضة للاتراك ، يغترون بما تدعيه العائلة الحسينية من «قومية » . فلم يقتصر كبار المسؤولين التونسيين على الالتقاء بنظرائهم الفرنسيين في البلاد الفرنسية بل ايضا في البلاد الجزائرية حيث اصبحت الجزائر في نظرهم هي فرنسا .

وعندما تحدث النقيب بلخوجة ، رئيس اركان الجنرال رشيد ، عن رحلة هذا الاخير الى عاصمة الجزائر ، قال ان الجنرال التونسي لم يحاول لا في بجاية ولا في مدينة الجزائر الاتصال باي احد من الاعيان الجزائريين ولا زيارة اي معلم اسلامي ولا اي مسجد .

ومن المستبعد ان لا يكون السكان التونسيون على بصيرة من تصرفات بعض افراد العائلة الحسينية . وبناء على ذلك فاني – خلافا لبعض المتدخلين – لا ارى اي تناقض في كون اغلب مظاهر مقاومة الاحتلال الفرنسي كانت تستند الى الوفاء للسلطان العثماني . ان هذا هو ما ينبغي التأكيد عليه ، وهو ما يمكن ان يبرر التذكير المطول باحداث يرجع عهدها الى سنة 1705 ، بمناسبة هذه الندوة المخصصة لسنة 1881 . ذلك ان الدولة الحسينية منذ نشأتها قد وجدت نفسها مدفوعة في عملية ترمي الى الانفصال عن الباب العالي ، وقد حاولت بكل عناية التخفيف من ابعاد تلك العملية في نظر المعاصرين والاجيال المقبلة . وانجر عن ذلك ان العائلة الحسينية قد اعتبرت نفسها واعتبرها الناس في آخر الامر متضامنة مع فرنسا ،

حتى في صورة تعرضها لبعض الصحوبات العابرة مع تلك الدولة . وعلى ضوء هذه البيانات لا نستغرب ان تكون مقاومة مختلف عناصر الشعب التونسي للحماية مستندة في اغلب الاحيان ولمدة طويلة الى الولاء للباب العالي . اشكركم على حسن عنايتكم .

عز الدين قلوز
المدير العام لدار الكتب الوطنية بتونس

الجلسة الرابعة

رئيس الجلسة :

رومان رينارو (Romain RAINERO) مدير معهد الدراسات التاريخية بميلانو

البحوث :

- دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881 :
  - **يحيى بوعزيز** ، الاستاذ بجامعة وهران
- استقلالية المقاومات بالمغرب العربي : دور المدن بالجزائر في العقد الثامن (من القرن التاسع عشر) :
  - **اندري نوشي** الاستاذ بجامعة نيس .

دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881

(القي هذا البحث مباشرة باللغة العربية)

عندما دعيت من طرف الاخوان الزملاء في معهد الصحافة وعلوم الاخبار بتونس للمشاركة في هذا اللقاء التاريخي ، اخترت ان اتحدث عن موقف الجزائريين من احتلال تونس عام 1881 . ولكن عندما شرعت في علاج الموضوع وجدت انه من الضروري البحث اولا عن دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية في القرن الماضي ، لان ذلك هو الذي سيسمح اكثر بابراز مواقف الجزائريين الذين انطلق الاحتلال الفرنسي لتونس من بلادهم الجزائر ولكن بالرغم منهم طبعا .

دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية

ودور تونس تجاه حركات التحرير الجزائرية في القرن الماضي ، اخذ اتجاهين اساسيين وبارزين :

اولهما : اتجاه الساسة الرسميين .

وثانيهما : اتجاه الشعب التونسي بمختلف فئاته وطبقاته الاجتماعية .

اما اتجاه الساسة الرسميين وعلى راسهم البايات ، ووزراؤهم ، وولاتهم ، فكان سلبيا الى ابعد حد ، ولغير صالح حركات التحرير

والمقاومة المسلحة الجزائرية . فقد تعاون البايات مع ضباط حملة الاحتلال الفرنسية على مدينة الجزائر عام 1830 بعد ان اغروهم بتعيين اميرين تونسيين من العائلة الحسينية على كل من بايليك قسنطينة وبايليك وهران كما هو معروف (1) ، واثاروا فيهم رغبة التوسع دون ان يكون في استطاعتهم ذلك ، ودون ان يعرفوا بالضبط الاغراض والاهداف الاستعمارية لاولئك الضباط الفرنسيين . وقد يكون من اسباب وعوامل انسياقهم لهذه الفكرة الاستعمارية الصراع الحاد الذي كان قائما بينهم وبين اتراك الجزائر منذ وقت مبكر من العصر الحديث وخاصة في القرن 17 وما بعده .

وموقف بايات تونس هذا ، هو الذي تبناه سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمان بن هشام ، تجاه المقاومة الجزائرية ورائدها الاول الامير عبد القادر ، حيث عارضه بالقوة ، والسلاح ، وشن ضده حربا ضروسا . حتى ارغمه على تسليم نفسه لاعدائه وخصومه الفرنسيين . وكان موقفه هذا ، اخس ، واشنع ، وانذل ، من مواقف بايات تونس .

وخلال ثورات التحرير الجزائرية المختلفة في القرن الماضي ، كان الثوار والمقاومون الجزائريون يفرون فرادى وجماعات الى تونس للاحتماء والاستعداد . وكان الرسميون التونسيون يمنعونهم من القيام بأي نشاط ضد جيش الاحتلال الفرنسي في منطقة الحدود . غير ان تأييد الشعب التونسي لهم كان اقوى من معارضة البايات ونفوذهم ، على اي حال .

---

(1) عن هذا الموضوع يمكن استشارة المصادر التالية :

ابن ابي الضياف ، **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** ، ج 1 ص 176 – 177 .

عبد الجليل التميمي ، « مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة 1831 » ، **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 5 (تونس جانفي 1976) ، ص 5 – 19 .

— E. PELLISSIER DE REYNAUD, *Annales Algériennes,* Paris, 1854, T. I, pp. 133-164.

— VICTOR DEMONTES, « Un essai de protectorat tunisien à Oran » (du 9/2 au 22/8/1831), *R.H. Col. Fr.*, (1923), pp. 251-288.

— MZALI M.S., « La cession de Constantine et Oran à des princes tunisiens », *R.T.*, 1948, pp. 1-39.

ومن ابرز الامثلة على هذه المواقف السلبية لبايات تونس ، معارضتهم لثورة الامير عبد القادر (2) ، والحاج احمد باي ، وحركة الشريف محمد بن عبد الله (3) ، ومحي الدين بن الامير عبد القادر (4) ، وبن ناصر بن شهرة (5) ، والمقرانيين (6) ، والكبلوتي وصبايحية زمالات الحدود عام 1871 (7) ، وثوار انتفاضة الاوراس عام 1879 . (8)

ومما تجدر ملاحظته ان معارضة الرسميين التونسيين للمقاومين الجزائريين في عقدي الستينات والسبعينات ، تعود اساسا الى **الضغط** الفرنسي الذي كان شديدا ، وحادا ، وقويا عليهم وعلى بلادهم تونس ، فلم يجدوا بدا من الانسياق والانصياع لاهواء واطماع الفرنسيين . ويوضح مثل على ذلك موقفهم من الكبلوتي ، وصبايحية الحدود ، وبن ناصر بن شهرة ، ومحي الدين بن الامير عبد القادر ، والمقرانيين عام 1871 ، وما بعده .

واما تجاه الشعب التونسي ، فكان ايجابيا الى ابعد حد من ، 1830 ، الى معركة التحرير الكبرى والمظفرة في اول نوفمبر 1954 – 1962 .

في خلال مقاومة الحاج احمد باي ، والامير عبد القادر ، في الثلاثينات والاربعينات ، من القرن الماضي ، لجأ الى تونس عدد كبير من المقاومين ومنهم الشيخ محمد الحسناوي بن بلقاسم الحناشي ، الذي

---

(2) يحيى بوعزيز ، « مواقف بايات تونس من الامير عبد القادر وثورته » ، **الاصالة** عدد 23 (جانفي – فيفري 1975) ، ص 23 – 24 .

(3) يحيى بوعزيز ، « وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد عبد الله » ، **الثقافة** ، عدد 33 ، يونيو يوليو – 1976 ، ص 1,1 – 28 .

(4) يحيى بوعزيز ، « وثائق جديدة عن دور محيي الدين بن الامير عبد القادر في ثورة 1871 ، وعن موقف ابيه والسلطات التونسية منه » ، **الاصالة** ، عدد 38 ، اكتوبر 1976 ، ص 25 – 62 .

(5) يحيى بوعزيز ، «وثائق جديدة عن ثورة بن ناصر بن شهرة » ، **الثقافة** ، عدد 31 ، فيفري – مارس 1976 ، ص 39 – 48 .

(6) يحيى بوعزيز ، **ثورة 1871 دور عائلتي المقراني والحداد** ، الجزائر ، 1978 ص 471 و « وثائق جديدة عن موقف الامير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 » ، **الثقافة** ، عدد 39 ، يونيو – يوليو 1977 ، ص 105 – 117 .

(7) يحيى بوعزيز ، « مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871 » ، **الاصالة** ، عدد 60 – 61 ، اوت – سبتمبر 1978 ، ص 223 – 233 .

(8) يحيى بوعزيز ، « انتفاضة سكان الاوراس الغربية عام 1879 » ، **الاصالة** ، عدد 60 – 61 . اوت – سبتمبر 1978 ، ص 223 – 233 .

سعى يوسف الليقرو لاستعارته فلم يفلح (9) بفضل تأييد الشعب التونسي له ولامثاله من الرفاق . وبعد ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، وقيام الجيش الفرنسي بتخريب الواحة عن آخرها ، لجأ من نجا من الثوار والمقاومين الى نفطة ، وتوزر ، ونفزاوة ، باقليم الجريد التونسي (10) ، فآواهم السكان وقدموا لهم العون والمساعدة ، وفعلوا نفس الشيء مع الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه ، واتباع محمد بن بوختاش البراكني ، والشيخ الصادق الرحماني في الخنقة ، وبسكرة ، والمسيلة ، ومقاوس ، وبريكة ، ومعظم مناطق الهضاب العليا الشرقية خلال احداث ثورات 1851 – بحكم روابط الجوار والقربى ، والعرق ، والدم ، والتاريخ ، والمصير المشترك ، عبر العصور من غابر الازمان الى يومنا هذا . ففتح بلاده ، تونس للثوار ، والمقاومين الجزائريين ، وآواهم ، وحماهم ، وقدم لهم كل ما يمكن تقديمه من عون ومساعدة ، وتأييد ، رغم معارضة حكامه ، وذلك منذ حملة الاحتلال الفرنسية على مدينة الجزائر عام 1830 (11) ومع ثوار الزواغة وفرجيوة عام 1864 وما بعده (12) .

وكانت اكبر تظاهرة للثوار والمقاومين الجزائريين الى تونس ، صبايحية زمالات الحدود الشرقية ، والكبلوتي ، والمقرانيون ، وبن ناصر بن شهرة عام 1871 ، الذين وزعوا في عدة جهات من تونس خاصة بعروش دريد ، وقدمت لهم اسعافات ، ومساعدات مادية كالاغذية ، والخيام ، ولكنهم منعوا من القيام باي نشاط حربي ضد الفرنسيين الذين ضغطوا على الرسميين التونسيين حتى فرضوا عليهم اتخاذ ذلك الموقف السلبي واحيانا المعادي .

وعندما قدم محي الدين بن الامير عبد القادر الى منطقة الحدود ونفزاوة في مطلع عام 1871 اجتمع حوله عدد كبير من قدماء الثوار والمقاومين الجزائريين اللاجئين في تونس وطرابلس ، وشرعوا جميعا

(9) يحيى بوعزيز ، « جهود الامير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينة » ، **الاصالة** ، عدد 48 ، أوت 1977 ، ص 2 – 42 .

(10) يحيى بوعزيز ، « اضواء على انتفاضة سكان واحة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1849 » ، **الثقافة** ، عدد 32 ، ابريل – ماي 1976 ، ص 39 – 50 .

(11) يحيى بوعزيز ، « نماذج من مقاومة سكان الواحات » ، **الاصالة** ، عدد 41 ، جانفي 1977 ، ص 117 – 134 .

(12) يحيى بوعزيز ، «ثورة سكان الزواغة وفرجيوة والبابور ضد الاستعمار الفرنسي وقضية الحاج بن عز الدين » ، **الثقافة** ، عدد 40 ، اوغسطس – سبتمبر 1977 .

(13) Louis RINN(*Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie,* Alger, 1891, pp. 161-242.

في وضع الخطط لتنظيم حركة المقاومة والجهاد ضد المحتلين الغاصبين . ومن هؤلاء : الشيخ مصطفى بن عزوز مقدم الطريقة الرحمانية الذي قدم من واحة البرج بعد الزحف الاستعماري عليها عامي 1843 – 1844 ، وفتح زاوية الرحمانية بنفطة التي تحولت الى مركز وملجا لكل المهاجرين والمنفيين الجزائريين . وسليمان بن جلاب آخر سلاطين بني جلاب في تقرت الذي فر الى تونس منذ عام 1854 . وابراهيم بن عبد الله شيخ الطريقة الجيلانية بورقلة . ومحمد بن علاق زعيم اولاد يعقوب الاغواطيين . والشيخ محمد زروق بن سيدي صالح البسكري ، الذي قدم هو وابن هلال الكاتب السابق للامير عبد القادر ، مع محي الدين من طرابلس الغرب . وبن ناصر بن شهرة ، والشيخ الميزوني شيخ زاوية الكاف الذي زود محي الدين بكاتب خاص ليحرر له الرسائل الى الناس في مختلف الانحاء . (13)

وكان في امكان هؤلاء جميعا ان يقوموا بدور فعال لصالح المقاومة الجزائرية ، وكان الشعب التونسي على أتم استعداد لدعمهم ، وتأييدهم وتزويدهم بما يحتاجون اليه للمقاومة ، زيادة على الايواء ، والاستقبال . ولكن بايات تونس عارضوا كل نشاط لهم ، بسبب الضغط الفرنسي المسلط عليهم وضغط حكوماتهم عن مواجهة الصراع الاستعماري على البلاد التونسية .

وقد وضحنا ذلك في دراستنا عن مواقف بايات تونس ، ووزرائهم ، من ثورات : الامير عبد القادر ، وابنه محي الدين ، والكلبوتي ، وصبايحية الحدود ، وبن ناصر بن شهرة ، التي أشرنا اليهما في الهوامش السلبية . (14)

ولم يغير الشعب التونسي الشقيق موقفه المؤيد لكفاح الجزائر . ومن حسن الحظ للمقاومة الجزائرية ورجالها ، ان قيادة تونس ، وساستها ، في ثورة نوفمبر 1954 ، ليسوا من نوع قيادة وساسة تونس في القرن الماضي . وكان ذلك من ضمن عوامل النصر للجزائر .

مواقف الجزائريين من احتلال تونس عام 1881 :

ليس هناك ادنى شك في ان الجزائريين بمختلف فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية ، كانوا ضد الاحتلال الفرنسي لتونس ، رغم ان هذا الاحتلال انطلق من بلادهم . لانهم كانوا يعتبرونها وطنهم الثاني

(14) يمكن العودة الى كتابنا ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين** ، قسنطينة ، 198 ، 550 ص . والى كتابنا ، **كفاح الجزائر من خلال الوثائق** ، الذي هو تحت الطبع ، حيث استوفينا فيهما الحديث عن هذه المواضيع والمواقف .

الذي يلتجئون اليه عندما يطاردهم جيش الاحتلال من بلادهم ، ويرغمهم على الهجرة والتشرد .

وكان الفرنسيون على علم تام بهذا الموقف ، لانهم جربوا صمودهم وصلابتهم وعنادهم في المقاومة داخل الجزائر لمدة نصف قرن كامل من الزمن .

ولذلك عملوا على تحطيمهم تماما بمختلف الوسائل والسبل قبل اقدامهم على احتلال تونس ، حتى يؤمنوا ظهورهم . وكانت آخر ثورة مسلحة ضدهم في شرق الجزائر المجاور لتونس ، هي ثورة سكان جبال الاوراس الغربية عام 1879 التي استعمل فيها جيش الاحتلال الفرنسي أقسى وسائل البطش ، والزجر ، والارهاب ضد الثوار ، فقتل الكثير منهم ، وشرد الباقي ، وصادر أملاكهم بصفة جماعية ، وضغط على حكومة تونس التي سلمت له زعيم الثورة محمد أمزيان بن عبد الرحمان ، ورفاقه الذين التجأوا الى تونس ، وعددهم يزيد على الخمسين شخصا ، فحوكموا خلال ربيع عام 1880 ، وصدرت ضدهم أحكام قاسية وجائرة بالاعدام ، والسجن المؤبد ، والنفي داخل البلاد وخارجها ، وبالمصادرة الجماعية لاملاكهم العقارية والمنقولة .

ولا يخفى ان من بين أسباب حرص الفرنسيين على احتلال تونس ، هو اضعاف روح المقاومة بالجزائر ، واحتواء زعمائها الذين لجأوا اليها حتى يطمئنوا لمستقبل بقائهم بالجزائر التي يعتبرونها أرضا فرنسية بمقتضى القوانين والتشريعات المختلفة التي بدأت تصدر منذ عام 1834 .

وعندما بدأ الفرنسيون يفكرون في احتلال تونس بصفة عملية ، عملوا على حماية ظهورهم بالجزائر ، فاستعملوا القسوة ، كما ذكرنا في مقاومة الثوار الجزائريين وفرضوا مراقبة واسعة وشديدة على كل الجزائريين الذين يشكون في اخلاصهم ويتوجسون خيفة منهم حتى في غرب البلاد كما فعلوا مع أفراد أسرة الشيخ السنوسي ببوقيراط قرب مستغانم الذين لهم صلات بأبناء عمومتهم في ليبيا ، ولهم نفوذ قوي على سكان معظم الواحات الصحراوية بالجنوب . (15) ولم تكن انتفاضة الشيخ بوعمامة التي اندلعت بالغرب

(15) اشار الى هذا تقرير لعامل وهران عثرنا عليه في ارشيف مكتبة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران .

الوهراني خلال شهر أبريل 1881 ، بعيدة عن أحداث الاحتلال الفرنسي لتونس (16) ، لان مستشاري الشيخ بوعمامة ، ألحوا عليه في الاقدام على اعلان الثورة بعد ان شاهدوا رحيل معظم القوات الفرنسية الى تونس للمشاركة في احتلالها ، ورأوا ان الفرصة مناسبة لنجاحهم ، بينما كان الشيخ بوعمامة قد حدد توقيتها بنهاية شهر جوان ، حيث يكون الفلاحون وهم العنصر الاساسي في ثورته ، قد انتهوا من جمع محصولاتهم الزراعية . وقد عاد الى رأيهم وقرر اعلانها في أوائل شهر ماي ، ولكن مقتل الضابط وانبرونو : Veinbreumer يوم 22 أبريل 1881 عجل باندلاعها في هذا التاريخ . (17)

نماذج من مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي عام 1881

كان الجزائريون غاضبين من الاحتلال الفرنسي لتونس ، مثل اخوانهم التونسيين ولربما أكثر ، لان تونس بالنسبة اليهم ، كما ذكرنا سابقا ، تمثل الوطن الثاني ، والملجأ الوحيد الذي يلتجئون اليه عندما تعوزهم وسائل المقاومة ، او يحتاجون للعدة ، والاستعداد . وقد تم هذا فعلا طوال نصف قرن من الزمن ، من عام 1830 الى عام 1880 م .

ولما كان الفرنسيون ، كما ذكرنا سابقا ، يدركون هذا الموقف من الجزائريين ويعرفون مدى صلابتهم وعنادهم في المقاومة ، وينوقعون

(16) عن حركة الشيخ بوعمامة وتأثيرات احتلال تونس في انتفاضاته ، يمكن العودة الى كتابنا ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين** المشار اليه سابقا ، ص 245 – 256 ، والى المصادر الفرنسية التالية :

— ALGERIE, « Bou-Amama », *Bull. Com. A.F.*, 1896, pp. 43-44.

— BERNARD (Aug), « Bou-Amama », DIP. Col., 1901, T. XI, pp. 622-626.

— KIVA, « Un marabout Algérien Bou-Amama », *R.T.*, 1889, T. V., pp. 701-709.

— E. GRAULLE, *Insurrection de Bou-Amama,* avril 1881, Paris, 1905, 132 p.

— Le Commandant P. WACHI, *En Algérie. Notes itinéraires et souvenirs pour servir à l'histoire de la Province d'Oran.*
Insurrection de Bou-Amama 1881-1882, Tunis, 1902, 81 p.

GRAULLE, pp. 13-23 (17)

اشتراكهم مع التونسيين في مقاومة احتلالهم لتونس ، فقد عملوا على تقليم أظافرهم وقهرهم ، قبل انجاز حملة الاحتلال عام 1881 ، وسلطوا ضدهم كل مظاهر القهر ، والاذلال ، والتحطيم ، والتقتيل ، والتشريد ، والمصادرة الجماعية لاراضيهم ، وأملاكهم المنقولة . وبذلوا كل ما يستطيعون لقتل روح المقاومة في نفوسهم ، بأساليب تطفح الحقد والكراهية ، والعنصرية وكان انتقامهم من ثوار ثورة سكان الاوراس الغربية عام 1879 ، نموذجا لهذه السياسة العنصرية الانتقامية الرهيبة .

وقد اعتقدوا انهم بهذه السياسة ، وهذه الاساليب الزجرية القاسية سوف يحولون دون مشاركة الجزائريين في مقاومة الاحتلال الفرنسي لتونس ولكن اعتقادهم هذا كان خاطئا . والذي حصل هو العكس تماما اذ أعلن الجزائريون غضبهم ، وحملوا السلاح مع اخوانهم التونسيين في مختلف جبهات القتال والمقاومة على طول منطقة الحدود ، وفي أعماق البلاد التونسية ، وداخل الجزائر نفسها ، في اطار اشغال جزء من القوات الفرنسية بها ، وعرقلة الغازية منها داخل تونس ، لتمكين اخوانهم التونسيين من الكر والفر ، والضرب بحرية ، ونفس طويل .

وسنحاول فيما يلي ان نلخص بعض النماذج من هذه المقاومة ، معتمدين على جريدة المبشر التي كانت الجريدة الرسمية للسلطات الفرنسية وادارتها الاستعمارية بالجزائر .

ففي خلال شهر جانفي 1881 ، وبينما الفرنسيون يستعدون لانجاز حملة الاحتلال على تونس ، قام سكان منطقة الحدود بعنابة وسوق أهراس ، بحملة واسعة لاقتناء الأسلحة ، والبارود ، وتعاون معهم الجزائريون اللاجئون بتونس خاصة بعرش وشتاتة ، وذلك تحسبا للمشاكل ، واستعدادا للحوادث المقبلة التي كانوا يتوقعونها . فتخوف الفرنسيون من ذلك ، وعملوا على مقاومة العملية وتدخلوا لدى حكومة تونس بباردو ، وحثوها على وضع حد للاتجار بالاسلحة والبارود داخل تونس ، خاصة في أوساط الجزائريين ، وهددوها الامر وعاقبته السيئة (18) .

وفي خلال شهر فيفري ومارس ، لوحظ كذلك كثرة اقتناء الجزائريين للأسلحة داخل تونس ونقلها الى الجزائر ، فأنشأت السلطات الفرنسية

(18) المبشر ، يوم 29 جانفي 1881 .

فرقا خاصة على طول منطقة الحدود لمقاومة العملية ، ودفعت عملاءها لاثارة المشاكل مع التونسيين لتجد الفرصة للتدخل ، وضغطت على الحكومة التونسية حتى أرغمتها على تنظيم لقاء معها في ذراع خرون (أو خروم) للفصل في تلك المشاكل التي أثارها عملاؤها (19) .

وفي خلال شهر أبريل اشترك الجزائريون اللاجئون بتونس مع اخوانهم التونسيين في مقاومة الغزو الفرنسي لجزيرة طبرقة ، وجبال خمير ، ووشتاتة ، والفراشيش ، وبني مازن ، واستغل الجزائريون في منطقة الحدود ، اشاعة خروج الكبلوتي من سجنه بحلق الوادي في تونس . فأخذوا يتسلحون ، ويكونون فرقا وكتائب لاستئناف المقاومة التي كان قد قام بها عام 1881 مع صبايحية زمالات بوحجار ، والطارف ، وعين قطار ، فتخوف الفرنسيون من ذلك ، وأجروا اتصالات سريعة مع حكومة تونس التي أكدت لهم عدم صحة خروج الكبلوتي من سجنه (20) .

وفي خلال شهر ماي دخل عدد من المهاجرين الجزائريين من نفطة ، ونفزاوة الى الجزائر ، بالاسلحة والبارود ، واستقروا بأولاد سلطان في الأوراس وكان من بينهم الحاج خلف ، ومبارك بن سعيد ، ونظموا مقاومة منسقة مع زملائهم بتونس ، وخلقوا جوا من الرعب ، والفزع ، للسلطات الفرنسية رغم مقتل الحاج بن خلف (21) .

وفي خلال شهر جوان ، دخلت عدة قوافل من الجزائريين بالأسلحة والذخائر من تونس الى الجزائر ، لتزويد زملائهم المقاومين ودعمهم وتمكن الفرنسيون من أسر جملين محملين بكمية 330 كلغ من البارود ، وأسروا امرأة ثبت أنها زوجة يونس الشعباني الثائر ، والملاحق من طرف جيش الاحتلال الفرنسي .

وظهر دعاة جزائريون وتونسيون فيواحات وادي سوف ، ووادي ريغ ، وتقرت يحثون الناس على حمل السلاح لمقاومة جيش الاحتلال الفرنسي ، وعلى تقديم عون للمكافحين التونسيين بتونس ، فاضطرت السلطات الفرنسية الى فرض مراقبة وحراسة شديدة على منطقة الحدود من القالة وعنابة شمالا الى ما وراء تبسة جنوبا ، وبثت عملاءها في الواحات الجنوبية ليتصدوا لهؤلاء الدعاة «النشيطين الذين نعتتهم « بالمشوشين » كعادتها .

(19) المبشر ، يوم 16 فيفري ويوم 2 ابريل 1881 .
(20) المبشر ، يوم 9 ويوم 30 ابريل 1881 .
(21) المبشر ، يوم 7 ويوم 28 ماي 1881 .

ورغم أن الفرنسيين اعتقلوا شخصين في عين ببوش ، كانا يحثان الناس على حمل السلاح ، وينشران أخبار هزائم الجيش الفرنسي بتونس ، والجزائر الا ان جزائريين آخرين دخلوا من تامغزة الى الجزائر بالأسلحة ، واتصلوا بالمقاومين الآخرين ، وحدثوهم عن انتصارات مجاهدي تونس في القيروان ، وصفاقس ، وعملوا على تحقيق تنسيق بين مقاومي الجزائر وتونس لاحكام حصار على قوات جيش الاحتلال في البلدين معا . واشتراك عدد من الجزائريين في معارك وشتاتة . فأسر الفرنسيون البعض منهم ، وأرسلوهم الى سوق أهراس لمحاكمتهم وتطبيق العقاب عليهم (22) .

وازاء اشتداد مشاركة الجزائريين في المقاومة المسلحة بتونس وكثرة اقتنائهم للأسلحة داخل الجزائر تخوف الفرنسيون كثيرا ، وتوقعوا نشوب معارك واضطرابات وانتفاضات فحشدوا ثلاثة عشر ألف جندي في مدينة تبسة قرب الحدود ، خلال شهر جويلية ، ووضعوا مشروعا لاكتساح كل مناطق عمالة قسنطينة بالجزائر ، ومنطقة القيران بتونس ، لتتبع الثوار والمقاومين ، والقضاء على نشاطهم (23) .

وانتشرت بغرب الجزائر خلال شهر اوت ظاهرة اقتناء الخيول ، والأحصنة بالاسعار المرتفعة في اسواق : الاصنام ، وغليزان ، وزمورة ، وعمي موسى ، وعين تيموشنت . لاستعمالها في المقاومة مع بوعمامة ، تضامنا مع المقاومين بتونس في شرق البلاد . فحققت السلطات الفرنسية في الامر . وعملت على مقاومة العملية ووضع حد لها .

وحدثت اضطرابات ، وتشويشات ، وقلاقل في المناطق الوسطى من البلاد بسبب احداث تونس شرقا ، واحداث بوعمامة غربا وظهر عدد من الدعاة والمبشرين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي في تيارات ، والسرسو ، والشلالة ، وثنية الحد . وتنقلوا في الجهات الشمالية ، والواحات الصحراوية الجنوبية ، ليبشروا بهزائم الجيش الفرنسي في تونس ، وقرب خروجه وطرده منها ومن الجزائر معا .

وتدعمت حركة هؤلاء الدعاة بنشاط جماعة « المدقانا » في عين صالح ومختلف الواحات الصحراوية التي بدات نشاطها ومقاومتها للغزو

(22) **المبشر** ، يوم 11 ويوم 28 جوان ، ويوم 2 جويلية 1881 .
(23) **المبشر** ، يوم 30 جويلية 1881 .
(24) Le CHATELIER, *Les Medaganat*, Alger, 1888, 180 p.

والتوسع الفرنسي الى الجنوب منذ حوالي عام 1860 . وكان من ضمن زعمائها في عقد الستينات ، بن ناصر شهرة ، والشريف بوشوشة (24) .

وقد تعاون هؤلاء الدعاة والزعماء مع ثوار الشيخ بوعمامة في الغرب الوهراني ، وكانوا مصدر خوف وقلق للسلطات الفرنسية والجيش الفرنسي الذي غزا تونس ، وشرع في التوسع الى اعماق الصحراء .

وفي الحراكتة بالاوراس ظهر داعية آخر اعلن للناس عن قرب اعلان الجهاد ضد النصارى المحتلين في كل من تونس والجزائر ، ووصل تأثيره الى واحات وادي سوف ، وقرى الحدود ، مثل نقرين ، وتينوكله ، والواد ، وزريبة الوادي .

وتضامن المهاجرون الجزائريون في وشتاتة ، والفراشيش ، والهمامة ، والجريد ، ونظموا حركة جهاد واسعة مع اخوانهم التونسيين ، وأكثروا من اقتناء الأسلحة ، والبارود ، والخيول ، والجمال ، والأحصنة ، ولوازم الحرب الأخرى لاستعمالها في حركة الجهاد والمقاومة بتونس والجزائر معا (25) .

فتعقدت الأمور على جيش الاحتلال الفرنسي في البلدين معا .

ومن الطرائف أن شيخ زاوية الهامل محمد بن بلقاسم بعث رسالة الى أحد أتباع الطريقة المختارية الرحمانية يحثه فيها على عدم اتباع بوعمامة وأنصاره ويذكره بخدمات أبيه للفرنسيين (26) .

وفي خلال شهر سبتمبر بلغ الغضب أشده لدى الجزائريين في عدة جهات من البلاد ، كرد فعل للاحتلال الفرنسي ، ولما ارتكبه المحتلون الغاصبون ضد المجاهدين والمقاومين التونسيين بتونس . ففي منطقة تبسة نظم الجزائريون عملية تزويد واسعة للمقاومين التونسيين بالأحصنة ، في توزر ، ونفطة ، ونفزاوة ، ليستعملوها في المقاومة ضد جيش الاحتلال الفرنسي .

وفي جبال جرجرة دعا شيخ زاوية علي أوموسن بالمعاتقة ، في ذراع الميزان الى الجهاد والمقاومة ضد الفرنسيين ، تضامنا مع الاخوان المكافحين بتونس ووجدت دعوته صدى واسعا ، فانتقم الجيش الفرنسي منه بتخريب زاويته وتسليط القتل والتشريد على اخوانه وأتباعه . وفي الشعانبة ،

(25) **المبشر** ، يوم 20 اوت و 27 اوت 1881 .
(26) **المبشر** ، عدد يوم 3 سبتمبر 1881 .

والقليعة ، بالجنوب تجند الناس للكفاح مع بوعمامة ، كرد فعل للاحتلال الفرنسي لتونس وأعمال التخريب التي يقوم بها المحتلون في كلا البلدين وفي عمالة قسنطينة قام الناس باشعال الحرائق في الغابات ، ورفضوا المشاركة في اطفائها ، وظهرت مجموعات مسلحة للمقاومة في أولاد سلطان ، ومشكيانة ، وواد زناتي ، وبرج بوعريريج ، وتاقينوت ، وأقبو ، وغيرها وذلك تضامنا مع المقاومين بتونس والغرب الوهراني . وكان البعض من هؤلاء المسلحين قد عادوا من تونس التي نفوا أو هاجروا اليها بعد ثورة 1871 وعملوا على تجديد العمل المسلح بعد ان غزا الجيش الفرنسي تونس . ويبدو أن عودتهم بتنسيق مع المقاومين بتونس جزائريين وتونسيين .

وحتى سي عزيز بن الشيخ الحداد ، أحد زعماء ثورة 1871 الذي كان منفيا بنوميا في كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي ، أرسل رسائل كثيرة الى أصدقائه ، وأتباع أبيه ، في مناطق البابور ، وبجاية ، وسطيف ، قيل انه يحث فيها الناس على حمل السلاح لمقاومة الفرنسيين المحتلين ، تضامنا مع الاخوان الاشقاء بتونس . غير ان محرر جريدة المبشر ذكر انه اطلع على ثلاث بطاقات من هذه الرسائل ، ووجدناها : «وجيزة الصورة والمعنى ، بل فيها نصائح مفيدة للمسلحين » (27) .

وعثر الفرنسيون على رسائل وبطاقات صادرة من زاوية المقدم سيدي ابراهيم بنفطة ، المشهور بعدائه للمحتلين الفرنسيين يحث فيها الناس على حمل السلاح للجهاد والمقاومة . ووصلت هذه البطاقات والرسائل الى تقرت بواد سوف (28) .

وخلال شهر أكتوبر ، انتشرت اشاعات قوية لدى سكان تبسة ومنطقتها تفيد بان جيشا عثمانيا نزل بتونس لتحريرها من جيش الاحتلال الفرنسي . وقدم متطوعون جزائريون كثيرون من طرابلس الى تونس لمشاركة اخوانهم في مقاومة جيش الاحتلال الفرنسي الغازي (29) .

وعندما شاع ببلاد القبائل خلال شهر نوفمبر خبر فرار الشيخ عزيز من منفاه بكاليدونيا الجديدة ، تجددت فكرة الجهاد ، والعودة الى الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي ، فأخذوا يقتنون الأسلحة والذخائر . وكان الشيخ عزيز قد فر من منفاه بنوميا خلال شهر ماي 1880 الى

(27) **المبشر** ، يوم 3 و 24 سبتمبر 1881 .
(28) **نفس المصدر** .
(29) **المبشر** ، يوم 22 اكتوبر 1881 .

سيدني بأستراليا ومنها الى جدة بالحجاز ، ولكن السلطات الفرنسية منعته من العودة الى الجزائر (30) .

وحتى سكان وادي ميزاب تحفزوا هم الآخرون للمقاومة بسبب تأثير أحداث احتلال تونس ، وانتفاضة الشيخ بوعمامة . فقام سكان مدينة بريان بقتل شيخهم الحاج ابراهيم بن جريبة الذي كان يميل الى سلطات الاحتلال الفرنسية . ونظم الشعانبة دوريات مسلحة في الواحات والقليعة ، ونفزاوة ، وغيرها ، واهتموا بشراء الاسلحة والذخائر ونشر أخبار المقاومين بتونس والجنوب الوهراني وأعماق الصحراء لحفز الناس على المقاومة وحمل السلاح .

وعمل التوارق في أزجر ، والهقار ، على فسخ الاتفاق الذي حصل بينهم وبين الفرنسيين من سنوات طويلة ، خاصة بعد مقتل الضابط فلاتر ورفاقه في مطلع عام 1881 .

وقام سكان عين صالح بتحصين قصورهم حتى لا يفاجئهم الفرنسيون بعد أن اتسعت حركة المقاومة في الواحات الجنوبية .

هكذا كانت الجزائر مسرحا للاضطرابات والقلاقل ، والعمليات العسكرية طوال عام 1881 كرد فعل للاحتلال الفرنسي لتونس . وهكذا عبر الجزائريون عن غضبهم ونقمتهم من هذا الاحتلال ، وشاركوا اخوانهم بتونس في العمليات العسكرية المتعددة في مختلف جبهات القتال شمالا ، وغربا ، وشرقا ، وجنوبا ، رغم انعدام الامكانيات ، ورغم الزجر الكبير الذي كان مسلطا عليهم من طرف الادارة الفرنسية الاستعمارية الغاشمة وليس ذلك فضلا منهم ، وانما هو واجب مقدس أملاه عليهم الضمير الوطني والمصير المشترك ، وهي صورة حية للتضامن الكبير والوثيق ، الذي كان ، وما يزال ، قائما بين الشعبين والبلدين ، من أقدم العصور حتى اليوم .

د. يحيى بو عزيز ،
جامعة وهران ،
الجزائر .

(30) للمزيد من التفاصيل عن حياة الشيخ عزيز انظر كتابنا ، **ثورة 1871 دور عائلتي المقراني والحداد** ، الجزائر ، 1978 ، ص 262 و 335 - 345 .

استقلالية المقاومات بالمغرب العربي : دور المدن بالجزائر في العقد الثامن (من القرن التاسع عشر)

بعد ما احتلت فرنسا مدينة الجزائر في 5 جويلية 1830 ، قضت عدة عقود لهضم ذلك الاحتلال الذي مهد لاحتلال المغرب العربي باكمله ، كما قيل مرارا وتكرارا . وبعد احتلال مدينة الجزائر بحوالي نصف قرن احتلت الجيوش الفرنسية مدينة تونس . ولقد أثار انتصاب القوات الفرنسية بالايالة التونسية معارضات مختلفة في جميع أنحاء البلاد كما أثار عدة تساؤلات على الصعيد التونسي وعلى الصعيد المغربي أيضا .

ويبدو أن ذلك التدخل لم يثر أي رد فعل هام بالجزائر المجاورة أو بالمغرب الاقصى البعيد ، سواء في الارياف او في المدن . فهل يمكن لنا أن نستغرب مثل هذا الوهن ؟ وبدون أن ادعي الاجابة عن ذلك السؤال ، سوف أقتصر على تقديم بعض الملاحظات التي تهم أولا وقبل كل شيء الجزائر وبصورة ثانوية جدا المغرب الاقصى .

وتتعلق الملاحظة الاولى بنوعية المقاومة وأهميتها ازاء الجيوش الفرنسية .

ويمكن أن نعتبر بصورة عامة أن جميع المقاومات قد هزمت قبيل حرب سنة 1870 في منطقة التل الجزائري وكذلك في المناطق الجبلية ومناطق الهضاب العليا . ولا شك أن اولاد سيدي الشيخ مازالوا آنذاك يشغلون بال حكومة الجزائر في تخوم الصحراء ولكنهم لم يتمكنوا حتى ذلك التاريخ من زعزعة السلطة الفرنسية بصورة جدية . والواقع أن الجيوش الفرنسية قد « داست » الأرياف الجزائرية (حسب تعبير بوجو) . وسوف لا أعود الى أساليب « التهدئة » التي استعملها بوجو وبيليسيي ومن لف لفهما . ذلك

ان جميع الشهادات متفقة على ان الحديد والنار قد سلطا على القبائل التي لا تريد الخضوع للقانون الأجنبي . أما القبائل التي رفضت الاستسلام أو التقتيل فلم يكن أمامها الا حل واحد ألا وهو مغادرة « بلاد الحرب » والهجرة الى أماكن أخرى بدار الاسلام سواء في تونس أو في المغرب الأقصى . ذلك أن تلك المقاومات قد أبادت الريفيين وقضت على أملاكهم وأرواحهم . ونحن نتذكر التحقيق الاداري الذي قام به السيد ياكونو ، وقد استعملته بالنسبة لمنطقة قسنطينة : حيث تبين أن السكان الجزائريين لم يرجعوا الى المستوى الذي كانوا عليه في سنة 1830 الا خلال العشر سنوت أو الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر . ذلك ان حرب المقاومة الطويلة التي خاضها الجزائريون منذ نزول الجيوش الفرنسية ببلادهم قد أصابت جميع المناطق الجزائرية وأفقدت الريفيين قسما كبيرا من اطاراتهم المحلية وبالخصوص أشدهم حماسا في الكفاح . أما الآخرون ، أي الذين مازالوا على قيد الحياة ، فقد فقدوا الأسس التي ترتكز عليها قوتهم ، وذلك بمفعول التدابير الادارية الجديدة ، ومن بينها المرسوم المؤرخ في أفريل 1963 والمتمم بقانون جويلية 1873 المعروف باسم قانون فارنيي (Warnier)

وأصبح المسؤولون الريفيون الجدد الذين يطلق عليهم الجزائريون اسم « الرعاة » في قبضة الادارة الفرنسية ولم يكن لهم أي نفوذ على منظوريهم الذين لا يستطيعون الا الامتثال اليهم على أقصى تقدير . وتعتبر السنوات 70/90 بالنسبة للفلاحين الجزائريين أسوأ فترة ، ولو أنها كانت تدور تحت شعار السلم الفرنسية . ذلك أنه بعد ثورة 1871 التي أخمدها دي غيدو بدون شفقة لم تكن الثورات التي اندلعت في سنة 1879 بالأوراس وبمنطقة أولاد سيدي الشيخ ، بقيادة بوعمامة في سنة 1881 ، لم تكن سوى انتفاضات محصورة . حيث لم تتحرك بقية المناطق الجزائرية الأخرى . وهكذا فقد اكتست مقاومات الجزائريين صبغة ريفية أولا وقبل كل شيء .

وكيف كان موقف المدن ؟ لئن قاوم الجزائريون في المنطقة الفاصلة بين سيدي فرج ومدينة الجزائر ، فلا شيء يدل على وجود أي أثر للمقاومة في المدينة ذاتها . ولم يتأخر مختلف شهود العيان عن الاشارة لذلك . وأكبر دليل على ذلك أن عدة آلاف من الجنود الاتراك الذين تتكون منهم حامية الجزائر ، قد غادروا المدينة مع حسين . وبعد استسلام عاصمة الجزائر واحتلال عدة مدن أخرى لم يبق للفرنسيين الا احتلال قسنطينة . ونحن نعلم كيف كان مصير الحملة الاولى التي انطلقت من عنابة في خريف سنة 1836 . حيث أن انهزام الجيش الفرنسي

وتقهقره قد دفعا أحمد باي وأهالي قسنطينة الى اقرار العزم على المقاومة . وبعد ذلك بسنة وبعد وصول الفرنسيين الى المدينة ، دافع السكان عن مدينتهم دفاعا مستميتا . واضطر الجيش الفرنسي الذي يقوده دامريمون ثم دي فالي الى القتال في الشوارع وحتى داخل البيوت . وهنا ، خلافا لما وقع في عاصمة الجزائر وفي بقية المدن الجزائرية الاخرى ، بذل أهالي قسنطينة كل ما وسعهم لاقصاء الفرنسيين . وهكذا فان مقاومة هذه المدينة تعتبر فريدة من نوعها في تاريخ احتلال الجزائر ، باستثناء مقاومة الأغواط فيما بعد . هذا ولئن ساعدت الطوبوغرافيا على الدفاع عن تلك القلعة ، فان أهالي قسنطينة قد أقروا العزم بصورة واضحة على المقاومة . وابتداء من ذلك التاريخ الى اندلاع حرب الجزائر انعدمت عمليا في المدن المقاومة الصريحة للسلطة الفرنسية . الا ان ذلك لا يعني طبعا عدم وجود أية مقاومة في المدن وأن السكان قد خضعوا للسلطة الفرنسية . ولكننا نلاحظ ركود المدن بصورة تكان تكون مطلقة في حين لم يترك الريفيون أية مناسبة للمقاومة . وهكذا فبينما كان الأمير عبد القادر يجمع الجنود من حوله ويفرض على بوجو حربا طويلة ، لم يظهر سكان وهران والجزائر ولاسكان المناطق الداخلية أنهم معنيون بتلك الحرب (1) . والجدير بالملاحظة اكثر من ذلك سلوك المدن الواقعة بمنطقة قسنطينة أثناء ثورة المقراني . فانها لم تبد أي تشجيع للمقاومين ولم تسجل أية حركة لا في مدينة قسنطينة ولا في مدن سطيف وبجاية ، والقل ، ومن ناحية أخرى اذا وجدت عائلة من عائلات الأعيان نفسها وسط المعركة وارادت التخلص بلباقة فانها تسرع الى أقرب مدينة لمنطقتها وتلتجيء اليها بعيدا عن الثائرين . واننا نجد عدة شهادات في ملفات الحراسة القضائية لاقامة الدليل للادارة الفرنسية على أن المعنيين بالأمر بعيدون عن الثورة . فالانتماء الى المدينة أو الاقامة بها يدل دلالة واضحة على عزيمة الابتعاد عن الثائرين . كما أن له بدون شك دلالات أخرى .

فمن ناحية أولى ماذا كان يمثل سكان المدن بالنسبة لمجموع السكان المسلمين بالجزائر في الثمانينات ؟ انهم كانوا يعدون 226،000 نسمة في سنة 1880 ، حسب براي (2) أي 6،9% من مجموع السكان . وهذه النسبة لاتفوق الا بقليل نسبة سكان المدن في سنة 1830 وهي أقل بكثير من النسبة المماثلة بتونس أو بالمغرب الأقصى في نفس الفترة .

(1) دانزيجار (Danziger) عبد القادر والجزائريون ـ نيويورك ـ لندن 1977

(2) براي (Breil) ـ سكان الجزائر ـ باريس 1957 .

وهـذه الارقـام تستحق التعليق . ذلك ان جميـع الملاحظين قـد أشاروا ابان الاحتـلال الى مغادرة عـدة آلاف من الجزائريين بمحض ارادتهم للمـدن التي كانـوا يعيشون فيهـا الى حـد ذلك لتاريخ . ففي مدينـة الجزائر كمـا في مدينتـي قسنطينة أو وهران غـادرت عائـلات بأجمعها اطارها التقليدي الذي أصبح « دار حرب » . ويمثل ذلـك السلوك مظهرا من مظاهر الاحتجاج على الاحتـلال الفرنسي أو مقاومته . فكم دامت تلـك الهجرة الاختيارية ؟ لا تسمح لنـا أيـة وثيقة بالاجابة عن هذا السؤال . وكل مـا في الامر ان الهجـرة من « دار الحرب » الى « دار الاسلام » تعني أن المتمسكين أكثر بالاستسلام قـد هاجـروا الى أماكن أخـرى . ونتيجة لذلك فقـد تضاءلت القـدرة الاسلامية على المقاومة في المـدن . ولم تسلم أيـة مدينة جزائرية من هـذه الظاهرة سـواء المـدن الصغرى أو المتوسطة وسواء العواصم أو غيرها . ويبدو أن ظاهـرة الرجوع لى المدن قـد بدات تسجل اعتبـار من السنوات 45/40 . حيث ارتفـع عدد السكان الذين أمكن تعدادهم ارتفاعا محسوسـا بسبب النزوح على وجه الخصوص . فهل يـدل هذا الرجوع على اعتراف سكـان المـدن بالاحتـلال الفرنسي ؟ أم هل أن امتـداد الحرب بالارياف قد أجبـر السكـان على الرجوع الى المـدن التي هي تحت السلطـة الفرنسية والتـي تمثل شواطيء السلامة ؟ فلعل هذيـن السببين متلازمـان . ومهمـا يكـن من أمـر فان المـدن التي رجعوا اليهـا تختلف كل الاختلاف عن المـدن التي غادروها منـذ عهـد قريب .

فالجديـر بالملاحظة اولا أن الممتلكات التي تركها الراحلـون مـدة تفـوق الثلاثـة أشهر قـد صودرت وحجزت وألحقت بأملاك الدولة . ومن ناحيـة أخـرى فان انتصاب الفرنسيين قـد اسفر عن افتقار الأهالي بسبب التضخم المالـي الـذي صاحب الاحتلال الفرنسي ، كمـا أسفر بالتالي عن ارتفـاع الاسعار وتدهـور الصناعات التقليدية (3) وبناء على ذلـك فقد تزعزعت بصـورة عميقة الأركان الاقتصادية لاستقلالية الأهالي واستمرت على ذلـك الحال فيما بعد . فقائمـة التجار الدافعين لضريبة ممارسـة المهنـة تـدل على أن الفرنسيين أصبحوا يمسكون بمقاليد التجارة والنشـاط بالمـدن وأن الجزائريين يحتلون المرتبة الدنيـا وأنهم تابعون للنظـام الجديد . ومـن المعلـوم أن « الأمبراطورية « الثانية » تمثل الفترة التي رسخ فيهـا النظـام الاقتصادي الجديد أكثر فأكثر بالجزائر التقليدية . وتمثل المـدن من هـذه الناحية نقط الارتكاز بالنسبة للنظـام الرأسمالي الفـرنسي ونقط الانطـلاق

(3) راجـع « نـوشي » (عـالم الشغل في النصف الاول من القرن التاسع عشر) ـ نـدوة بنـدور ـ 197 .

لاحيـاء البـلاد . فهل ساهم سكان المـدن الجزائريون بوصفهم مشاركيـن في النظـام الرأسمالي التجـاري أو المالـي أو الصناعي بالمـدن ؟ كـلا . حيث أننـا لا نجـد أبـدا أسماءهم ضمـن المقاولين الذين يتصرفـون في القـرارات الاقتصادية . ولا يـوجد من بينهم أي مصرفي ولا أي « صناعي » ولا أي « اطار » كمـا نقول اليـوم . ويرجـع ذلك الى أسباب مختلفة : أولها أن اقتصاد البلاد يرتكز على أسس تختلف عن الأسس التي كانت قـائمـة في سنـة 1830 . حيث أن الجزائريين لم يتعودوا عليها وثانيها أن الجزائريين الـذين يشكلون العناصر الناشطة ـ أي الذين تتراوح أعمارهم بين 30 و 60 سنـة ـ قـد ولدوا فيمـا بين 1820 و 1850 ، فهم لـم يكتسبوا القواعـد الثقافيـة الضروريـة لاحتـلال مركز ضمـن النظام الفرنسي . ومن ناحيـة أخـرى فقد أعلن نابوليون الثالث بصريـح العبارة في رسالته الى الوالي العـام في سنة 1863 مـا يلي : « الى الأهالي ترجع تربية الخيول والماشيـة والزراعات الطبيعيـة . ويرجـع الى نشـاط وذكـاء الاروبيين استغـلال الغابـات والمناجم وعمليات التجفيف والـري وادخـال الزراعـات المتقنـة وتوريـد تلـك الصناعات التي تسبق أو تصاحب دائما تقدم الزراعة » .

فـلا يمكن حينئذ للجزائريين التحكـم في الاقتصـاد الجديد المقـام على التبـادل النقدي والربح والمـال . الا انـه بنـاء على اقامتهم بالمـدن لا يمكنهم فحسب تجاهل ذلك الاقتصـاد بل انهم مندمجون فيـه باعتبارهم مستهلكيـن ومنتجين . ففـي مستوى الانتاج تـم القضاء على النظام القديـم للتجمعات الحرفية بالمـدن الجزائرية كمـا زال الاقتصاد التقليدي من المدن . ومعنى هـذا التفكك وتركيز النظـام الاقتصادي الجديد ، بالنسبة للمجتمـع الحضري ، التزعزع والتفكك . فانقرضت ظواهر التضامـن القديـم أو هي في طريـق الانقراض المتقـدم للغايـة والـذي لارجعة فيـه . وانفلتت السلطة من قبضة ذوي النفـوذ الأسبقين وأصبح « كل أحـد يعمل لنفسه » . ذلـك هـو المبدا الاساسي الجديـد . وصـار انتزاع ملكية العالم القديـم واقعـا معاشا كل يـوم ومفروضا كل يـوم من طرف المحتلين الفرنسيين . تضـاف الى ذلـك وقائع أخرى : فالجزائر تجتاز من سنـة 1866 الى سنـة 1870 أزمة خطـرة جـدا ، وهي أخطـر أزمة شهدتها الفترة المعاصرة وجعلت من الطاقات الاقتصادية للجزائريين الأغنياء او الفقراء شيئـا لا قيمـة لـه . وقد حاولت أن أظهر ذلـك في بحث آخـر (4) . وتضاف الى تلك الأزمـة الريفية أولا وبالـذات الأزمة التي تتخبط فيها الجزائر منـذ 1875/1873 والمرتبطة بأزمـة اقتصادات أروبـا القارية التي دامت عمليا الى أواخـر القرن . ونحن نعلم

(4) راجـع نوشي : تحقيـق حـول مستوى العيش . . .

من ناحيـة أخـرى إن الفلاحين الجزائريين يقاسون من قانون المعمرين خـلال السنوات الاولى من الجمهورية الثالثة : فقد أصيب الريفيون بالفقر من جراء الحراسـة القضائية فيمـا بعـد سنة 1871 والضرائب المعبر عنهـا بضرائب الحـرب ثم الضريبة المالية الباهظة بعنوان المساهمة الاستثنائيـة في جبـر أضـرار الحرائق التي اشتعلت بالغابات من 1880 الى 1885 (5) وفي الجملة فـان الاقتصـاد الفـلاحي الجزائـري قـد شهـد من سنـة 1866 الـى سنـة 1895 أزمـة ظرفية وهيكلية عميقة . والحـال ن الاقتصـاد الحضري رهين الوضع الاقتصادي بالارياف . ذلـك أنـه من الممكن ان نميـز في تلك السنوات بين قطاعين منفصلين وهمـا قطاع الأروبيين وقطـاع الجزائريين . وكلهـم مندمجـون فـي نفـس النظـام المـالي الذي يسيطر عليـه النظـام الرأسمالي الفرنسي ، ولكـن الفـرق واضح بـين المجموعتين على مستوى النشاط الاقتصادي . فالاروبيون يحتكرون التجارة البحرية وكل مـا هـو متصـل بها (كورشات الاصلاح) والصناعات الغذائية (كمعامل التعليب والتبغ والمشروبات الى غير ذلـك . . .) والمهـن الحرة والتأطيـر الاداري . في حين يقتسـم الجزائريون مهـام الشحن والتجارة الصغرى والنقل (من الدرجة الثانيـة) والصناعة التقليدية المتدهورة وبطبيعة الحال المهن الصغرى مـن خدم وحمالين وغير ذلك ـــــ أمـا اليهـود فانهم يساهمـون في آن واحـد في النشاط التقليـدي (كتجـارة المـواد الاستعماريـة والأقمشة الأهليـة والنحاسيات والمجوهرات والخياطـة) وفي الاقتصاد الجديد (كالمهـن الحـرة والتجـارات الصغرى والحـرف اليدوية) . وفي كل الحالات فـان أزمـة الاقتصـاد الريفي تهم النشـاط الحضري بالنسبة للأروبيين وخصوصـا بالنسبـة للجزائريين . فهؤلاء مرتبطون بحركـة الاقتصاد الأروبي ، فامـا أنـه يتم طـردهم من عملهم بدون أيـة رعاية واما أنهم يتقاضون اجـورا زهيـدة (6) . وأمـا بالنسبة للحرفيين فـان حياتهم مرتبطة بشراءات الحرفاء الريفيين . ومهمـا يكن من أمـر فان الحالة لم تكن على أحسن ما يـرام خلال الثمانينات . فالمستقبل قاتم بالنسبة لأولئك ولهؤلاء . وفي مثل هـذا الوضع فـان أضعف الناس واقلهم صلابة أشدهم تعرضا للخطر وليس في الاعتماد بصـورة جدية على الاعانات المتواضعة جـدا التي توزعها الجمعيات الخيرية المحليـة .

ولقـد كانت لالغـاء الاوقاف والحاق ممتلكاتها باملاك الدولة عـواقب متعـددة منها مـا هو متعلق بصيانة المدارس والمؤسسات الدينية . وذلـك

(5) نفس المـرجـع .
(6) راجـع نوشي « عالم الشغالين بمنطقة قسنطينة في سنة 1900 ». اعمـال مؤتمر جمعيات العلمـاء ـ الجزائـر 1954 .

يعنـي القضاء على الاسلام بتدمير أسسه الثقافية وحتى المدرسية عن طريق الغـاء اعمـال التعهـد التي كانت تقوم بهـا الاوقاف . ولم يقع الى الآن ضبط الحصيلة الاجتماعية والثقافية للسياسة السلبية التي انتهجتها الادارة الفرنسية بالجزائر منذ سنة 1830 في الميدان المدرسي . ونعني بالسلبي السياسة المدرسية الاسلامية . ومن هذه الناحية فـان الغاء الأوقاف يعني القضاء على المـدارس القرآنية وكامل النظـام المدرسي التقليدي . ويمكن للادارة أن تحـدث مدارس عربيـة ومعاهد ثانوية فرنسية عربية كمـا يمكنها أن تشجع الجزائريين على الالتحاق بالمـدارس بفرنسا . ولكن ذلـك لـم يجـد نفعـا . ولقـد أحصت ايفـون توران بدقـة جميـع تلك المحاولات ومـا احرزت عليه من نجـاح متواضع (7) . فالجزائريون لا يميلون كثيرا الى ذلـك النـوع الجديـد من التعليـم ولكنهم لا يستطيعون ارسـال ابنائهم الى المـدارس التقليدية . واننـا نـدرك معنى هذا النـداء الـذي وجهه أهالي بجاية والـذي نقلـه كارات في سنـة 1850 : « رمموا لنـا مسجدنا واعطونا مدرسة محترمة واسندوا بعض الأجر للمعلم الـذي تعذر علينـا دفع أجرته . ذلك لكل مـا نطلبه » (8) . على أن الجهود التي بذلتها الامبراطورية الثانية ، مهما كانت أهميتهـا ، لم تعتـن أبـدا بالتعليم التقليدي الاسلامي . أمـا الجمهورية الثالثة المتشيعة للمعمرين في أول عهدها ولمـدة طويلة ، فقـد انتهجت سياسة متطرفة ترمـي الى محو كل مـا من شانـه تعزيز الاسلام بالجزائر ، من أذهان الجزائريين . ذلك أن سياسة الالحاق ـ اذا مـا وجدت ـ كانت تسعى أولا وقبل كل شيء الى حراسـة الاسلام . فالمـدن الجزائرية بمـا ذلك قسنطينة وتلمسان كانت في الثمانينات تحتـوي على جهـاز مدرسي اسلامي متواضع . وكانت الادارة تفـرض ادارتها المشددة على المعلمين اذا مـا وجدوا . فالالتحاق بتلك المدارس محـدود حينئذ ولا يهم الا بعض العشرات وفي أفضل الحالات بعض المئـات من التلامذة الذين يتقلـدون فيما بعد مناصب العدول أو القضاة الشرعيين . وهؤلاء العدول والقضـاة هم في الواقع موظفون يقع تعيينهم بعـد مزاولة تعلمهم بالمدارس الخاصة بهم . هذا وان القانون المـؤرخ في 23 ديسمبر 1875 الـذي الحق ميزانية الشعائر الدينية الاسلامية بميزانية الدولة قـد رصـد بالنسبـة لسنـة 1876 اعتمادا قـدره 000 150 فرنك موزعا كمـا يلي :

الفصل 6 : العدلية الاسلامية والشعائر الاسلامية والتعليم العمومـي 130 000 فرنـك .

(7) توران (Yvonne Turin) « المواجهات الثقافية بالجزائر الاستعمارية » 1971 .
(8) المرجـع السابـق ص 32 ـ 33 .

الفصل 15 : الأشغال العمومية ـ والمصلحة العادية وصيانة واصلاح المساجد 20 000 فرنك . وهذا يعني أن نصيب كل ساكن من مجموع السكان المسلمين (أي 3 ملايين نسمة) يبلغ 0،05 فرنك ذهب أي ما يعادل 2،25 فرنك في سنة 1981 .

ولقد سبق للأستاذ أجرون أن بين في أطروحته مدى ما اصاب التعليم الاسلامي التقليدي من تدهور سواء من حيث العدد أو من حيث المحتوى . ومن الواضح أن زهادة الاعتمادات المرصودة في الميزانية بالنسبة للجزائر بأكملها تدل على تفاهة الجهد المبذول على صعيد المدرسة القرآنية . وبما ان الجهد المبذول من ناحية أخرى لتمكين الاطفال الجزائريين من الالتحاق بالمدرسة الفرنسية أو الفرنسية العربية متواضع أو محدود هو أيضا فان هؤلاء محكوم عليهم بالأمية . والحقيقة ان المدرسة والتعليم لهما مدلول سياسي . ذلك ان المدرسة تهيء المستقبل لا فحسب على المستوى الثقافي بل أيضا على المستوى السياسي . وعلى هذا الاساس فان عدم نشر التعليم الاسلامي له مدلول سياسي . ولكن تحديد نشر التعليم الفرنسي أو توجيهه في بعض الاتجاهات له مدلول آخر . ففي الحالة الأولى انما المقصود هو اضعاف مواقف الاسلام وفي الحالة الثانية المقصود هو التخفيف من أهمية المطالب السياسية أو الاقتصادية ، وفي كلتا الحالتين تتمثل الغاية في تعزيز فرض السلطة الادارية الفرنسية على السكان الأميين فلا فرق حينئذ من الناحية السياسية بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الفرنسية من حيث قلة عدد الاطفال الجزائريين ، حيث ان المقصود ضمنيا هو أن يكونوا فيما بعد رعايا مطيعين .

ولئن كانت شبكة المدارس القرآنية ضعيفة وعدد التلامذة الجزائريين بالمدارس الفرنسية قليلا ، فان التأطير الثقافي يشكو النقص هو أيضا . فلقد تم تحديد التغطية « الاسلامية » بالمدن بمقتضى المنشور المؤرخ في 17 ماي 1851 والمتعلق بتنظيم الشعائر الاسلامية (9) . حيث قسمت المؤسسات الاسلامية الى خمس درجات « بحسب عدد السكان المسلمين في كل بلدة وبحسب الأهمية الدينية التي تكتسيها كل مؤسسة بصفة خاصة » .

ـ الدرجة الاولى : الجوامع التي بها مدرس .
ـ الدرجة الثانية : جوامع الخطبة الواقعة في المدن الآهلة .
ـ الدرجة لثالثة : جوامع الخطبة الأقل أهمية .

(9) (Estoublon et Lefebvre) المجلة القانونية الجزائرية المفسرة ـ عاصمة الجزائر 1896 .

ـ الدرجة الرابعة : المساجد والزوايا .
ـ الدرجة الخامسة : المساجد الصغيرة التي بها عون واحد .

وينقسم الاعوان الى صنفين :

1) الموظفون الكبار : المفتي ـ رئيس الشعائر الدينية : مرتبه متغير (مدينة الجزائر 3 000 فرنك ـ المدن من الصنف الاول 1 800 فرنك من الصنف الثاني 1 500 فرنك من الصنف الثالث 1 200 فرنك) الامام : يؤم المصلين ويشرف على المصالح الدينية ـ مرتبه متغير (الجامع الكبير بالجزائر 1 200 فرنك ـ الجوامع الاخرى التابعة للصنف الاول : 900 فرنك الجوامع التابعة للاصناف الاخرى من 300 الى 700 فرنك ـ الامام المساعد (جامع الجزائر : 300 فرنك) .

2) الموظفون الصغار : المدرس : مرتبه متغير (يتراوح بين 900 و 1 000 فرنك) باش حزاب من 720 الى 780 فرنك ـ المقرئون على اختلاف اصنافهم من 120 الى 210 فرنك . باش مؤذن : بعاصمة الجزائر : 600 فرنك ـ المؤقت : بالجزائر 420 فرنك ـ المؤذن من 300 الى 360 فرنك الطلبة : بالجزائر 220 فرنك .

فهذا التصنيف الاداري لمن يمكن ان نسميهم « برجال الدين » المسلمين يدل أولا على الحرص على الحراسة الادارية ، كما يدل على الصعوبة التي يجدها كل من لا ينتمي لذلك السلك للقيام بأية وظيفة دينية في المدينة اكثر من الريف . فهذه التبعية الادارية تنقص من نفوذ رجال الدين لدى المسلمين . ولكن لم يصدر اي نص خارج النصوص المنشورة فيما بين 1851 و 1881 لتلبية حاجيات الجزائريين المسلمين الثقافية والدينية وبالخصوص سكان المدن . والحال أن السياسة الدينية التي تسلكها الادارة لا يمكن أن تقتصر على الحراسة لا غير . فلم يبق حينئذ للجزائريين الا التوجه نحو المظاهر الاخرى الاسلامية المستقلة نسبيا أي الطرق الصوفية . ولقد قام « رين » أولا ثم « ديبون » و « كوبولاني » فيما بعد خلال العشرين سنة الاخيرة من القرن ، بضبط قائمة الطرق التي لها شبكة هامة من الزوايا في كامل التراب الجزائري ووضع تاريخها (10)

ولقد لفتت هذه الطرق منذ مدة طويلة انتباه بعض الملاحظين المتبصرين . ولكن قوتها قد ظهرت للعيان بصورة اوضح بمناسبة

(10) (L. Rinn) الأولياء والاخوان ـ الجزائر 1884
ـ الطرق الدينية الاسلامية ، الجزائر 1897 .

انـــدلاع كل ثـــورة أو انتفاضة ضـــد الاحتـــلال الفرنسي وبالخصـــوص عبر الاريـــاف الجزائرية . وأهم تلك الثورات واقربها عهـــدا هي ثـــورة المقـــراني في سنـــة 1871 ، التي أبـــرزت الدور الذي تقوم بـــه الطريقـــة الرحمانيـــة . ومن الطبيعي ان يكـــون الشيخ الحـــداد ومريـــدو الطريقـــة قـــد أصيبـــوا بأشـــد انـــواع القمع . وبحلـــول الجمهورية الثالثـــة أصبحت مراقبـــة الطـــرق مشددة اكثـــر وقد أسفرت عن ذلك لامحالة بعض النتائج . فـــاذا مـــا نظرنـــا الى خريطـــة الطـــرق الدينية التي رسمها ديبون وكوبولاني بـــرزت لنـــا عـــدة وقائع . من ذلك اننـــا نلاحظ بين الجزائـــر وقسنطينـــة عـــدة مناطق بيضاء بجهـــة القبائل وتجمعـــا في بعض النقط . حيث ان المـــدن وخاصة البعض منها قـــد أصبحت مراكـــز للنشاط الديني تسيطـــر عليهـــا الطـــرق الصوفيـــة . ففي قسنطينـــة توجد عـــدة زوايـــا هامـــة ، في حين أن عـــددها قليـــل بمدينة الجزائـــر . حيث نجـــد بقسنطينـــة حسب المؤلفين المذكوريـــن 4470 عضوا منخرطين في الطرق بينما لا يبلغ عددهم في مدينـــة الجزائـــر سوى 2086 . ولا شك ان منطقة قسنطينة ، ولا سيمـــا الناحيـــة الوسطيـــة والشرقيـــة ، متأثـــرة شديد التأثر بالاسلام ، ونجـــد نفس التأثـــر في منطقة وهـــران الغربية وذلك بواسطة الطرق . حيث أحصى المؤلفـــان المذكوران حوالي 6 000 عضو منخـــرط في تلك الطرق (59549) . أمـــا في مدينـــة الجزائـــر فان أهم طـــريقـــة هي الرحمانيـــة (852) وتليهـــا القادريـــة (371) والطيبيـــة (202) . وبقسنطينـــة تضم الطريقـــة القادريـــة (1173) والعروسيـــة (975) والرحمانية (752) والعيساويـــة (501) والحنسلية (441) ، وفي وهـــران نجـــد أولا الطيبيـــة (2200) ، ثم القادريـــة (1257) والسنبليـــة (1076) والشاذليـــة (1003) . وبـــدون أن نولي ثقـــة تامة لهـــذه الارقـــام ، فمـــن الواضح حينئـــذ أن القمع والحراسة لم ينقصـــا من دور الطـــرق وتأثيرهـــا نظـــرا لمالهـــا من مريديـــن وبالخصوص في طرفي الجزائر وفي الجنـــوب بطبيعـــة الحال . كما انها تمثل نقط ارتكـــاز بالنسبة للاسلام الجزائـــري لا سيما اذا كـــان مجبـــورا على التكتم . فالطـــرق قـــد أصبحت الملاذا لحي بالنسبـــة للجزائريين المسلمين الذين ينتظـــرون مثل غيرهـــم من المسلمين « مولى الساعة » . فهـــل يشبـــه ذلك الانتظـــار انتظار « المهدي » ؟ اني فيما يخصني أميـــل الى هـــذا الـــرأي . الا انه من الواضح أن الاسلام الذي أصبح خاضعا لـــلادارة ، يثيـــر الشكـــوك . وتبعـــا لذلك فقد توجـــه المسلمـــون نحـــو الاسلام المستقل أو المعتبـــر كذلك ، وهـــو الاسلام المعمول بـــه لـــدى الطـــرق . وباعتبـــار المـــدن تمثل شواطيء السلامة باقتصادهـــا الذي يشتكي أقل فقـــرا من الاريـــاف ، فان الطرق تستطيع ان تعيش هنالك بأكثـــر من المواد الموجـــودة بالاريـــاف . هذا وان الطـــرق تعتبر من المراكـــز

الاسلاميـــة الهامـــة . ولكـــن ما هي صيغـــة ذلك الاسلام ؟ ان الشيخ محمـــد عبـــده الذي زار الجزائـــر في أواخـــر القـــرن قد لاحظ ضعف مستـــوى الجزائريـــين المسلمـــين الثقافي بالنظـــر الى التونسيين والمغاربـــة . وهـــذا لا ينبغي أن يثيـــر استغـــراب المؤرخ الذي يتعين عليه ان يأخذ بعين الاعتبـــار السياســـة المتبعـــة بالجزائـــر من قبل فرنســـا والراميـــة الـــى القضاء على الثقافـــة الاسلاميـــة . حيث لم يبق بالجزائـــر فيما بين سنـــة 1880 وسنـــة 1 900 سوى بقايـــا الثقافـــة الاسلاميـــة التي كانت رائجة قبل الاحتـــلال . ولكـــن ما هي قيمـــة تلك الثقافـــة التي مازالت منتشرة في المـــدن ؟ وهل أن قسنطينة والأغـــواط وتلمسان وتبسه مازالت متمسكـــة ببعض المظاهـــر الثقافيـــة التي لا يستهـــان بها ؟ ربمـــا يكـــون ذلك . الا ان المراقبة الاداريـــة والعسكريـــة مشـــددة في المـــدن أكثـــر من الاريـــاف . فمن المفارقات إذن أن تمثـــل المـــدن بما فيها الجزائـــر المواقع الأخيـــرة المحافظة على الثقافة العربية الاسلاميـــة (التي هي اسلامية أكثـــر منها عربية) وان تكتسي فيها التظاهرات الثقافيـــة صبغة متماشيـــة مع التأطيـــر البوليسي والاداري . وتنجـــر عـــن ذلك أولا مظاهـــر الوهـــن ثم الاهتمام بالاسلام والعالم العربي واخيرا ظهـــور أعمـــال تبـــدو لنا غريبـــة (مثل النـــزوح من تلمسان وكذلك من تبسة) ولكن لـــم تخف أهميتهـــا وطبيعتهـــا عـــن بعض الملاحظين للاســـلام الجـــزائـــري (أمثـــال جـــورج مارسي) .

فلقـــد نجح الاستعمـــار في عـــزل الاسلام الجزائـــري عن بقية الاسلام المغـــربي ، لانـــه نـــزع عنه الأسس الاقتصادية لحياته اليومية فحكم عليـــه بالتراجع والتقهقـــر في حين بقي الاسلام في نفس الوقت حيـــا بتونس وفاس وهو يساهـــم في النهضة الاسلاميـــة العامـــة . وهكذا فان التأخـــر الذي عرفته الجزائـــر قـــد زاد في عمـــق الهـــوة التي كانت موجودة قبـــل سنة 1830 بين تلك البلاد وبين جارتيها في المغرب العربي . ولا يمكن للمدن الجزائرية أن تقـــوم بـــأي دور في الحيـــاة الثقافية والسياسية بالبلاد الا ابتـــداء من ظهـــور بعض أصنـــاف من النخبـــة . وبالضبط فان السنوات 80/90 تعتبـــر بمثابـــة فتـــرة التحـــول . ذلك أن الهياكل التقليديـــة العربيـــة الاسلاميـــة القديمـــة هي في حالة تدهـــور بينما أخذت تزدهـــر في المدن قيم جديـــدة مقامـــة على الثقافـــة والعلـــوم الفرنسية . والدليـــل على ذلك ظهور عـــدد من الرجـــال الجـــدد شبه الاعيـــان من أطبـــاء وتجـــار وموظفين ، بالاضافة الى الذيـــن مثلـــوا أمـــام لجنة التحقيق التابعـــة لمجلس الشيوخ وأجـــابـــوا عـــن اسئلتهـــا (11) .

(11) بـــانسا (Pensa) الجـــزائر ... بـــاريس 1894 ومـــرسلـــي (Morsly) مســـاهمـــة في درس المسالة الاهلية بالجزائر ـ قسنطينة 1894 .

ولقد وجد أغلب الجزائريين أنفسهم في المدن بين ثقافتين لا يتحكمون فيهما أو يتحكمون فيهما بصعوبة : فالثقافة الاسلامية لم تعد غالبا سوى طقوس يتمسكون بها لأنها تمثل المظهر الوحيد لهويتهم الثقافية والثقافة المرتكزة على الفرنسية التي هي لغة الاتصال الاستعماري قد أفرغت من جميع مضامينها الثقافية . وفي كلتا الحالتين نجد أقلية فحسب أو مجموعة صغيرة من المفكرين تعيش الاسلام والعروبة أو الفرنسية وثقافتها . أما باقي السكان فانهم سائرون نحو الأمية والجهل مثلما تتقاذفهم الاوضاع الاقتصادية برمتها . الا أنه من خلال المظاهر المأسوية التي تشهدها الجزائر في تلك السنوات على وجه العموم ، يمكننا أن نكتشف في عالم المدن وبالخصوص بعض المدن ، ملامح جزائر جديدة . ولكن هذه الاخيرة ستقضي عدة عقود (جيل كامل تقريبا) للظهور في وضح النهار . الا أن الرجال الذين سيكونون في المقدمة بكل شجاعة وتكتم وسيمهدون لظهور الجزائر الجديدة بدون علمهم ، عليهم أن يذللوا عقبة كأداء ، قد سبق لهم ان قدروها حق قدرها .

اندري نوشي
الاستاذ بجامعة نيس

الجلسة الخامسة

رئيس الجلسة

ـ **السيد البشير التليلي** الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية .

البحوث

● علي بن خليفة النفاتي قبل سنة 1881 :

ـ **السيد عبد المجيد كريم** ، باحث .

● المقاومة الصفاقسية للاحتلال الاستعماري في سنة 1881 .

ـ **السيد توفيق العيادي** الأستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم الانسانية .

علي بن خليفة النفاتي
قبل سنة 1881

ان علي بن خليفة هو شخص ذائع الصيت . ولقد اشتهر بمقاومته لجيوش الاحتلال في سنة 1881 أكثر مما اشتهر بالاعمال التي قام بها قبل ذلك التاريخ . ولكن تلك الأعمال التي تمثل الجانب الأول من حياته تستحق الدراسة وهي موضوع هذا البحث .

فمن هو علي بن خليفة قبل سنة 1881 ؟ وما هو الوسط الاجتماعي والاقتصادي الذي عاش فيه ؟ وما هي أهم مراحل حياته الادارية والسياسية ؟ تلك هي الاسئلة التي سنحاول الاجابة عنها .

أولا ـ عرش نفات أو الوسط الاجتماعي والاقتصادي الذي عاش فيه علي بن خليفة

أ) العرش ـ أصوله وعدد أفراده

ان عرش نفات هو عرش من اصل عربي ينحدر من قبيلة بني سليم ، وقد استقر في اواخر القرن الثالث عشر من الميلاد ، بعد ما ارتحل من مكان الى آخر ، بمنطقة وادي ران على جزء من الأوقاف التابعة لسيدي مهذب (داخل منطقة الصخيرة من ولاية صفاقس اليوم) (1)

---

(1) لقد قدم رجال نفات من البلاد الطرابلسية واستقروا حسبما يبدو بمنطقة حامة قابس (أواخر القرن الثاني عشر) . وبعدما أطردهم بنو يزيد استقر بهم المقام بمنطقة وادي ران التي هاجرها الزناتة . وعلى اثر مشاركتهم في ثورة علي باشا في سنة 1728، هاجروا مدة من الزمن الى الجزائر ثم عادوا في سنة 1740 ليتقلدوا بعض المناصب المخزنية .

راجع حول هذا الموضوع :

ـ حسن حسني عبد الوهاب : « عناصر الشعب التونسي وامتزاجها » . ورقات . ج 3 صفحة 241 ـ

ـ جان غانياج « نشأة الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية » (الدار التونسية للنشر) 1968 صفحة 152

وحسب دفاتر المجبى (2) (الضريبة الشخصية) التي أقرها محمد باي (1855 – 1859) فقد بلغ معدل عدد أفراد عرش نفات 6 200 نسمة

الا انه من المحتمل أن يكون عددهم أكبر من ذلك ، نظر الى اهمال بعض المسؤولين لذكر بعض الأشخاص بقصد أو بغير قصد بالدفاتر الجبائية (لأسباب مختلفة) .

على أن عدد أفراد ذلك العرش الذي بلغ أقصاه في سنة 59/1858 (أي 6615 نسمة) قد كان يتراوح بين 6275 و 6435 الى أن سجل نقصا ديمغرافيا هاما فيما بين 63/1862 و 71/1870 (حيث انخفض من 6275 الى 1570 نسمة أي بنسبة 17،6%) . وهذا الانخفاض له علاقة بالصعوبات المختلفة الأنواع التي تعرضت لها البلاد غداة ثورة 1864 (الجفاف والمجاعة والأوبئة الخ ....) .

ومنذ سنة 72/1871 بدأ ذلك العدد في الارتفاع دون أن يبلغ أبدا المستوى الذي كان عليه في سنة 59/1958 :

السنة	عدد الاشخاص الخاضعين لضريبة المجبى	العدد الجملي
59/1858	1323	6615
60/1859	1287	6435
61/1860	1303	6515
62/1861	1252	6260
63/1862	1255	6275
71/1870	1034	5170
72/1871	1177	5885
73/1872	1292	6640
74/1873	1308	6540

وهكذا فقد كان عرش نفات يمثل من حيث العدد عرشا متواضعا من عروش السباسب السفلى التونسية لا يشبه بأي وجه من الوجوه عروش جلاص (60 000 نسمة) أو الفراشيش (47 000 نسمة) أو ماجر (40 000 نسمة) العتيدة .

(2) وثائق الحكومة التونسية ـ الدفاتر : 698 – 773 – 1011 13، 10 – 1800 .
(3) لقد ضربنا عدد الاشخاص الخاضعين لضريبة المجبى بعدد 5 .

ترتكز طريقة عيش عرش نفات على تربية الماشية والرحيل ، وذلك بسبب جفاف المناخ (كمية الأمطار أقل من 18 مم في السنة) ، وهي لا تختلف كثيرا عن طريقة عيش العروش الأخرى بالسباسب السفلى ، بل كافة عروش السباسب المتوسطية .

ذلك أن الزراعات بأتم معنى الكلمة لا تقوم في تلك الربوع الا بدور ثانوي ، حيث ان تربية الماشية التي تمثل رأس المال الحقيقي المتحرك ، تشكل حجر الزاوية بالنسبة لطريقة حياة العروش . فهي التي توفر في آن واحد المواد الأساسية للمعيشة (الحليب ومشتقاته واللحم) والخيمة والجلود . وبناء على ذلك فاننا نلاحظ تأثيرها على نوع المسكن وعلى النظام العقاري بل حتى على المعتقدات الدينية .

ولكن ، بما أن تربية الماشية لا يمكن أن تضمن بمفردها معاش البشر ، فقد سعت العروش الى سد تلك الثلمة وذلك باقامة علاقات تكاملية مع مناطق أخرى من الايالة .

وماذا كان موقف عرش نفات بالذات ؟ فحسب الشهادات الشفاهية وبعض الوثائق النادرة ، ربط عرش نفات علاقات تكاملية مع أغلب المناطق (مثل الساحل ومنطقة صفاقس وجلاص الى غير ذلك . . .) ولكن يبدو أن هناك منطقتين قد حظيتا بالأفضلية ، وهما منطقة التل التي تعرف في ذلك العصر باسم افريقية ومنطقة الأعراض .

1) علاقة نفات بمنطقة التل

يتوجه أهالي نفات الى منطقة التل عن طريق الاعراض ثم يتبعون طريق المحلة الرابطة بين منطقة القيروان والعاصمة مرورا بمنطقة الفحص . على أن استقرارهم الذي قليلا ما يكون متبوعا بأعمال نهب وسلب ، يمكنهم من التزود من الحبوب . وحالما تظهر امطار الخريف الأولى يرجعون الى الاراضي التابعة لأوقاف سيدي مهذب لحرثها ، اذا كانت كميات الأمطار كافية . وفيما بين سنة 1859 وسنة 1861 لم يحرث أهالي نفات سوى 80 ماشية (تساوي الماشية تقريبا 800 هكتارا) أي 1/100 من الأراضي التي يقيمون بها (4) .

(4) وثائق الحكومة التونسية ـ دفتر سنة 1880 .

2) علاقة نفات بمنطقة الأعراض

بعد الانتهاء من عمليات الحرث يتحول أهالي نفات الى واحات الاعراض ، وبالخصوص الى أجملها وأكثرها انتاجا ، أي واحة شنني حيث يتزودون بالتمور . وتتسم تلك العلاقة بين نفات وشنني بالخصائص التالية :

أ) خلافا لسائر العروش بالايالة يمكنها الحصول على الحبوب مقابل الاشتغال على عين المكان ، فكانوا يقدمون في الخريف للمشاركة في جمع التمور وينصبون خيامهم حول الواحة مثلما كان يفعل المهاذبة حول منطقة النحال أو ورغمة حول كتانة ، ثم يأخذون نصيبهم من محاصيل التمور ويبيعون الى سكان الواحة الدجاج والصوف والبيض وغير ذلك . . .

وكان السكان يرحبون بقدومهم ، لأنهم علاوة على ما يقدمونه من يد عاملة تكميلية ، يمكنونهم من ترويج جزء من محاصيلهم . أضف الى ذلك أن قدومهم لا يكون متبوعا بأعمال عنف ولا باعمال سطو . كما أن بعض عائلات نفات قد ربطت علاقات ودية مع بعض العائلات بالواحة وكانت تؤدي اليها كل سنة زيارات منتظمة . ولكن أهالي نفات قد استطاعوا الاستحواذ على جزء من الواحة . ويمكن تفسير امتلاك بعض النخيل من طرف اولئك الغرباء بالأسباب التالية :

* تشتت الملكية المفرط بالواحة .

فبسبب قلة المياه أسفر الوضع لا فحسب عن بقاء الواحة في حدودها القديمة بل عن تشتتها المستمر نتيجة لمفعول الوراثة :

ففي سنة 1840 كانت الملكية تتمثل فيما يلي :

– الممتلكات المشتملة على عدد من النخيل يتراوح بين 1 و 10 : 26،01% من المجموع

– وبين 11 و 20 : 30،49 % من المجموع

– وبين 21 و 50 : 28،03% من المجموع

– وبين 51 و 100 : 10،69% من المجموع

– وأكثر من 100 : 4،76 % من المجموع (5)

(5) فالنسي (Valensi) « الفلاحون التونسيون » صفحة 114 .

ويتضح من ذلك ان الممتلكات المشتملة على عدد من النخيل يتراوح بين 1 و 50 كانت تمثل 84،53 % من المجموع .

ومن ناحية أخرى ، اذا اعتبرنا المسافة الفاصلة بين النخلة والأخرى والتي تبلغ غالبا 5 أمتارا ، واذا افترضنا أن جميع الأشجار تقع على الحافة ، نلاحظ أن الضيعة التي تشتمل على 20 نخلة ، لا تتجاوز مساحتها 625 مترا مربعا .

ويقابل هذا التشتت المفرط للملكية ضعف المردود وبالتالي فقر الفلاح .

ونذكر من الأسباب الأخرى القدرة المالية لأهالي نفات ، بالنظر الى فقر أهالي الواحة .

وتبعا لذلك فقد تحول أهالي نفات الى مرابين حقيقيين . ذلك أنه خلال السنوات الصعبة – أي عندما لا تنتج النخلة – يرى الفلاح نفسه مضطرا الى الاقتراض من النفاتي مقابل رهن نخيله . وبما أن الفلاح قليلا ما يسدد دينه فانه يكون معرضا لانتزاع نخيله وحتى أرضه . ولا ينبغي أن نستغرب من ظهور الربا في هذا الصنف من المجتمعات السابقة للنظام الرأسمالي ، حيث تسود بها الملكية الخاصة والاستغلال المباشر .

وهكذا فقد بلغ عدد أهالي نفات الذين استقروا في آخر الأمر بواحة شنني 101 في حدود سنة 1840 ، وقد كانوا يملكون ثمن النخيل بالواحة أي 2679 نخلة (6) .

ب) هذا وقد كان لامتلاك النخيل بالواحة أثر ، ان لم يكن هاما ، فهو على الاقل حقيقي ، بالنسبة الى طرق عيش أهالي نفات . فلئن بقوا أولا وقبل كل شبه رحل ، الا ان عددا من عائلاتهم قد استقر بالواحة ، حيث كان اهالي نفات يمثلون حوالي 10 % من سكان شنني في سنة 1840 (7) .

ج) رغم العلاقة الودية التي كانت تربط بين نفات وبعض سكان شنني ، فان استقرار اولئك البدو شبه الرحل بالواحة لم يحظ دائما بحسن القبول ، لاسيما وأن سكان الواحة قد راوا انتقال جزء من املاكهم الى ايدي البدو . ولو أن سكان شنني كانو ينتمون الى صف يوسف ، فان علاقاتهم مع نفات كانت تخضع لنوع من التعايش المتضارب .

(6) نفس المرجع – صفحة 119 – ووثائق الحكومة التونسية دفتر 100 .

(7) غانياج (J. Ganiage) « سكان البلاد التونسية حوالي سنة 1860 » مجلة « السكان » (Population) سبتمبر اكتوبر 1966 عدد 5 ص 879 .

د) على ان هذه العلاقة التكاملية بين أهالي نفات وسكان شنني قد فقدت أهميتها غداة احداث غابة الزيتون بمنطقة صفاقس وبالخصوص بالشعال وبوثادي ، حيث تحول كثير من أهالي نفات الى مغارسين .

ثانيا : عائلة ابن خليفة داخل عرش نفات

تعتبر عائلة ابن خليفة بدون منازع أهم عائلة مخزنية من عائلات عرش نفات . فلقد كانت في خدمة السلطة المركزية منذ العهد المرادي ، وقد تعزز نفوذها في عهد الحسينيين . ذلك انه بالاضافة الى ادارة شؤون عرش نفات بصورة منتظمة ، شغل عدد كبير ن افرادها خططا ادارية وعسكرية هامة في مناطق مختلفة من الايالة (مثل صالح بن خليفة الذي شغل منصب عامل لعدة فروع من أولاد عزيز من عرش الهمامة ثم عين في سنة 1865 على رأس أولاد ثليجان بوطن زغوان . . .) (8) .

وفي مقابل تلك الخدمات ، كانت تلك العائلة معفاة من الضرائب (مثال ذلك الأمر الصادر عن الباي الحسيني الثاني علي باشا (1735 – 1756) والذي يقضي باعفاء رشيد بن محمد النفاتي وابنيه علي وعمر من جميع الضرائب وباعفائهم أيضا من جميع الأداءات الموظفة على غيرهم من أبناء العروش) « لا يلزمهم ما يلزم الرعية في شيء » (9) .

كما صدر أمر مماثل من حمودة باشا (1782 – 1814) يعفي « أولاد راشد قائد نفات سابقا من الأداءات » (10) .

وهكذا فان الخدمة المخزنية هي من تقاليد عائلة ابن خليفة . ولكن هل كانت هي وحدها مصدر نفوذها ؟ ألا توجد أسس اخرى لتفوق تلك العائلة ؟

فمن الناحية الديمغرافية تبين الدفاتر الجبائية (11) أن فرع أولاد حامد الذي تنتمي اليه عائلة ابن خليفة هو أقوى فرع داخل العرش .

– في سنة 1858/1859 : 339 فردا من الخاضعين للضريبة أي 25 % من العرش .

(8) وثائق الحكومة التونسية – الملف 576 الصندوق 52 .
(9) محمد المرزوقي « صراع مع الحماية » تونس 1973 ص 186 .
(10) نفس المرجع : صفحة 187 .
(11) وثائق الحكومة التونسية الدفاتر 698 – 773 – 1011 – 1013 – 180 .

– وفي سنة 1860/1861 : 333 فرادا من الخاضعين للضريبة أي 25 % من العرش .

– وفي سنة 1869/1870 : 192 فردا من الخاضعين للضريبة أي 18 % من العرش .

– وفي سنة 1871/1872 : 248 فردا من الخاضعين للضريبة أي 18 % من العرش .

– وفي سنة 1870/1871 : 248 فردا من الخاضعين للضريبة أي 19 % من العرش .

– وفي سنة 1871/1872 : 244 فردا من الخاضعين للضريبة أي 1 % من العرش .

– وفي سنة 1871/1873 : 240 فردا من الخاضعين للضريبة أي 1 % من العرش .

كما أن فرع أولاد حامد الذي يتراوح عدد افراده بين ربع وخمس العرش ، يعتبر أكبر من الفروع الأخرى مثل السديرات والسماعلة والرباعية الخ . . . ومن الواضح أن الأهمية الديموغرافية لها قيمتها في الأوساط العروشية ، وذلك للأسباب التي لا مجال لذكرها هنا .

وماذا كان وزن أولاد حامد من الناحية الاقتصادية ، اذا اعتبرنا على سبيل المثال المساحات المزروعة كقياس ؟ نلاحظ أن اولاد حامد كانوا يزرعون في سنة 1862/63 5،15 ماشية أي سدس مجموع الأراضي المزروعة (12)

ومن ناحية اخرى يتضح من الدفاتر أن عائلة ابن خليفة كانت تزرع مساحات أكبر من المساحات التي تزرعها بقية عائلات العرش . من ذلك أن محمد وصالح بن خليفة كانا يدفعان 30 ريالا بالنسبة لكل واحد بعنوان ضريبة العشر (وهو ارفع مبلغ داخل العرش) (13) . كما كانت عائلة ابن خليفة حسب الاحتمال تزرع أكثر الأراضي خصوبة . وبالاضافة الى الأرض ، فقد كانت تملك الآلات الزراعية التي لا يمكن الحصول عليها بسهولة .

ومجمل القول ان التفوق الديمغرافي والاقتصادي قد جعل من عائلة ابن خليفة أقوى عائلة في عرش نفات . كما أن هيمنتها السياسية تعتبر الى حد ما نتيجة لذلك التفوق وبالخصوص سببا من أسباب

(12) نفس المرجع – الدفتر 1387 .
(13) نفس المرجع .

قوتهـا الاقتصادية . وبالاضافة الى الاعفاء من الضرائب ، فقـد كان أفراد تلك العائلـة يضطلعـون بمهـام عمـال وكواهي الوجق ورؤساء المزارقية الى غير ذلـك . وكانت المزايا المكتسبة من تلك الوظائف الرسمية تزيـد في تدعيم سلطتهم داخـل عرش نفـات وتزيد في آن واحـد من تبعيتهم للسلطة المركزية التـي هم في خدمتهـا .

ثالثا : **علي بن خليفة : الرجل ومآثـــره**

1) **الرجـل** : ولـد على بن خليفة بن راشـد بن علي بن راشـد بن محمـد النفاتي في سنـة 1804 ، حسب مارتال (14) ، وفي سنة 1807 حسب محمـد المرزوقي (15) ، ولكن يبـدو ان التاريخ الاول هـو الارجح ، حيث أن الوظائف الرسمية الأولى التي تقلدها علي بن خليفة يرجـع عهدها ـ حسب الوثائق التي اطلعنا عليها ـ الى سنـة 31/1830 (16) ، والأقرب الى الواقع أن يكون عمره آنذاك 26 أو 27 سنـة لا 23 او 24 سنـة . وكـان علي بـن خليفـة اسمـر اللـون قوي البنية ، يرتدي الملابس التقليدية وهي في ذلـك العصـر البرنس واللحفة والشاشية الخ . . . وكـان فارسا صنديدا يتحلى بالحـزم والحلم ويعـرف كيف يجمع بين مرونـة الرجل الدبلوماسي وصرامة الخبيـر بالطرق الحربية . وتبعـا لذلك فقـد كان قائدا حقيقيا .

ومن ناحيـة أخرى لا ننسى أن علي بن خليفة كـان ينتمي الى تلـك الاقليـة المثقفة بالبـلاد ، حيث كان يحسن القراءة والكتابة . ولكن أسلـوب رسائله كـان قريبـا من اللغة العاميـة ، وذلك أمـر شائع في ذلك العصر .

وأخيرا فعلى المستوى العائلي كـان علي بن خليفة حريصا على توطيد علاقاته مع سكان شنني ، حيث تزوج امراة من تلك الواحـة تحمل اسـم عائشة ، بالاضافـة الى زوجته النفاتية : محضية (17) .

2) **مآثره : حياته الادارية والسياسية**

أ)**علي بن خليفة عامـل نفات**

لقـد بقي علي بن خليفة على رأس عرشه من سنـة 58/1857 الى سنة 1881 أي مـدة مـا يقرب من 24 سنة ، باستثناء انقطاع دام ثلاث سنوات ،

(14) مارتال (A. Martel) حـدود تـونس الصحراوية ج 1 ص 295 .
(15) محمـد المرزوقي ـ صـراع مع الحمايـة ص 193 (16) وثائـق الحكومة التونسيـة الـدفتـر 3049 .
(17) معلومـات شفاهية مستقـاة ببلدة شنني قـابس .
(18) وثائـق الحكومة التونسيـة الملف 484 الصنـدوق 42 .

من سنـة 1873 الى سنة 1876 ، حيث تم تعويضه خـلال تلك الفترة بوزيـر الحـرب رستـم ثم بخليفة وجق العاصمة أحمد الجويني (18) .

فكيف استطـاع علي بن خليفة أن يبقى طـوال تلك المـدة على رأس عرشه ؟ لقـد امكن لـه ذلـك للأسباب التالية :

ـ القوة الاقتصادية والديمغرافية التي أحرزها الفرع الـذي ينتمي اليه وهـو فرع أولاد حامـد .

ـ العلاقات التقليدية المتينة والممتازة التي تربط بين عائلة ابن خليفة وبين السلطة المركزيـة .

ـ نفـوذ الرجل على الصعيـد الاقتصادي : حيث كـان علي بن خليفة من كبـار مربي الماشية فهـو يستخدم حسب الشهادات الشفاهية أحـد عشر راعيـا (بالنسبة لـ 550 رأس غنم على أقل تقدير) .

ـ مـا كان يتحلى بـه الرجل من خصـال مطابقة للقيم التقليدية الخاصة بالمجتمعات القبلية : كالشجاعة والحلم والكـرم الـخ . . .

وكيف كـان علي بن خليفـة يحكم عرشه ؟ الجديـر بالملاحظة بـادىء ذي بـدء أن الرجل ، بالرغم من علاقاتـه المتينـة مع الباي ورجال البلاط ، قـد بقي دائمـا رئيس « نجـع » يعيش تحت الخيمة ويحيط بـه أقربـاؤه (19) . ومن ناحيـة اخـرى فقد كان علي بن خليفة شاعـرا بالوزن الـذي يمثلـه الانتمـاء القبلي في مجتمع متفـرع . وتبعا لذلك فقد كان متعلقـا شديـد التعلق بعرشه الذي يسعى الى تدعيـم قوتـه والدفاع عن افـراده . ويظهـر تحيـز عامل نفـات من خلال الوثائـق . من ذلك انـه كـان يصف أبنـاء عرشه ، بمناسبـة النزاعات التي كانت تنشب من حين لآخـر « بأنهم يتصرفـون في حالة دفـاع شرعي » (20) . وعندما تقتـرف بعض الجرائـم داخل العـرش يكتب العامل في رسائلـه ما يلي « انه لا علم لـه بالحادث ولا يعـرف المذنبين المظنـون فيهم » (21) . ومن ناحية أخرى كلما كان أبناء نفـات في حاجة الى ضمـان أدبي فانهم يتجهـون الى علي بن خليفة (مثـال ذلك محمد بن صالح بن خليفـة الذي طلب « سراحـا » بضمان عمـه علي بن خليفـة لأداء مناسك الحج) (22) . وأخيـرا كانـت ترشحـات مشايـخ نفـات تعـرض على الوزيـر الأكبـر بتوصيـة خاصة (23) .

(19) معلومات شفاهية مستقـاة ببلـدة علي بن خليفـة .
(20) وثائـق الحكومة التونسية الملف 484 الصنـدوق 42 .
(21) نفس المـرجـع .
(22) نفـس المـرجـع .
(23) نفـس المـرجـع .

وبالاضافة الى ذلك ، كان علي بن خليفة يشجع ابناء عرشه على تربية الماشية ويقال انه قد حاول دعوتهم الى تعاطي الزراعة ، وذلك بالعمل على حفر عدد كبير من الآبار ، أشهرها البئر الذي يحمل اسمه (بير علي بن خليفة) .

ولكنه أبدى أكبر تحيز ومحاباة بمنطقة شنني ، من ذلك أن عدد كبيرا من الاراضي والنخيل قد انتزع لفائدته او بيع الى بعض أقربائه بثمن بخس ، مثل ضيعة شط الفريك الشاسعة التي صادرها (وهي تقع بين قرية النحال وقرية شنني) وسيستولى عليها فيما بعد يوسف الليقرو (24) .

ب) علي بن خليفة ، خليفة الأعراض :

تقلد علي بن خليفة منصب خليفة الأعراض في سنة 62/1861 (25) وشغل ذلك المنصب الى سنة 79/1869 (26) . وبما أن عاملي الأعراض أمير الأمراء محمد ثم أمير الأمراء سليم ، كانا يقيمان بالعاصمة ، فقد كانت جميع السلطة بين يدي علي بن خليفة الذي أقام مركز قيادته بمنزل قابس ، حيث بنى لنفسه بيتا فخما يدعى دار الفريك ، وقد ألحقت به قنابل المدفعية الفرنسية في سنة 1881 أضرارا فادحة ، ولكن آثاره مازالت ماثلة للعيان الى اليوم ، ولقد كان علي بن خليفة يقيم بشنني لسببين اثنين :

– أولهما ارتيابه من سكان المدينة وبالخصوص سكان جارة الذين هم من أصل تركي (كولغلي) وينتمون الى صف شداد .

– وثانيهما وجود عدد كبير من أبناء نفات بشنني .

فما هي خصائص السياسة التي اتبعها بمنطقة الأعراض ؟ بقدر ما كانت سياسته تجاه أهالي نفات تتسم بالمرونة والرحمة ، كانت سياسة تجاه سكان الأعراض تتسم بالشدة والقمع ، وقد وصفهم « بالنذالة والميل الى التمرد » (27) . وكانت أعمال الاغتصاب والقمع التي يقوم بها ضد أهالي المنطقة تتراوح بين استخلاص الضرائب قبل أوانها وانتزاع أملاك الناس . من ذلك مثلا العريضة التي وجهها في سنة 63/1862 « ميعاد » جارة وشنني والمطوية الى الوزير الاكبر ، وقد جاء فيها بالخصوص

(24) معلومات شفاهية مستقاة ببلدة شنني .
(25) وثائق الحكومة التونسية الملف 475 الصندوق 42
(26) وثائق الحكومة التونسية الملف 477 الصندوق 42 .
(27) نفس المرجع .

أن سياسة علي بن خليفة قد أجبرت الأهالي « على التداين لدى اليهود والنصارى » (28) . وكيف يمكن تفسير السياسة التعسفية التي انتهجها علي بن خليفة بالأعراض ؟ يمكن تفسيرها بثلاثة عوامل :

1) الأعراض هي منطقة حدودية شاسعة تغطي وحدها 2/3 البلاد . الأمر الذي يدعو الى تعيين عامل صلب وحازم .

2) وهي أهم منطقة من الناحية الجبائية ، حيث يوجد بقابس 000 22 شخص من دافعي الضرائب (29) .

3) الأهمية الاستراتيجية التي تكتسيها المنطقة وقد ازدادت منذ احتلال الجزائر من طرف فرنسا في سنة 1830 واسترجاع الخليفة العثماني للبلاد الطرابلسية في سنة 1835 ، حيث أصبحت نوعا ما منطقة احتكاك بين ثلاث قوات متعارضة : الباي الحريص على صيانة استقلاله والسلطان الذي يسعى الى اثبات سيادته على طرابلس وتونس وأخيرا الامبريالية الفرنسية التي هي في أوج توسعها .

4) الاعراض هي المنطقة الوحيدة من بين المناطق التي يديرها علي بن خليفة والتي يوجد بها جنبا الى جنب صف يوسف وصف شداد .

ويمثل الصف الأخير بالخصوص بنويزيد الذين مدوا يد المساعدة في سنة 1857 الى الثائر الطرابلسي غومة المحمودي الذي ينتمي مثلهم الى صف شداد ، وقد وصفه علي بن خليفة « بالثائر الذي يسعى الى بث الفوضى واختلال الأمن .... وخراب البلاد » (30) . وعلى اثر فشل تلك الثورة عين الباي على رأس بني يزيد علي بن خليفة الذي لم يدخر اي جهد لمعاقبتهم وذلك بانتزاع الأملاك وحتى النساء . ولكن سنة 1868 هي التي شهدت أكبر هجوم شنه علي بن خليفة على حامة بني يزيد .

وختاما فان تصورات علي بن خليفة لسلطته وتصرفاته المترتبة عليها مازالت تكتسي صبغة تقليدية ، حيث أنها تخضع للضغوط التي يفرضها مجتمع منقسم الى عدة عروش وقبائل متنافسة .

(28) نفس المرجع .
(29) غالياج ـ المرجع السابق صفحة 882 الملحق 1 .
(30) وثائق الحكومة التونسية ـ الدفتر 1020 .

ولقد كان علي بن خليفة حتى سنة 1881 عونا فعالا من أعوان النظام الملكي الذي كان يعمل في خدمته بحماس واخلاص كبير . وهو غير مدين بنجاحه وشهرته لأصوله وحدها .

اذ تضاف الى ما تتسم به عائلته والفرع الذي ينتمي اليه من قوة ديمغرافية واقتصادية ، خصاله الشخصية وما تدر عليه خدماته المخزنية من منافع .

فلقد كان ، من خلال سيرته الطويلة ، يمثل أحسن من أي شخص آخر ما أفرزته القبائل التونسية أثناء القرن التاسع عشر من قادة محليين ، هم قبل ان يكونوا الممثلين لأبناء قبائلهم ، أعوان التنفيذ بالنسبة للسلطة المركزية التي تستخدمهم ولكنهم يستفيدون منها .

وان المصلحة الداعية لأولئك الاعوان الى الدفاع عن النظام الملكي لهي على غاية من الأهمية ، لا سيما وان ذلك النظام قد استطاع أن يكتسب نوعا من الشرعية المقامة أساسا على الدين .

وبناء على ذلك فقد كانوا أول المقاومين لمعاهدة 12 ماي 1881 التي انتزعت من البلاد سيادتها وزعزعت أركان شرعية السلطة الحسينية ، فضلا عن تعريضها لمصالحهم للخطر .

عبد المجيد كريم
باحث

المقاومة الصفاقسية للاحتلال الاستعماري في سنة 1881

أولا : صفاقس قبيل الاحتلال

1 – مدينة صفاقس :

صفاقس مدينة ساحلية في الوسط الشرقي من البلاد التونسية ، تحتل في ذلك التاريخ المرتبة الثانية من الأهمية مباشرة بعد مدينة تونس .

وهي تحظى بحماية طبيعية ، بواسطة مرساها وبفضل جزر قرقنة وتتعاطى أنشطة بحرية متواصلة . ويمارس أهلها التجارة وكذلك القرصنة التي بدأ يتقلص ظلها تحت تأثير الدول الاروبية ، الى أن انقرضت تماما منذ الفترة الفاصلة بين 1816 و 1830 . الا أن تلك الأنشطة البحرية لم تصرف صفاقس عن منطقتها الداخلية المتأثرة شديد التأثر بالمدينة التي توجه اليها الزيوت والحبوب والصوف والحلفاء وتتولى ترويجها . وفي المقابل يأتي المثاليث والعقاربة المقيمون بالمنطقة الداخلية الى المدينة لاقتناء بعض الآلات او شراء بعض البضائع أو اصلاح أسلحتهم أو الاستفادة من خدمات بعض العدول أو المرابين اليهود الموجودين في المدينة بكثرة .

وعلى غرار أغلب المدن الساحلية التونسية ، كانت صفاقس قبل سنة 1881 تشتمل على قسمين متميزين وهما المدينة العربية او المدينة العتيقة والحي الأروبي المعروف باسم « الربض القبلي » والواقع بين المدينة العربية والبحر .

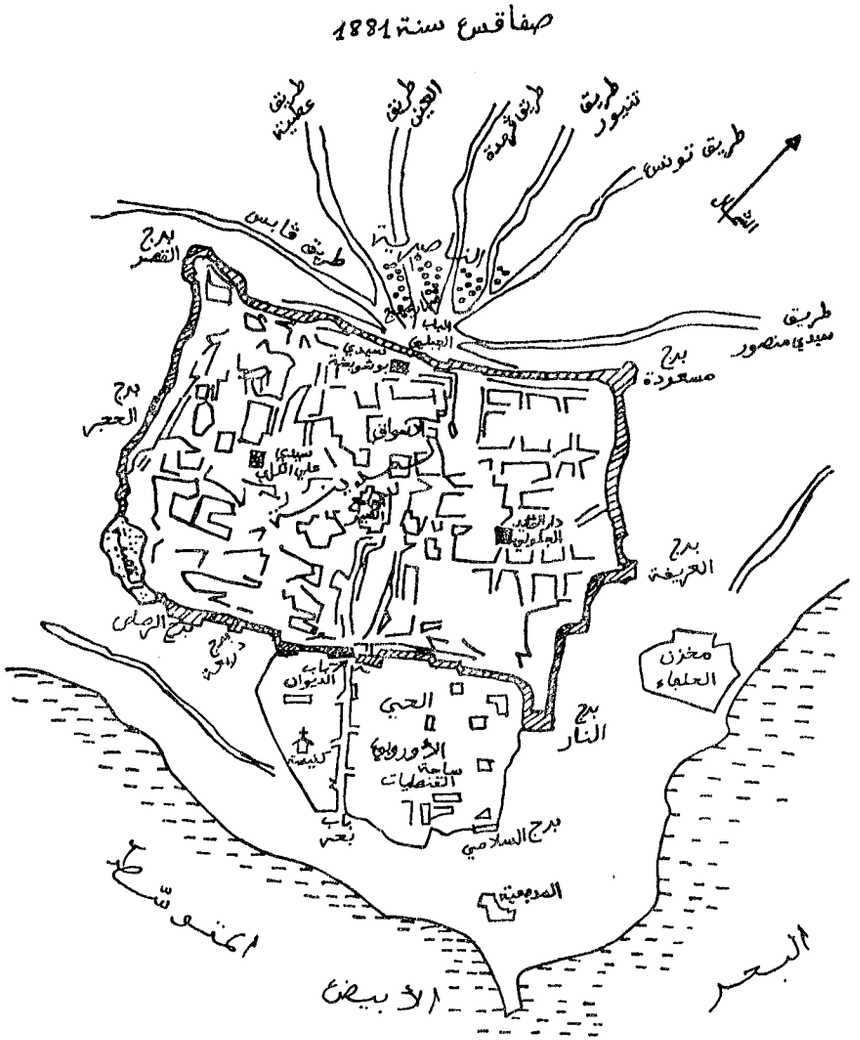

وتتمثل المدينة العتيقة في شكل مستطيل طوله خمس مائة مترا وعرضه أربع مائة مترا ، يحيط به سور محصن يحتوي على بعض الابواب أهمها الباب الجبلي في الشمال الرابط بين المدينة والريف وباب الديوان في الجنوب الرابط بينها وبين الحي الافرنجي والبحر .

وعندما تغلق المدينة أبوابها ، يصبح الدخول اليها مستحيلا ، وقد أحاطت بها أسوارها التي يبلغ ارتفاعها 12 مترا . وهكذا فقد استطاعت صفاقس ان تحمي نفسها دوما وأبدا من غارات البدو المقيمين في ضواحيها . الا ان مصدر الخطر بالنسبة لأهل صفاقس هو البحر . والحقيقة أن الطبيعة قد سهلت حماية الميناء والمدينة : ذلك ان المرسى محمي كما ينبغي وأن البحر القليل العمق يمنع البواخر الأجنبية من الاقتراب من المدينة لتعريضها للخطر . ولقد أضافت صفاقس لوسائل الدفاع الطبيعية ، وسائلها الخاصة ، حيث ان الاسوار التي تحدثنا عنها آنفا محمية ومصانة بصورة منتظمة ، وقد خصص أهل صفاقس لذلك الغرض بعض الأملاك التابعة للأوقاف . أضف الى ذلك ان الاسوار تشتمل على عدة حصون لتعزيز وسائل الدفاع . فعلاوة على القصبة التي تعتبر الاداة الرئيسية للنظام الدفاعي تشتمل المدينة على ثمانية بروج .

وتضم القصبة الواقعة في الجنوب الغربي من المدينة ، تسعة مدافع مع الذخيرة . وهي تحرس الواجهة البحرية بمساعدة برج النار الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية والذي يحتوي على 11 قطعة مدفعية . ثم هناك بروج أخرى تكتسي اقل أهمية ، مثل برج الرصاص جنوبا وبرج الحجار غربا وبرج الجبلي شمالا وغيرها ، ولكنها تمثل سندا اضافيا لا يستهان به لرد المغيرين القادمين من البحر او البدو القادمين من المناطق الداخلية . وفي الجملة فقد كانت صفاقس تعد 62 مدفعا ، يرجع عهد أغلبها الى عصر حمودة باشا (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ميلادي) ، وهو العصر الذي شاهد انتعاش القرصنة والتجارة البحرية . وهي قطع قديمة وذات مرمى ضعيف للغاية . وسنعود الى ذلك بعد حين . أما حامية صفاقس فقد كانت قليلة العدد حيث لم تكن تضم أكثر من خمسين أو مائة من الجنود (1) الذين كانوا على « حالة يرثى لها مثل بقية جيوش الباي » . وقد كانوا يتقاضون مرتبات زهيدة وكانت تنقصهم الاحاطة وهم يحملون أسلحة لا قيمة لها .

(1) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 31 بتاريخ 27 جوان 1881 .

وتبعا لذلك فقد كانوا يمثلون مصدرا للغضب أكثر مما يمثلون مصدرا للقوة بالنسبة للسلطة ، هذا اذا لم يفروا من الجيش (2) .

وكانت المدينة داخل تلك الأسوار تعج بالسكان الذين يرتادون الأسواق المتخصصة والمتراصة كلها تقريبا بين الجامع الكبير والباب الجبلي . وقد أقيمت في الاماكن الاخرى من المدينة المنازل المنخفضة والمصطفة على طول الشوارع الملتوية والضيقة والتي هي عبارة عن متاهات حقيقية مثل المتاهات الموجودة في كافة المدن المغربية . وكان الوالي العامل (أو القايد) وهو آنذاك حسونة الجلولي (3) يقيم في المدينة العتيقة . وكذلك الشأن بالنسبة للأعيان ومن بينهم الخليفة وشيخ المدينة وغيرهما .

ويمتد الحي الافرنجي بين الأسوار والبحر ، كما أشرنا الى ذلك آنفا . ولقد تم توسيع ذلك الحي في عهد علي باي وابنه حمودة باشا واحاطته في سنة 1830 بسور من الطوب يربط بينه وبين المرسى بواسطة باب البحر . وكان يقيم بذلك الحي الاروبيون واليهود الذين لا يسمح لهم بالدخول الى المدينة العتيقة الا في النهار . وكانت الجالية الاروبية تتركب اولا وبالذات من الايطاليين والمالطيين الذين يشتغلون ببيع الاسفنج والاخطبوط او بتجارة الزيت والحلفاء . اما الفرنسيون فكان عددهم أقل وكانوا يمارسون مختلف الأنشطة التجارية ويحتكرون بعض المصالح الفنية مثل التلغراف .

فكم كان عدد الأروبيين في ذلك التاريخ ؟ ان البيانات التي بين أيدينا متناقضة ، حيث ان ذلك العدد يتراوح حسب المراجع المستعملة بين 130 (4) و 500 1 (5) . أما مارسيل غندولف (6) الذي اعتمد روايات الرحالين (7) والبيانات الواردة في سجلات الكنيسة بصفاقس ، فقد قدر عدد أفراد الجالية الاروبية بـ 800 نسمة في سنة 1881 (8) . وهو رقم مقبول حسب رأينا .

---

(2) نفس المرجع ـ الوثيقة 87 (81/5/26) و 92 (81/6/10) .

(3) علي الزواري (صفاقس) ـ تونس 1980 .

(4) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 307 الوثيقة 32 .

(5) جيرار (Girard) ـ المجلة البحرية ـ والاستعمارية 1883 ـ ص 43 .

(6) غندوالف (Gandolphe) ـ الحياة التونسية المصورة ـ عدد 1922/3 ص 23 .

(7) منهم سان لاجي (Saint Lager) « الايالة التونسية » الجزائر 1874 .

(8) « المجلة التونسية » 1895 .

ويأوي الحي الافرنجي الى جانب الأروبيين عددا كبيرا من السكان اليهود يتجاوز الألف (9) . وهم يتعاطون التجارة والربا . ولقد تحصل عدد منهم على حماية بعض الدول الاجنبية مثل انجلترا وايطاليا وفرنسا .

2 ـ البادية والمنطقة الداخلية :

لنغادر الحي الافرنجي ولنعبر المدينة العتيقة حتى نصل في الشمال الى الباب الجبلي الذي تتلاقى فيه جميع الطرق الرابطة بين المدينة واجنتها ومن ورائها المنطقة الداخلية لصفاقسية .

وعندما نخرج من المدينة نجد منطقة الناصرية التي تحتوي على مئات الصهاريج الصالحة لتموين المدينة بماء المطر . ثم نجد بعيدا عنها الاجنة الممتدة على بعد 10 كم من كل جهة والمحاطة « بالطوابي » التي تعلوها مغارس الصبار .

ونجد في تلك الأجنة بعض أشجار اللوز والتين الى جانب أشجار الزيتون (10) . وتقوم في وسط كل جنان دار البادية أو البرج (11) وهي محل اقامة سكان المدينة مدة الصيف والمقر الدائم بالنسبة لعدد كبير من الفلاحين .

وفيما وراء ذلك الطوق من الأجنة تبدأ المنطقة الداخلية التي هي مقر اقامة المثاليث والعقاربه الذين يتعاطون ، الى جانب تربية الماشية ، غراسة الزياتين أو زراعة الحبوب سواء بمفردهم او بالاشتراك مع الصفاقسيين (12). وبعيدا عن تلك المنطقة نجد في اتجاه قابس منطقة نفات والمهاذبة وفي اتجاه سيدي بوزيد والقيروان نجد الهمامة وجلاص . وكل هذه العروش والقبائل ستقوم بدور كبير في ثورة صفاقس . ولنرجع الان الى أهالي صفاقس ذاتهم . فكم كان عددهم ؟ وما هي وسائل وطرق عيشهم ؟

(9) برودلاي ـ (Broadley) « الحرب البونيقية الاخيرة » ج 2 ، ص 8 .

(10) توفيق العبادي : بنية الملكية العقارية بصفاقس في اواسط القرن التاسع عشر ـ شهادة الكفاءة للبحث ـ 1970 .

(11) المصمودي ـ صفاقس ـ تونس 1980 ـ ص 82 .

(12) نفس المرجع ـ ص 91 .

مواقع القبائل التي شاركت في الانتفاضة الصفاقسية

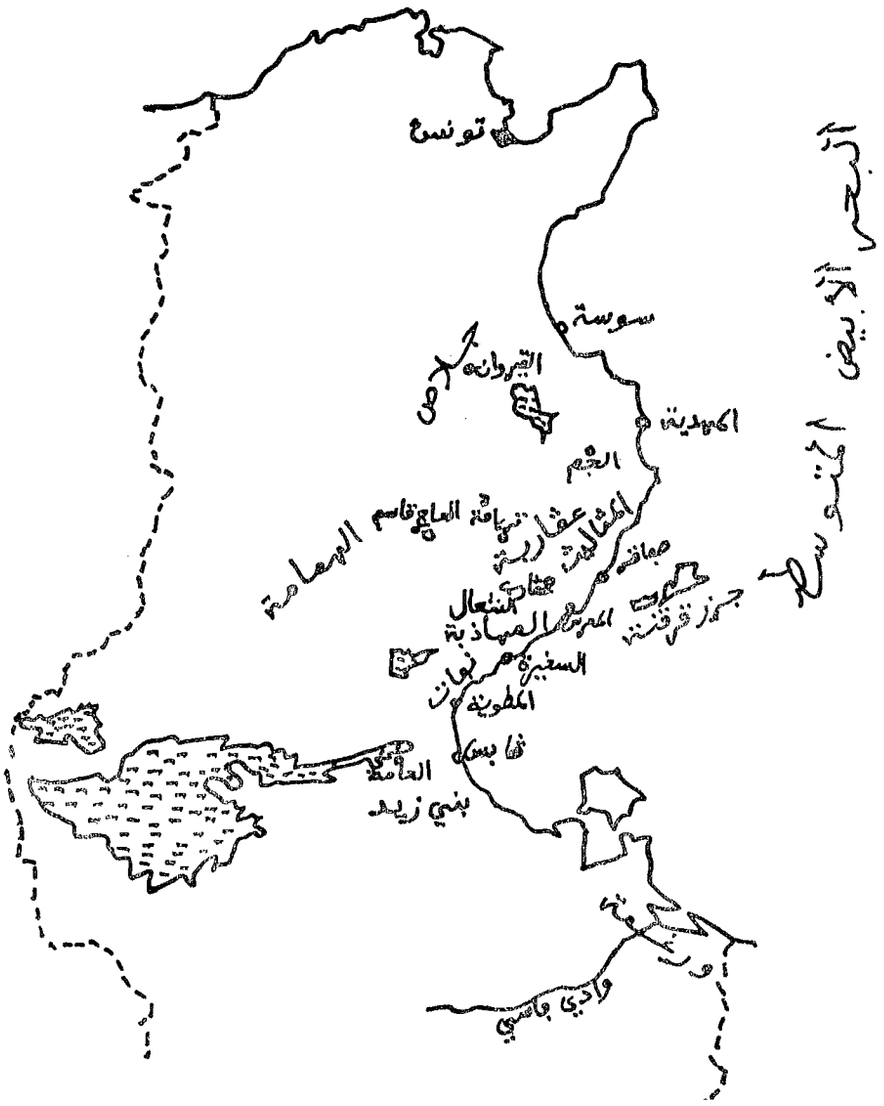

3 – المجتمع الصفاقسي قبيل سنة 1881

ان الحالة المدنية والاحصاءات مفقودة حول هذا الموضوع . فنحن مضطرون حينئذ الى الاقتناع بالمعطيات التقريبية . فحسب روايات الرحالين وغيرهم ، كان عدد سكان صفاقس في ذلك التاريخ يتراوح بين 18 و 20 الف (13) وهو يبلغ اكثر من ذلك الرقم حسب وثائق فانسان (14) . ولقد كانوا يعيشون من التجارة مع المنطقة الداخلية ومن الصناعة التقليدية ومن الزراعة التي كانوا يمارسونها في الاجنة وضواحيها ، كما كانوا يتعاطون الصيد البحري . ولكن منذ أواسط القرن التاسع عشر انقرضت القرصنة وتجارة الرقيق مع السودان ، الامر الذي افقد صفاقس البعض من مواردها الهامة .

فكان أهالي صفاقس يتعاطون ابا عن جد مختلف تلك الأنشطة الزراعية والتجارية والصناعية . وكانت تجمع بين الحرفيين مجموعات حرفية عتيدة . ولكن الصفاقسي كان يعرف كيف يجمع – ولو جزئيا – بين العمل بالمدينة والعمل في الحقول . وكل سكان المدينة تقريبا هم في نفس الوقت اصحاب أملاك زراعية (15) . ولقد تجاوز الصفاقسيون حدود منطقة الأجنة وأخذوا يتوسعون في منطقة المثاليث والعقاربة . والى هذا السبب الواضح لسوء التفاهم ، تضاف أسباب أخرى راجعة أولا وبالذات الى غارات البدو على المدينة . ورغم ذلك فانه بوجود شبه اتفاق محترم من طرف الجميع . بل أخذ يتسع التعاون بين سكان المدينة والبدو عن طريق الخماسة والمغارسة وغير ذلك (16) . اما سكان المدن الذين يمثلون نوعا ما الطبقة الكادحة والمتمسكة شديد التمسك بديانتها ، فهم مستسلمون لتقاليدهم وسلوكهم المحافظ . وفي أعلى السلم الاجتماعي نجد ما يسمون « بالاعيان » . وهي عبارة تطلق بدون تمييز على من يتفوقون على غيرهم بعلمهم او بثروتهم او بنفوذهم . ولنذكر من بين هؤلاء عائلة الجلولي وعائلة كمون وغيرها من العائلات التي تتعاطى كلها تقريبا التجارة ، مع امتلاك مساحات كبرى من الأراضي . وهناك عائلات أخرى مثل عائلة العذار ، وقد احتكرت المناصب السامية المرتبطة بالمعرفة ، مثل القضاء الشرعي والافتاء . وان هذه العائلات او تلك قد استطاعت ان تحافظ

---

(13) العيادي – جيرار – وغاندولف – المراجع المذكورة .

(14) وثائق وزارة الحرب الفرنسية – فانسان (56 000 ساكن) .

(15) توفيق العيادي – المرجع المذكور –

(16) بونسي (J. Poncet) الاستعمار الزراعي والزراعة الاروبية بتونس باريس 1955 – الصفحات : 352 – 353 و 359 .

على مالها من نفوذ على الصفاقسيين . وان من ضمنها يتم في كل الحالات تقريبا انتداب العمال والخلفاوات ومشايخ التراب من الصفاقسيين .

هذا هو اذن المظهر الذي عليه صفاقس قبيل انتصاب الحماية . فماذا كان رد فعلها على الاحتلال الفرنسي ؟

4) الصفاقسيون ومعاهدة 12 ماي 1881 :

لم يكن لدخول الجيوش الفرنسية الى البلاد التونسية في 24 أفريل 1881 ، وقع كبير بصفاقس . حيث ان أخبار الواجهة تتطلب وقتا كبيرا لتبلغ الى علم الصفاقسيين . وقد كان جميع الناس يظنون ان « الحملة التأديبية الفرنسية » ضد أبناء خمير لن تدوم مدة طويلة . أضف الى ذلك أن كثيرا من الناس كانوا يعتقدون ان محلة علي باي التي وجهها الباي محمد الصادق لمعاقبة القبائل المتمردة بالحدود التونسية الجزائرية قد ذهبت في الواقع لتضع حدا لتقدم الفرنسيين (17) . وبناء على ذلك فردا على النداءات الملحة التي وجهها الباي الى عماله ليدعوهم الى السهر على حفظ النظام بمناطقهم ، أجاب كل من عامل صفاقس والمثاليث وعامل نفات ، علي بن خليفة ان الأمن مستتب بتلك المناطق (الراحة والعافية) (18) . ولكن بعد امضاء معاهدة قصر السعيد التي فرضتها فرنسا على الباي ، بدأ الاستياء يعم مختلف المناطق (19) . فشمل في أول الأمر القبائل العتيدة المتعلقة باستقلالها والتي كانت راضية بوجود باي عاجز وأصبحت ترى في « تحالف » ذلك الباي مع فرنسا ، فرض هيمنة يصعب عليها تحملها (20) .

الا ان الوضع بصفاقس ولدى المثاليث لم يكن يثير القلق . فلقد تمادى حسونة الجلولي في توجيه الرسائل المطمئنة ، مكتفيا من حين لآخر بجمع الاعيان لاعلامهم بتطور الوضع وبانتهاء (21) « النازلة بين تونس وفرنسا » (22) وتذكيرهم بنداء الباي من اجل « الراحة والخضوع » (23) .

(17) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 300/215 .
(18) نفس المرجع .
(19) نفس المرجع ـ الصندوق 464 .
(20) علي المحجوبي ـ انتصاب الحماية الفرنسية بتونس : تونس 1977 ص 50 .
(21) وثائق الحكومة التونسية الوثيقة 73 والوثيقة 105 .
(22) نفس المرجع : الصندوق 464 .
(23) نفس المرجع : الصندوق 464 .

وهكذا فان ادارة الباي في صفاقس ، كما في غيرها من المناطق الاخرى ، كانت « تبذل كل ما في وسعها للتخفيف من اهمية معاهدة باردو (24) . وكانت تحاول ان تظهر « انه لم يقع اي مس بالمبادىء الاسلامية » (25) . وذهب بها الامر الى « الاستظهار بنص المعاهدة الصادر بالرائد التونسي لاقامة الدليل على ذلك » . (26) ولكن ، لئن بقيت المدينة هادئة ، حيث تراقبها السلطة مراقبة احسن ، فان المثاليث لم يستطيعوا ان يتخلصوا من تأثير الحركة المناهضة لفرنسا التي بدأت تظهر ملامحها وتتسرب بسرعة وفي نفس الوقت الى بقية القبائل : العقارية ونفات وجلاص والهمامة وبني يزيد الخ ... وانتظمت الاجتماعات بمشاركة ممثلي عدة قبائل لدراسة الوضع الناجم عن معاهدة 12 ماي وتحديد الموقف الواجب اتخاذه . فمنذ يوم 6 جوان انعقد اجتماع (ميعاد) بزاوية سيدي حسن بلحاج (27) الواقعة بين صفاقس والجم وشارك فيه عدد من ابناء المثاليث الى جانب مبعوثي عروش نفات وبني يزيد والهمامة . وتم الاتفاق على ضرورة الاتحاد لاحباط « خطة » الباي الذي لا يمكن ان يغفروا له « تسليم البلاد الى الاجانب » . وفكروا حتى في ارسال 3000 فارس الى جبال خمير لتحرير اخوانهم من الفرنسيين . ولكن لم يحضر ذلك الاجتماع اعيان عرش نفات . فاتفق مندوبو القبائل على ضرورة استشارة زعمائهم ومن بينهم علي بن خليفة عامل نفات (28) والاجتماع من جديد لضبط وسائل العمل . واقترح احد المثاليث ، ابن شرودة ، ان يتم اثر الاجتماع المقبل تدمير 15 عمودا تلغرافيا . ذلك ان البدو قد اعتبروا التلغراف المسير من طرف الاعوان الفرنسيين لا غير ، سلاحا هائلا بين ايدي السلطة « وحلفائها » ، يمكنهم من التجسس عليهم والكشف بسرعة عن نواياهم (29) . والملاحظ ان مصلحة التلغراف ستتعرض ابتداء من ذلك التاريخ للاضطراب في الاتجاهين (30) .

كما قرر البدو الامساك عن دفع الضرائب للمخزن (31) .

(24) محمد الهادي الشريف « ردود فعل سكان المدن على الاحتلال الفرنسي لتونس » .
(25) نفس المرجع .
(26) نفس المرجع .
(27) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 والصندوق 465 .
(28) عبد المجيد كريم : علي بن خليفة النفاتي ـ شهادة الكفاءة للبحث ـ كلية الآداب بتونس 1977 .
(29) علي المحجوبي ـ المرجع المذكور ص 50 .
(30) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ .

وبصورة موازية تفاقمت حركة تهريب البارود ، وهي علامة من علامات التوتر وتمهيد لحركة الاستياء التي ستعم البلد . وقد اثار ذلك قلق السلطة (32) التي قررت تركيز جهاز للمراقبة عرض البحر بصفاقس . (33)

ورغم هذا الهيجان الذي شمل القبائل على وجه الخصوص ، فان صفاقس قد بقيت هادئة . وفي يوم 23 جوان 1881 استمر الجلولي عامل صفاقس والمثاليث على تطمين السلطة المركزية . ولكن انتشر الخبر الذي يفيد بان القبائل المجتمعة في اوائل شهر جوان بزاوية سيدي حسين بلحاج قد قررت نجدة صفاقس لحمايتها من اي اكتساح اجنبي يمكن ان يتم « بمساعدة الباي » (34) . فتقرر في مرحلة اولى الاقتراب من المدنية : نفات بمنطقة الحاج قاسم وورغمة بوادي العكاريت وبنو يزيد بوادي دان (35) .

وكان من نتيجة هذه الاخبار بث الرعب في نفوس الجالية الاوروبية المستقرة بصفاقس وفي نفوس اهالي المدينة الذي لا يفوتهم ان قدوم البدو سيكون متبوعا بالسلب والنهب . فاستدعى العامل اعيان المثاليث الذين كانت قبيلتهم تقوم دائما بدور الحاجز بين صفاقس والقبائل البعيدة ، وحذرهم من مغبة اي تحالف مع جلاص او نفات او غيرهم . فهل وقع الاصغاء لهذه النصائح ؟ على كل حال فان حسونة الجلولي قد اعتقد ذلك واسرع الى مكاتبة الوزير الاكبر مصطفى بن اسماعيل لاعلامه بان « الهدوء مستتب في كل مكان » . ولعل الجلولي بتخفيفه للوقائع كان يحاول اخفاء عجزه تجاه تلك الحركة الواسعة ؟ ولكن رغم تطمينات عامل صفاقس ، فان القنصل العام رسطان مازال منشغل البال ، لا سيما وان الاخبار الواردة من طرابلس خاصة عن طريق التجار الصفاقسيين المستقرين بمدينة طرابلس او بمدينة بنغازي تؤكد قرب قدوم مساعدة عثمانية هامة لاعانة التونسيين على طرد الفرنسيين (36) . وفي 24 جوان وجه رسطان الى ماتيي برقية يوصيه فيها باليقظة ويعلمه بقرب ارسال

(31) نفس المرجع .
(32) نفس المرجع .
(33) نفس المرجع .
(34) نفس المرجع الصندوق 307 .
(35) نفس المرجع الصندوق 465 .
(36) نفس المرجع الصندوق 464 .

بارجة حربية « للتفقد » على عين المكان (37) . ومن الغد عمد ماتيي المحتار اكثر فاكثر ، الى اركاب عائلته في الباخرة « البشير » ، وهي بارجة حربية قديمة تابعة لاسطول الباي راسية في ميناء صفاقس ، الامر الذي زاد في خوف الاروبيين (38) . وفي نفس الوقت ابلغ ماتيي تخوفات الاروبيين الى الجلولي وطلب اليه تعزيز الحراسة بالحي الافرنجي (39) . كما اوصاه بطلب الدعم العسكري من تونس للمحافظة على النظام والامن بالمنطقة . وقام رسطان القنصل العام الفرنسي بتونس بنفس المسعى لدى الوزير الاكبر التونسي (40) . الا ان عامل صفاقس الشيخ الذي يعرف منظوريه معرفة جيدة ابدى اقل فزع ازاء المثاليث المشاركين منذ مدة طويلة للصفاقسيين والمعروفين بطبائعهم الهادئة نسبيا . حيث كان يرى ان هجوم القبائل البعيدة هو وحده الذي يمكن ان يجبر المثاليث على التراجع الى صفاقس . فاكتفى حينئذ بمطالبة الوزير الاكبر بارسال بعض مئات من « الطبجية » المدفعيين ، وبعض الجنود من اصيلي صفاقس للدفاع عن المدينة وردع البدو (41) . اما اعيان صفاقس فقد نصحوا العامل الذي كرر لهم نداء الباي من اجل الهدوء والخضوع (42) ، بعدما اعربوا له عن شواهد الاخلاص ، بتعزيز حامية المدينة وذلك بمطالبة تونس بارسال عدد من الجنود على جناح السرعة ، والافضل ان يكونوا من الصفاقسيين وذلك لحماية المدينة من البدو . ولكن قدوم الجنود قد تأخر عن موعده . (43)

وهكذا فعندما كانت الباخرة الفرنسية « ابن آوى » تتأهب للارساء بميناء صفاقس يوم 27 جوان للقيام بزيارة « تفقدية » في وقت اشتد فيه التوتر بين ابناء المدينة وبين البدو ، اثار قدومها لدى اولئك وهؤلاء كثيرا من القلق واكد تخوفاتهم (44) .

(37) نفس المرجع .
(38) نفس المرجع .
(39) نفس المرجع .
(40) نفس المرجع الصندوق 307 .
(41) نفس المرجع الصندوق 464 .
(42) نفس المرجع .
(43) نفس المرجع الصندوق 307 .
(44) علي الحجوبي ـ المرجع المذكور صفحة 50 .

ثانيا : الثورة الصفاقسية وقمعها

1) حادثة الباخرة « ابن آوى » واندلاع الثورة :

ما ان وصل قبطان السفينة « هنيك » حتى استقبل القنصل المساعد ماتيي الذي احاطه علما بالغليان السائد بالمدينة وبالارياف . فنزل الى الارض مصحوبا بمترجم وتوجه لزيارة القائد الجلولي مرتديا لباسا مدنيا (45) . فلم يلاحظ اي شيء غير طبيعي (46) . ومن الغد ودع ماتيي على الرصيف وتأهب لركوب الباخرة ، عندها انطلقت الصيحات واخذ الجمهور المتألف من بعض مئات من الانفار يهتف « الموت للفرنسي » وتهجم على القنصل المساعد (47) الذي تعرض للاعتداء ولم يتمكن من الفرار الا بصعوبة . (48)

ولقد شعر جميع الاروبيين بالخطر المحدق بهم فأسرعوا الى الشاطىء وركبوا سفن الصيادين المالطيين او زوارق الانقاذ التابعة للبارجة « ابن آوى » . وتمكن آخر الناجين من الخطر ، المدعو « غو » والعامل بمصلحة التلغراف من ارسال برقية الى تونس ، قبل قطع الخط بقليل . ولئن شعر جميع الاروبيين بالخطر ، فان المعنيين بالامر هم في الظاهر الفرنسيون وحدهم . حيث هجم الثائرون على بيت القنصل المساعد وازالوا منه العلم الفرنسي ، ولكنهم لم يتعرضوا الى اعلام الدول الاخرى (49) . فهل يمكن ان نستنتج من ذلك ان الحركة كانت موجهة ضد الفرنسيين ؟ الم يقتل من الغد احد المالطيين لان الثائرين ظنوه فرنسيا (50) ؟ ومهما يكن من امر فقد التجأ الى البارجة « ابن آوى » 130 اروبيا ونقل بعضهم الى الباخرة « البشير » .

فمن هم هؤلاء الثائرون ؟ وهل كانوا مسلحين ؟ لقد اكد ذلك قبطان السفينة هنيك . واضاف قائلا : انه رفض الرد على طلقاتهم النارية خشية ان يصاب الاروبيون المتجمعون بالشاطىء بجروح (51) .

(45) وثائق وزارة الحرب ـ قصر فانسان ـ مجموعة البلاد التونسية ـ مذكرة حول صفاقس .
(46) نفس المرجع .
(47) نفس المرجع .
(48) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ 307 ـ 307 مكرر .
(49) نفس المرجع ـ الصندوق 307 .
(50) نفس المرجع ـ الصندوق 464 .
(51) نفس المرجع ـ الصندوق 307 .

والواقع ان عدد الاروبيين الذين اصيبوا بجروح كان قليلا جدا وحتى ماتيي فانه لم يجرح الا بضربة خشبة (52) . وهل تم اعداد الحركة من قبل وتصميمها منذ امد بعيد ، الامر الذي يمكن ان يفسر وجود الاسلحة على عين المكان ؟ لقد صرح هنيك نفسه بانه فوجىء بتلقائية الحركة « التي انطلقت بغتة » (53) . كما اكد الجلولي في تقاريره على تلك التلقائية ولم يشر الى استعمال الاسلحة النارية من طرف المتظاهرين . ولقد أخبرنا ايضا بهوية المغيرين الذين وصفهم مرارا وتكرارا « بالسفهاء » و « الاوباش » و «رعاع الشعب » (45) . ولقد كثر استعمال عبارة « سفهاء » في مراسلات العمال في ذلك العصر . وامام الحاح الحكومة التونسية ، قام الجلولي بتحقيق صغير . فتبين له ان الجمهور المتحمس منذ بضعة ايام بحركات القبائل المجاورة ، قد تأثر تأثرا شديدا بالاخبار التي تناقلها الناس في كل مكان ، والتي تفيد بان الباي ، بمقتضى المعاهدة المبرمة مع فرنسا « مصمم على بيع البلاد للفرنسيين وتكليف العمال بتنفيذ تلك الاتفاقية رويدا رويدا » . وبناء على ذلك فان ارساء البارجة ابن آوى في عرض سواحل صفاقس بدون سبب مقبول في نظرهم ، لانه لم يقع اي اعتداء على الفرنسيين الى حد ذلك التاريخ ، يؤيد تخوفاتهم . وهذا ما يفسر رد فعلهم ضد الفرنسيين ، وذلك من خلال ممثلهم بصفاقس ، ماتيي .

هذا وان اهالي صفاقس الغاضبين على فرنسا ، كانوا غاضبين ايضا على مليكهم « حليف فرنسا » . الم يخبروهم مرات متكررة بان جنود الباي سيقدمون قريبا على ظهر باخرة حربية فرنسية ؟ فكانوا يصرحون بان « خيانة الباي ناشئة عن معاهدة 12 ماي التي تقضي بتفويته في بلاده » . وبناء على ذلك لم تعد له اية شرعية بالنسبة لرعاياه . وقد شجعت الثائرين الوعود المتكررة حول الاعانة التركية الطرابلسية (55) ، تلك الوعود التي تولى اذاعتها بمهارة المبعوثون العثمانيون الموفدون من طرابلس (56) . وتبعا لذلك فقد رفضوا انزال الجنود التونسيين الذين ارسلهم الباي ولو كانوا

(52) نفس المرجع .
(53) نفس المرجع .
(54) نفس المرجع ـ الصندوق 464 .
(55) ديتورنال دي كنستان (Destournelles de Constant) : السياسة الفرنسية ـ باريس 1891 ص 208 .
(56) علي المحجوبي ـ المرجع المذكور ص 155 .

صفاقسيين ! خاصة وقد انتشر قبل ذلك الخبر الذي يفيد بان اولئك الجنود يريدون الاستيلاء على بروج صفاقس لتسليمها فيما بعد الى الفرنسيين . وعلى كل فذلك ما اكده كل من قائد المدفعية البمباشي محمد الشريف والشيخ محمد كمون (57) . ولقد وجدا بدون صعوبة آذانا صاغية . وابتداء من ذلك الوقت اصبح نفوذهما يتزايد لدى الجماهير . اما الاعيان ، وعلى راسهم ابناء الجلولي (58) حلفاء العائلة الحسينية منذ امد بعيد ، الخائفين على املاكهم ومصالحهم قبل اي شيء آخر ، فقد بذلوا كل ما في وسعهم « لاسداء النصيحة الى اولئك الضالين » . ولقد تمكنوا من ذلك في اليوم الذي وقع فيه الهجوم ، الامر الذي يدل على ان تأثيرهم في الجماهير ، لئن لم يبق على حاله ، فهو على الاقل مازال شديدا للغاية . ولكن الامور ستتغير فيما بعد . ذلك ان الاعيان الممثلين للسلطة السياسية والسلطة المالية سيفقدون مركزهم الممتاز ، ما ان اصبحت شرعية السلطة التونسية والعائلة الحسينية محل اخذ ورد .

وماذا كانت مساهمة المثاليث في هذه الانتفاضة ؟ لقد تحدث عن ذلك كثير من الملاحظين ، وفي مقدمتهم قبطان البارجة « ابن آوى » نفسه . ولكن كيف امكنه التمييز بين الصفاقسيين والبدو ؟ الم يحاول ، باتهام المثاليث والتأكيد على استعمال الثائرين للاسلحة النارية ، تبرير مهمته في عرض سواحل صفاقس والمطالبة بالامدادات العسكرية ؟ ان هذه المسألة جديرة بان تطرح . كما ان الجلولي نفسه ، الذي هو في آن واحد عامل صفاقس والمثاليث ، قد اشار الى مساهمة المثاليث الجماعية في الحركة (59) . الم يكن يحاول هو ايضا توريط قبيلة ، طالبت منذ مدة قليلة من الباي تعيين عامل جديد على راسها ، وهو محمد الجلولي الذي عين اخيرا بالكاف (60) ؟ ومهما يكن من امر ، فان المثاليث ، ولو كانوا حاضرين ، الا ان عددهم لم يكن كبيرا جديدا . وسيرتفع فيما بعد عندما سينضمون باجمعهم الى الحركة الثورية بصفاقس .

(57) محمد المرزوقي ـ صراع مع الحماية ـ ص 271 .
(58) علي المحجوبي ـ المرجع المذكور ـ ص 151 .
(59) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 .
(60) احتلال البلاد التونسية ـ المرجع المذكور ص 82

وعلى اثر ذلك اليوم الحامي ، وهو يوم 28 جوان ، رأى رسطان القنصل العام ومصطفى بن اسماعيل الوزير الاكبر ، من الضروري ارسال امدادات عسكرية الى صفاقس . فاعطي الامر الى وزير الحرب التونسي ليوجه الى صفاقس الف جندي تونسي من العاصمة وخمسمائة من سوسة (61) ، وعين على راسهم الجنرال سليمان بن عاشور . اما القائد الفرنسي فقد اسرع الى المطالبة بالامدادات العسكرية من فرنسا والجزائر ، لا سيما وان الحكومة الفرنسية وهي على ابواب حملة انتخابية ، قد بادرت ، بعد احتلال شمال الايالة ، الى ترحيل العدد الاكبر من جنودها (62) المشاركين في حملة عسكرية اعترض عليها الرأي العام والمعارضة ، اعتراضا شديدا (63) . كما تقرر في 26 جوان حل فيلق الاحتلال . (64) والحقت الفرقتان اللتان بقيتا في تونس بفيلق قسنطينة . ولكن السلط الفرنسية رات انه لا يمكن ترك الهجوم على ماتيي ومواطنيه بدون عقاب ، وذلك رغم قلة عدد الجنود . كما ان قرب الانتخابات التشريعية يستوجب القيام بعمل سريع وفعال لامكانية مواجهة افتتاح الدورة البرلمانية في احسن الظروف (65) . وتبعا لذلك فقد تلقت البواخر الحربية بفرنسا والجزائر الاذن بالتوجه الى صفاقس لمد يد المساعدة الى البارجة « ابن آوى » ومعاقبة الصفاقسيين .

وعمد الباي من جهته لتهدئة خواطر المثاليث واجتناب انضمامهم الى سكان صفاقس ، الى تعيين عامل جديد على راسهم وهو الصادق البحري باش حانبة الذي وصل الى ميناء صفاقس يوم 30 جوان مع الامدادات التي ارسلتها الحكومة التونسية في الباخرة الفرنسية « منوبية » (66) فمنع الصفاقسيون نزول العامل وكذلك الجنود الذين ارسلهم الباي وقد باعوا ذمتهم للفرنسيين ولم يعد الباي في نظرهم مليكهم (67) . كما رفض الثائرون اجراء اي حوار مع مبعوثي الباي ومع العسكريين الفرنسيين وصاروا يحرسون الشاطىء ليل نهار ، بعدما نظموا صفوفهم لمواجهة الهجوم الوشيك حسب

(61) وثائق الحكومة التونسية الملف 307 مكرر الوثيقة 288 .
(62) مارتال (A. Martel)
(63) علي المحجوبي ـ المرجع المذكور ـ ص 46 .
(64) مارتال ـ المرجع المذكور ـ ص 226 .
(65) غانياج (J. Ganiage) المرجع المذكور .

(67) علي المحجوبي المرجع المذكور ص 50 .

رأيهم . ومما يبرر هذه التخوفات ان سفنا حربية اخرى قد ارست في عرض السواحل موجهة افواه مدافعها صوب صفاقس « مدينة الخيار » حسب تعبير الكسندر برودلاي مراسل جريدة التايمس بتونس خلال مدة الاحتلال (68) . ولم يتمكن الصفاقسيون اثناء هذه المحنة الاولى مع الفرنسيين من الحصول على دعم اعيان المدينة ، حيث لم يقف الى جانبهم الا الشيخ كمون بالاضافة الى الحامية العسكرية . ذلك ان هناك اسبابا عديدة تدعو الجنود الى الغضب . فقد كان ينقصهم التأطير كما كانوا يتقاضون مرتبات زهيدة . وبناء على ذلك فقد كانوا سريعي التأثر باية حركة تخلصهم من بؤسهم . ولقد انضم من اول وهلة الى الحركة محمد معتوق قائد القصبة ومحمد الشريف الضابط بفرقة « الطبجية » ، الذي اسرع الى توزيع الاسلحة المخزونة بالبروج (69) وعين بعد ذلك بقليل قائدا للثائرين (70) اي بمثابة « الباي » بالنسبة اليهم . كما تم يوم 3 جويلية تشكيل مجلس مكلف بالسهر على الامن بالمدينة برئاسة محمد الشريف وبمشاركة 40 عضوا من بين الصفاقسيين و10 اعضاء من بين المثاليث (71) . وهو يقوم بدور « الشرطة البلدية » . اما البدو الذين كان عددهم قليلا يوم الانتفاضة ، فقد قدموا من الغد باعداد وفيرة . وقد لعب احد قادتهم وهو عمر بن مقطوف ، دورا كبيرا في التقريب بين الثائرين الصفاقسيين وبين المثاليث (72) . كما قدمت في الايام الموالية افواج اخرى من ابناء القبائل البعيدة للمساهمة في الحرب ضد الكفار (73) « وحليفهم » الباي . وفي نفس اليوم ، 29 جوان تهجم الصفاقسيون وبعض المثاليث على العامل ، ممثل الباي المقدوح فيه . لا سيما وان المثاليث كانوا يؤاخذونه على سلوكه نحوهم ، بوصفه عاملا وجامعا للضرائب وبوصفه ايضا قامع الثورات وبالخصوص ثورة 1864 . ولم ينجح حسونة الجلولي الا حينما التجأ الى زاوية سيدي علي الكراي . ولكن امام مناوشات الجماهير الصاخبة اضطر الى مغادرة ذلك الملجأ يوم الجمعة اول جويلية بمساعدة بعض الاعيان وتوجه الى الفرنسيين طالبا منهم الحماية في

(68) برود لاي ـ المرجع المذكور .
(69) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ الوثيقة 133 .
(70) نفس المرجع .
(71) نفس المرجع .
(72) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 465 ـ الوثيقة 133 .
(74) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 133 .

البارجة « لاما » (74) . وفي نفس الوقت ارسل علي بن خليفة الذي كان مطلعا على ما تجري من احداث بصفاقس ، ثلاثة فرسان للاطلاع على الوضع . وقد كان حاضرا في ذلك اليوم في اجتماع (ميعاد) بترياقة مع قادة بني يزيد والهمامة وجلاص للتشاور فيما بينهم حول الوسائل الكفيلة بمنع احتلال المدينة . ودخل مبعوثو علي بن خليفة الى صفاقس يوم الجمعة ، وهو يوم سوق وصلاة ، ولم يجدوا اية صعوبة لدراسة الوضع والاطلاع على الغليان السائد بالمدينة والالتقاء مع بعض الثائرين وفي مقدمتهم كمون والشريف ، الذين استنجدوا بعلي بن خليفة . وعندما اطلع هذا الاخير على المجرى الذي اتخذته الاحداث اتجه نحو صفاقس يوم السبت 2 جويلية 1881 على راس عدد كبير من الفرسان (75) اما الاعيان الذين تخلى عنهم الجلولي وبالتالي السلطة ، فانهم لا يستطيعون التمادي في التردد اكثر من ذلك ، وقد احاط بهم البدو من كل مكان وتجاوزتهم الجماهير . فانضموا في آخر الامر الى الثائرين الصفاقسيين ومن ورائهم البدو . اجل ، لقد كانوا يبدون من حين لآخر بعض التردد كلما اخبرهم الجلولي من السفينة « لاما » بوصول رسائل الباي التي تحثهم على الخضوع الى السلطة . كما حرضهم على ذلك الجنرال البكوش عامل الساحل ، وقد وجدت رسالته لديهم الصدى الطيب (76) . ولكن علي بن خليفة قد عرف كيف يستعمل الترغيب والترهيب ليصدهم عن ذلك . كما استغل الى ابعد حد العواطف الدينية (77) واستعمل ايضا التهديد ضد ممتلكات الاعيان ، التي كان البدو يرغبون فيها وكثيرا ما كانوا يشبهونهم بالناهبين (78) . ولقد حث علي بن خليفة البدو من طرف خفي على ارتكاب بعض التجاوزات ضد ممتلكات الاعيان ونصب نفسه فيما بعد مدافعا عنهم ، فاطرد كل الذين ثبتت ضدهم تهمة النهب مثل اولاد ايدير (79) . وهكذا ازداد نفوذه لدى ارباب الاملاك الصفاقسيين الذين وجدوا انفسهم بين سلطة ملكية مقدوح فيها لانها حليفة المعتدي من جهة ، وبين جموع من البدو المعسكرين على ابواب المدينة من جهة اخرى .

(75) نفس المرجع ـ الصندوق 307 الوثيقة 11 والصندوق 464 الوثيقة 135 .
(76) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 147 .
(77) حيث لقب نفسه بناصر الدين ـ نفس المرجع الصندوق 46 الوثيقة 147 .
(78) نفس المرجع ـ الصندوق 464 الوثيقة 147 .
(79) احتلال البلاد التونسية ـ المرجع المذكور ص 83 .

فالخيار ليس بالصعب في مثل هذه الحالة ، حيث انهم انضموا الى البدو واتخذوا حينئذ موقفا انتهازيا ، لم ينكروه او يعارضوه ابدا (80) . وهو موقف يتعارض مع مواقف اعيان اغلب المدن الاخرى ، الذين « فضلوا النظام الفرنسي على دخول الحلفاء البدو الى مدنهم » (81) .

2 ـ القمع :

لقد اخذ عدد السفن الحربية الفرنسية الراسية في عرض سواحل صفاقس يزداد يوما بعد يوم . فبعد وصول « لالما » و « الملكة البيضاء » قدمت « لاسارت » و « لابيك » وغيرهما . ومنذ 5 جويلية بدأ قصف المدينة بالقنابل . الا ان الاضرار كانت طفيفة ، نظرا الى طول المسافة الفاصلة بين السفن وبين الشاطىء . فعوض ان يدخل القصف البلبلة على الثائرين زاد في تحميسهم . فكانوا يقومون اثناء الليل بسد الثغرات التي تتسبب فيها القنابل في النهار . وقد عهد بالاشراف على تلك الاشغال الى امين البنائين ، محمد بوزيد (82) . ومن حين لآخر يرد الصفاقسيون على طلقات مدافع السفن بطلقات نارية قصيرة المدى هي ايضا . على ان جنود الباي الموجودين على ظهر البوارج الفرنسية والسفينة التونسية « الاسد » (83) قد بدأت تظهر عليهم علامات الاستياء الواضحة . وقد كان الكثيرون منهم يرحبون بطلقات المدافع الصفاقسية ، بل ان بعضهم قد فضلوا ان بلقوا بانفسهم في البحر للالتحاق بالمدينة سباحة واعانة اخوانهم في الدين (84) . ومن ناحية اخرى فان الصادق البحري باش حانبة الذي لم يفلح في محاولة التفاوض مع المثاليث ، قد طلب من الوزير الاكبر السماح له بالرجوع الى العاصمة ، بعدما اصبح حاكما بلا محكومين (85) . كما طلب القائد الفرنسي من الحكومة التونسية دعوة جنود الباي الى الرجوع ، حيث احجم عن الاحتفاظ بهم مدة اطول ، نظرا الى فرار بعضهم واعتبارا لما ابدوه من استياء . (86)

(80) وثائق الحكومة التونسية 464 الوثائق 131 ـ 132 ـ 147 والصندوق 307 الوثيقة 14 .
(81) مارتال ـ المرجع المذكور ص 257 .
(82) « الاحتلال . . . » المرجع المذكور صفحة 82 .
(83) غندولف (Gandolphe) ـ المرجع المذكور صفحة 25 .
(84) برودي لاي (Broadley) المرجع المذكور ج 2 ص 20
(85) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 307 الوثيقة 13 ـ و 18 .
(86) نفس المرجع ـ الصندوق 464 الوثيقة 140 .

الهجوم على صفاقس

مواقع بواخر الأسطول

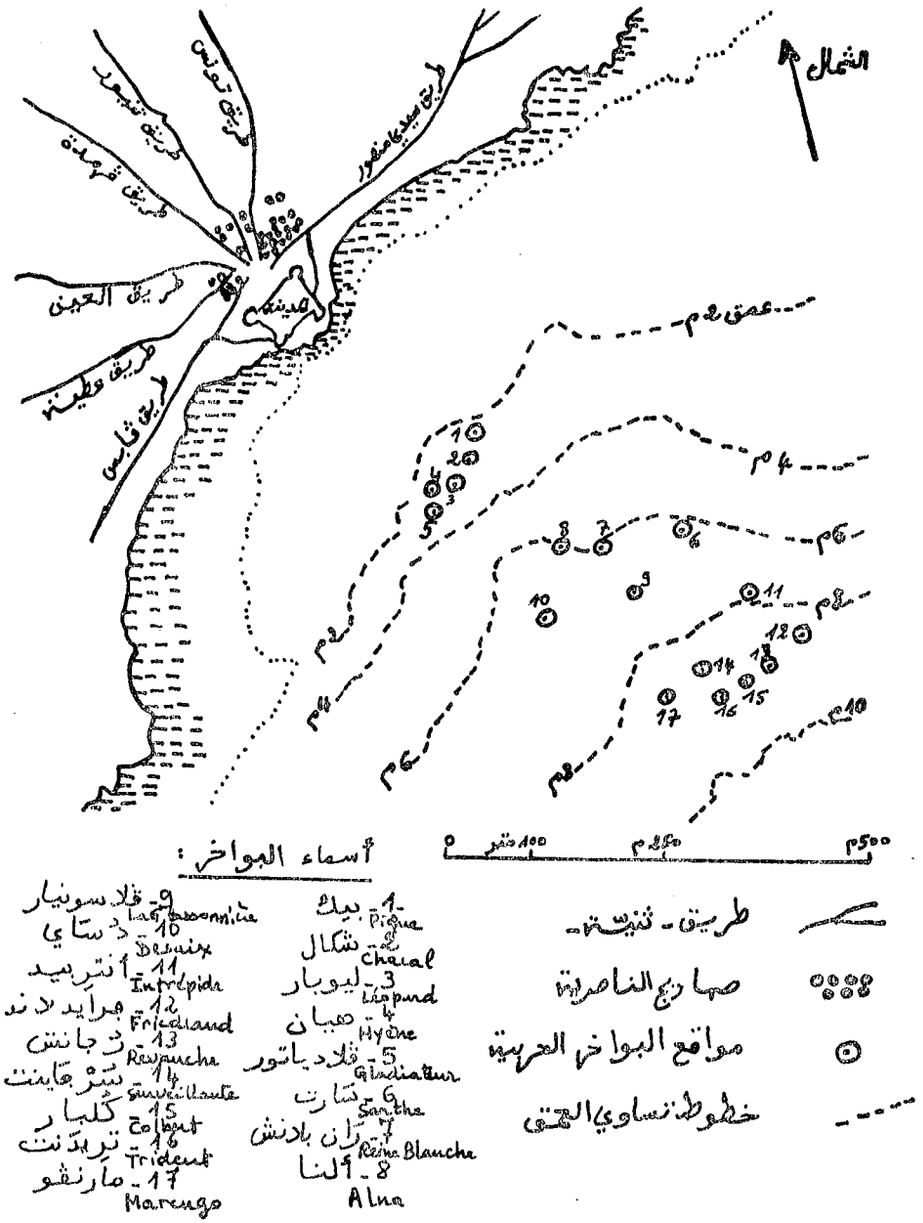

وأخذ كل شق يستعد الى القتال . فشرع الثائرون في حفر الخنادق على طول الشاطىء (87) وبعثوا بالنساء والاطفال الى الاجنة ليكونوا في مأمن من القنابل (88) وسخروا حبوب « العشر » لسد حاجيات خيول الاعراب (89) وخصصوا مداخيل الاوقاف لتغطية مصاريف التموين (90) ، ومن ناحية اخرى فقد تولى صانع الاسلحة الصفاقسي علي خماخم اصلاح الاسلحة المتوفرة لدى الثائرين (91) ، ومن جانب المغيرين ، فقد تم على اثر توقف عمليات القصف ، اعداد مخطط لانزال الجيوش بعد تجميع العدد اللازم من السفن . كما طلبوا من أهالي قرقنة مد الاسطول بما يلزم من الزوارق لانزال الجنود . فأرسل اليهم خليفة قرقنة السعيد قارة نحو العشرين زورقا (92) . ولم يغفر لهم الصفاقسيون « هذه الخيانة » فامتنعوا من ارسال المؤونة الى أهالي جزر قرقنة (93) .

واكتفى المغيرون من 6 الى 12 جويلية بانتظار الامدادات التي أخذت تصل اليهم بدون انقطاع . وفي يوم 14 جويلية اكتمل الاسطول الذي أصبح يضم 17 قطعة حربية و 6000 جندي و 151 مدفعا وغير بعيد عن ذلك الاسطول ، أرست باخرتان انجليزيتان (94) وباخرتان ايطاليتان « الكريدي » و « ماريا بيزا » ولكن تلك البواخر التي جاءت لنجدة رعايا البلدين المذكورين ، لم تشارك قط في المعارك (95) . وانقضى كامل النهار في اعداد عملية الانزال ، وكانت تسمع من حين لآخر طلقات المدافع احتفاء بعيد 14 جويلية (96) . ومن الغد أي يوم 15 جويلية تعرضت المدينة لقصف مكثف استمر كامل الليل ومنع أمين البنائين بوزيد من اصلاح الاضرار . (97)

---

(87) نفس المرجع الصندوق 464 الوثيقة 136 .
(88) نفس المرجع الصندوق 464 الوثيقة 136 .
(88) نفس المرجع الصندوق 464 الوثيقة 143 .
(89) نفس المرجع الصندوق 464 الوثيقة 143 .
(90) نفس المرجع الصندوق 464 الوثيقة 143 .
(91) محمد المرزوقي ـ المرجع المذكور ـ ص 213 .
(92) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 139 و 142 .
(93) نفس المرجع ـ الوثيقة 139 .
(94) مارتال (A. Martel) المرجع المذكور 234 .
(95) غندولف (Gandolphe) المرجع المذكور صفحة 36 .
(96) جيرار (Girard) : ذكريات بحرية ـ 1883 ـ باريس 1895 ص 63 ـ 66
(97) غندولف ـ المرجع المذكور ـ ص 35 .

وفي فجر يوم 16 جويلية أعطى قائد الاسطول أمير البحر المساعد غارنو ، الاذن بانزال الجنود . وتمت العملية بمساعدة الزوارق التي قدمها أهالي قرقنة والعوامات التي صنعت بالامس وبواسطة جسر عائم .

ولا حاجة لنا للتركيز على مختلف العمليات العسكرية (98) ، بل لنلاحظ فحسب ان أهالي صفاقس الذين كانت تنقصهم الاسلحة لم يستطيعوا المقاومة اكثر من اللازم ، أمام قوة القصف الساحقة . فمنذ الصباح الباكر سقط الحي الافرنجي . ثم هجم المغيرون على التوالي على باب الديوان والقصبة بواسطة المفرقعات وتمكنوا من الدخول الى المدينة العتيقة ، وأخذوا في ملاحقة المثاليث وغيرهم من البدو المستقرين خارج اسوار المدينة . وقبل الزوال استولى الفرنسيون على اهم حصون المدينة رغم ما أبداه السكان من مقاومة مستميتة (99) . وعوضوا راية الخليفة العثماني الخضراء التي اخذت مكان راية الباي مدة بضعة ايام ، (100) بعلم الدولة المحتلة . ثم قاموا بتمشيط المدينة حيا حيا . وهكذا فقد قتلوا عشرين نفرا من المسلمين الذين التجأوا الى مسجد سيدي بوشويشة (101) . اما من نجا من الصفاقسيين بعد الغارة ، فقد انسحبوا الى الاجنة . وهذا ما يفسر ان عدد الاسرى لم يبلغ سوى 74 اسيرا . (102)

وبعد احتلال صفاقس يوم 16 جويلية 1881 ، دخل الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية مرحلة جديدة ، ذلك انه بعد توقيع معاهدة باردو ومنذ أوائل شهر جوان ، رات الحكومة الفرنسية من الضروري ، لأسباب انتخابية ، الاكتفاء باحتلال شمال الايالة وتوقيف العمليات الحربية جنوب وادي مجردة بصورة مؤقتة . ولكن الثورة الصفاقسية يوم 28 جوان غيرت مجرى الاحداث ، فالحملة الفرنسية ضد صفاقس لم تكن مندرجة جينئذ ضمن سياسة شاملة لاحتلال البلاد التونسية ، بل كانت تمثل رد فعل سريع أملته الظروف . اذ كانت فرنسا تسعى من خلال تلك العملية الى التأثير في الرأي العام التونسي والفرنسي والتأكيد على نفوذ الباي » (103) .

(98) راجع المصادر العسكرية المشار اليها في هذه الدراسة .
(99) جيرار : المرجع المذكور ـ ص 44 ـ 45 .
(100) وثائق وزارة الحرب ـ قصور فانسان .
(101) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 146 .
(102) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ الوثيقة 146 .
(103) مارتال (Martel) « فشل حركة . . . » ص 275 .

3 ـ عواقب الثورة :

أ) الحصيلة والاستسلام :

بعد الخروج من الحرب ، أخذت صفاقس تحصي أمواتها . فقد كانت الخسائر فادحة : من 800 الى 000 1 قتيل . وهي حصيلة ثقيلة بالمقارنة مع الاربعين قتيلا في صفوف المغيرين (104) .

وعمد علي بن خليفة الذي كان يعسكر غربي المدينة الى تجميع أنصاره من البدو ثم انسحب الى الجنوب . واختار البمباشي محمد الشريف والشيخ محمد كمون وبعض العائلات الصفاقسية ، سبيل الهجرة الى طرابلس .

وفي يوم 20 جويلية استقبل العامل الجلولي والعساكر الفرنسيون وفدا من الأعيان على ظهر الباخرة « لالما » جاءوا لمناقشة شروط العودة . وفي يومي 22 و 23 جويلية أي بعد مرور اسبوع على الحوادث ، رجع الصفاقسيون أفواجا أفواجا الى المدينة ، وقد شجعهم رجال الاحتلال على ذلك . وأعطى المثل الأعيان وفي مقدمتهم الخليفة الفندري والقاضي العذار (105) . فوجدوا بيوتهم مخربة ، ان لم تكن مسلوبة (106) .

أما الفرنسيون ، فبعد احرازهم على الانتصار ، وجهوا اسطولهم نحو قابس ، تاركين على عين المكان حامية تعد 2000 رجل بقيادة الملازم أول دوبوش ، وفي يوم 28 جويلية نزل العامل الجلولي من السفينة بعدما تأكد من نهاية الثورة ، واسترجع مهامه التي وجد نفسه مضطرا الى ان يتقاسمها ، ولو بصعوبة ، مع القنصل المساعد ماتيي (107) ومع السلط العسكرية . واخذت الوفود تاتي ، الوفد تلو الاخر من داخل المدينة وخارجها لتقديم شواهد الاخلاص للسلط (108) . ورغم بعض الحوادث المتقطعة (109) فقد بقيت الحالة هادئة . وتمكنت السلط العسكرية التي أصدرت الامر بتسليم الاسلحة ، من حجز 600 1

(104) راجع بالخصوص وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 الوثيقة 147 .
(105) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 146 .
(106) نفس المرجع .
(107) نفس المرجع الوثيقة 164 و 202 .
(108) نفس المرجع الوثيقة 147 .
(109) نفس المرجع الوثيقة 174 .

بنـدقية ، بالاضافة الى الستمائة بندقية الملتقطة من الصفاقسيين الذين لقوا حتفهم يـوم 16 جـويلية ، واخيـرا تقـرر حالمـا تمت عملية « التهـدئة » ، فـرض غـرامة حـربية على سكـان المـدينة ، وفي يوم 28 جويلية ارسـل الجنـرال لوجـرو على عين المكـان للتفـاوض مع الجلولي حـول هـذه المسألـة (110) .

ب) **تعويضات حربيـة لشق وغرامة حربية للشق الآخـر :**

عندما رجع اليهـود والأروبيـون الى المدينـة ضبطـوا قائمة الخسائر والاضرار التي لحقتهم . وما فتىء قنـاصلهم يتدخلـون لدى السلط لتمكينهم من التمتع بتعـويضات (111) . ولقـد اثـارت قضيـة نهب صفـاقس جـدلا كبيـرا . فكانـت السلط تعتبـر الصفاقسيين والبـدو المسؤولين الوحيدين عن ذلك . واجتمعت في غضون شهـر سبتمبـر 1881 لجنـة دولية تضـم ممثلين عن المصالح الفرنسية والانجليزية والايطالية . وقد عهدت اليها مهمـة النظـر من المطالب والبت في صحتها (112) . ولم تـدرس المطالب الصادرة عن التونسيين . أمـا الأروبيـون فقـد اعتبرت قائماتهم مشطـة حسب رأي أعضاء اللجنـة انفسهم (113) . والواقع أن أغلبهم قد حملـوا معهم اعـز مـا يملكونـه ، وذلك بالرغـم من قرارهم المباغت . اما التحقيق في مسؤولية النهب فلـم تسفـر عن أيـة نتيجـة . ولم يخف القنصل الايطالي رأيـه حـول هـذا المـوضوع . حيث اعتبر خلال تـدخلاته المتعـددة لدى رسطان ، ان الجنـود الفـرنسيين هم المسـؤولون اولا بالذات عن النهب (114) . كمـا استخلص نفس النتائج مراسـل جـريـدة التايمس ، بـرودلاي ، الـذي استجوب التاجـر الانجليـزي غاليا ، الذي كان حاضـرا أثنـاء الانتفاضـة (115) .

ولكـن حتى ولو كان الصفـاقسيون المهزومـون غير مسؤولين بالدرجة الاولى عن اتـلاف الممتلكـات (116) ، فـان عليهم ان يتحملـوا تبعة ذلك . فلقـد نشر الرائـد الرسمي التونسي في 26 أفريل 1883 قائمة الأربعمائـة

(110) نفـس المرجـع الوثيقة 151 .
(111) نفس المرجـع الصندوق 307 ـ الوثيقة 33 ـ 34 ـ 37 .
(112) نفس المرجـع الصندوق 464 ـ الوثيقـة 187 .
(113) نفس المرجـع ـ الـوثيقة 197 و 200 .
(114) نفس المرجـع ـ الـوثيقة 307 .
(115) برود لاي ـ المرجـع المذكور ص 31 ـ 46 .
(116) نفس المرجـع صفحـة 18 .

شخصـا المتمتعين بالتعويضات الحربية (117) التي ستقتطع من مداخيـل الضريبـة الموظفـة على الصفاقسيين والتي حـددت بمبلغ 10 ملايين فرنـك ثم خفضت الى 6 ملايين فرنـك (118) . وقـد وظفت تلـك الضريبة علـى الثـروة لا على الاشخـاص (199) كما وظفت على سكـان المدينة والارياف على حـد السواء (120) . وهي تبلغ عـدة آلاف من الفرنكات بالنسبـة للاغنيـاء (121) وتنخفض الى 100 فرنكـا بالنسبة لأفقـر السكان ولأعـراب المثاليـث والعقاربـة (122) . فهـل نستخلص من ذلك ان تلك الضريبـة ثقيلـة للغايـة ؟ انهـا تعـادل ، بالنسبة لأفقـر السكان ، أي الدافعين لأقل المبالـغ ، مـا يساوي أجـر عـدة أشهـر من العمل (123) .

ولقـد تسبب توزيع وجمع الضريبة الحربية في عـدة مظالم . وقـد حـاول بعض السكان ولا سيما الأعيـان التهرب من تلك الضريبة أو ادراج اسمائهم في قائمـة السكان الاقل ثـراء (124) . كما رفضت السلطة تمكين الصفاقسيين المقيمين بطـرابلس أو مصر والذين لحقت أملاكهم بعض الاضرار، من التمتـع بالتعـويضات الحـربية (125) . بل تم اخضـاعهم لضريبة الحرب رغم أنهم لم يشاركـوا في الثـورة (126) . ولئـن تمكـن بعضهـم من الاعفـاء أو التخفيف من الضريبـة ، على اثـر بعض التدخلات لفائدتهم (127) فـان كثيريـن منهم قـد دفعـوا أكثـر من اللازم . وقد سجـل في السنة الاولى فـائض في الضريبـة قـدره 300 000 فرنك (128) .

ان كثيـرا من الصفاقسيين الذين انتزعت منهم أمـوال كثيرة قد اعلنوا افلاسهم . ذلك انهم عجـزوا عن الاقتراض لعدم قدرتهم على تسديد الديون ، ومنعـوا من بيـع جـزء من ممتلكاتهم قبل دفع كامل الضريبة ، فتعرضت

(117) الرائـد الرسمي بتاريـخ 26 أفريـل 1883 .
(118) وثائـق الحكومـة التونسية الصندوق 307 مكـرر الوثيقة 212 .
(119) نفس المرجـع الـوثيقـة .
(120) نفس المرجع الصنـدوق 307 مكـرر ـ الـوثيقة 122 .
(121) نفس المـرجع ـ الـوثيقة 226 .
(122) نفس المـرجع ـ الـوثيقة 122 و 227 .
(123) كان الجنـدي بحالية صفاقس يتقاضى في المتـوسط فـرنكا واحـدا في اليـوم .
(124) وثـائق الحكومـة التـونسية الصنـدوق 307 مكـرر الـوثيقة 174 .
(125) نفس المـرجع الـوثيقة 223 ـ 224 ـ 230 .
(126) نفس المـرجـع .
(127) علي المحجـوبي ـ المـرجع المـذكور ص 151 ـ 152 .
(128) وثـائق الحكومـة التـونسية الصنـدوق 307 مكـرر ـ الـوثيقة 174 .

ممتلكاتهم للمصادرة (129) . وبناء على ذلك فقد قررت حكومة الحماية بمقتضى الامر المؤرخ في 11 نوفمبر 1883 تخفيض الضريبة من 6 الى 2،4 مليون فرنك (130) وتخلت عن البقية (131) .

ج) الهجرة

عندما استولى الجنود الفرنسيون على صفاقس وجدوها خالية أو تكاد . فكثيرون من اصيلي المدينة قد انصرفوا قبل اندلاع الحوادث ولا سيما النساء والأطفال . أما الذين مكثوا بالمدينة للدفاع عنها فقد فضلوا ، حالما خسروا الحرب ، الالتجاء الى الأجنة وحتى القرى القريبة مثل عقارب أو المدن البعيدة مثل القيروان (132) . وأما الموطون أكثر فقد خيروا الهجرة خشية التعرض للعقاب المحتوم .

ولقد حاول علي بن خليفة بدون جدوى التصالح مع الباي بواسطة والي الساحل العامل البكوش (133) . ثم غادر ضواحي صفاقس متجها نحو الجنوب على رأس رجاله الأعراب . وقد لوحظ وجوده على التوالي بعقارب والشعال ثم وادي ران والحامة والمطوية الى ما وراء وادي فسي . وهاجر الى طربلس في وائل سنة 1882 حيث التحق بالمهاجرين التونسيين البالغ عددهم 000 120 لاجيء (134) . وبدون أن يتمكن من فرض نفسه كقائد للتونسيين بدون منازع ، استطاع انطلاقا من البلاد الطرابلسية توجيه عدة غارات ضد الفرنسيين بالبلاد التونسية وتوفي بيفرن في شهر نوفمبر 1884 (135) .

ولم يكن هناك عدد كبير من المهاجرين الصفاقسيين بطرابلس . فقد سجل بعد سقوط صفاقس انصراف 400 من الصفاقسيين في اتجاه الجنوب . وعند وصولهم الى الحامة علموا ان الجيش التركي يعترض سبيلهم فقرروا الرجوع الى صفاقس . ولم يصل الى طرابلس في آخر الأمر سوى 5 صفاقسيين وعائلاتهم في شهر سبتمبر 1881 ،

(129) نفس المرجع الوثيقة 168 ـ 227 .
(130) نفس المرجع ـ الوثيقة 229 .
(131) الرائد الرسمي بتاريخ 11 نوفمبر 1883 .
(132) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 ـ الوثيقة 147 .
(133) نفس المرجع الصندوق 37 الوثيقة 30 و 36 .
(134) راجع بالخصوص مارتال « حدود تونس . . . » صفحة 290 واحمد القصاب تاريخ تونس المعاصر صفحة 29 ـ 31 .
(135) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ الوثيقة 154 ـ 156 و 171 .

من بينهم الشيخ محمد كمون وابنه حسين وعلي خماخم (136) والحاج محمد الشريف (137) . والتحق بهم فيما بعد محمد الشريف قائد المدفعية الصفاقسية الذي تحول ، بعد اقامة قصيرة بطرابلس ، الى اسطنبول حيث استقبل بكل حفاوة وتبجيل (138) وعمل في الجيش العثماني بصفة عقيد (139) . أما الشيخ محمد كمون فقد فضل التحول الى مالطة للالتحاق بعائلته . ومن هناك وجه عدة رسائل الى السلط التونسية والفرنسية لطلب الأمان (140) ثم استقر بطرابلس حيث أصبح كاتم سر القنصل الفرنسي فيرو وعضده . فكان يخبره بانشطة المهاجرين التونسيين بطرابلس ونشاط الشيخ ظافر ، مندوب السلطان العثماني والمكلف بمتابعة القضية التونسية وتنسيق الدعاية ضد فرنسا . واعترافا بما قدمه محمد كمون من خدمات للقنصل الفرنسي ، تدخل هذا الأخير لدى الحكومة الفرنسية للسماح له بالرجوع الى صفاقس (141) . فتحصل على الأمان في شهر جوان 1882 وتحول الى صفاقس حيث استرجع جميع ممتلكاته (142) وتعاون مع الفرنسيين (143) .

ثالثا : تحليل ثورة مدينة

كانت صفاقس اول مدينة تونسية تثور ضد الاحتلال الفرنسي ولم تقتف اثرها مدن اخرى ، الا ما قل وندر .

ولئن كان احتلال صفاقس ناتجا ـ كما أسلفنا ـ عن عملية فرنسية سريعة وظرفية ، املتها الاوضاع السياسية التي طغت عليها الازمة البرلمانية في باريس ، الا ان العملية المذكورة لم تتوقف عند ذلك الحد بعد انطلاقها .

فلقد انتشرت بسرعة . ذلك انه على اثر سقوط صفاقس ، سقطت عدة مدن اخرى نخص بالذكر منها قابس ، يوم 24 جويلية والعاصمة يوم

(136) محمد المرزوقي ـ المرجع المذكور ـ ص 213 .
(137) علي الزواري ـ المرجع المذكور ـ ص 40 .
(138) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ـ مراسلات سياسية مع طرابلس ج 21 الوثيقة 10 11 .
(139) برود لاي : المرجع السابق ص 14 ومارتال : المرجع المذكور ص 273 .
(140) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 307 ـ الوثيقة 52 ـ 53 .
(141) وثائق وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية ـ المرجع المذكور ج 21 الوثيقة 308 .
(142) محمد المرزوقي : المرجع المذكور ـ ص 274 .
(143) غندوالف ـ المرجع المذكور ـ ص 35 .

10 أكتوبر والقيروان يوم 28 أكتوبر وسوسة يوم 25 جانفي الموالي . ولئن صمدت المدينة الجنوبية الأخرى ، قابس في وجه الاحتلال الاجنبي ، فان القيروان وتونس وسوسة قد فتحت أبوابها في وجه المعتدي ! فهل كان للعقوبة الصارمة المسلطة على الصفاقسيين تأثير ردعي على المدن الأخرى التي لم تبد أية مقاومة ضد الفرنسيين ؟ ولكن كيف نفسر اذن مقاومة قابس بعد سقوط صفاقس ببضعة أيام ؟ اننا نعتقد مثل السيد الهادي الشريف (144) ، أن من أسباب مقاومة المدينتين الجنوبيتين ، عدم تغلغل التجارة الأروبية والنفوذ الأروبي بهما قبل سنة 1881 ، وذلك خلافا لمدن الشمال والساحل « وعلاقتهما النشيطة مع المشرق العربي الاسلامي ، فلا غرابة حينئذ أن تتخليا بسهولة عن ولائهما للباي لفائدة الولاء للسلطان وأن تبديا مقاومة شديدة ضد التسرب الفرنسي في سنة 1881 ، وذلك بالتعاون مع البدو » (145) .

ففي صفاقس كما في غيرها من المدن التونسية اعترض الأعيان الحلفاء التقليديون للسلطة الحسينية ، على القيام باية مقاومة ، لأنها قد تعرض للخطر مصالحهم وامتيازاتهم ومكانتهم الاجتماعية . وهذا ما يفسر كون أعيان صفاقس لم يشاركوا في الطور الاول من الثورة الذي بدأ في 28 جوان . بل بالعكس من ذلك فقد حاولوا « اقناع » اولئك الضالين السفهاء (146) وحماية العامل المعرض للخطر (147) .

أما سكان المدينة الذين ما فتىء بؤسهم يشتد منذ ما قبل سنة 1864 ، فانهم سوف لا يفقدون أي شيء نتيجة لتلك الحركة الثورية التي تمكنهم من التعبير عن غضبهم . (149) أضف الى ذلك ان قدوم الفرنسيين قد جعلهم يخشون تفاقم وضعهم السيء واحتمال « مطالبتهم بدفع الضرائب المتخلدة في ذمتهم بمساعدة جيش الاحتلال » (149) .

ويضاف الى هذا السبب الاقتصادي سبب سياسي . ذلك أن سكان المدينة ، على غرار أبناء القبائل ، قد اعلنوا عن مناهضتهم للباي « المتهم بالتحالف مع الغازين » (150) . فرفضوا شرعية سلطته وأعربوا عن ولائهم

(144) الهادي الشريف ـ المرجع السابق ص 2 .
(145) نفس المرجع .
(146) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 172 .
(147) نفس المرجع ـ الوثيقة 133 .
(148) شارل اندري جوليان « المعمرون الفرنسيون والشبان التونسيون » 1967 ـ ص 94 .
(149) علي المحجوبي ـ المرجع السابق ص 51 .
(150) الهادي الشريف ـ المرجع المذكور ـ ص 37 .

للسلطان العثماني (151) وقد رفعوا رايته واخذوا ينتظرون مساعدته التي لم تصلهم أبدا (152) .

كما ان العامل الديني قد فعل مفعوله هو أيضا . ويمكن تفسيره برد الفعل البدائي ضد الأجنبي والكافر (153) . ولكن الفرنسيين الذين يمثلون وحدهم خطر الهيمنة الحقيقي ، هم الذين تعنيهم ـ حسبما يبدو ـ الدعوة الى الجهاد (154) .

ويبدو ان تلك العوامل نفسها قد فعلت نفس المفعول لدى جنود حامية صفاقس والجنود القادمين من تونس . فقد رفضوا البقاء في خدمة الباي ، بعد « تصرفه » مع الفرنسيين وحاولوا كلهم ، عن طريق الثورة ، قلب الأوضاع الذي من الممكن أن يكون لصالحهم (155) . ولكن باستثناء محمد الشريف الذي سنتحدث عنه فيما بعد ، فان القادة العسكريين قد ظلوا أوفياء للباي الى آخر لحظة ، شأنهم في ذلك شان العامل ، وكما هو الشان أيضا بالنسبة الى قائدي السفينتين الحربيتين « البشير » و « الأسد » حسن عطية ومحمد بن علي .

كل هذه الاسباب المتظافرة قد دفعت جماهير الصفاقسيين أي العوام ، على الثورة ، بمساعدة حامية المدينة ، والحق يقال ، وذلك رغم الأعيان (156) وبدون مساندة القبائل في أول الأمر .

ولم يتحقق التحالف بين سكان صفاقس والبدو الا فيما بعد ، أي بعد الطور الأول من الثورة في 28 جوان . وعندما رأى الصفاقسيون المجرى الذي اتخذته الأحداث وخوفا من العقوبة التي ستسلطها عليهم فرنسا ، وهو أمر لا مفر منه ، مدوا أيديهم للمثاليث ونفات والمهاذبة (157) . ولكنهم احجموا عن ادخال عدد كبير منهم الى المدينة العتيقة وخصصوا لاقامتهم ضواحي لمدينة .

فلقد رفض الصفاقسيون في اول الامر اقتراحات وعروض البدو (158) ثم قبلوها حالما خافوا من استيلاء الكفار على مدينتهم بعد وصول

(151) نفس المرجع ص 41 .
(152) مارتال ـ المرجع السابق .
(153) الهادي الشريف ـ المرجع المذكور .
(154) وثائق وزارة الحرب ووزارة الخارجية .
(155) غندولف ـ المرجع السابق ص 23 .
(156) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 307 ـ الوثيقة 8 و 14 .
(157) جان بونسي ـ المرجع السابق ص 61 ـ 62 .
(158) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 464 الوثيقة 51 ـ 52 .

البارجة « ابن آوى » . ومن بين مختلف الاسباب التي ادت الى تحالف البدو وعامة السكان بالمدينة، يحتل العامل الديني المكانة الأولى . ولم يخف علي بن خليفة ذلك عن عامل الساحل البكوش ، حيث بين له في الرسالة التي وجهها اليه في 13 جويلية (159) أنه قدم للدفاع عن الصفاقسيين « اخوانه في الدين » الذين سلمهم الباي الى الكفار .

وعندما دخل علي بن خليفة الى صفاقس استقبل لا كقائد بل كحليف موضوعي (160) . ذلك أن صفته كقائد للمقاومة البدوية لا تسمح له في نظرهم بأن يكون القائد الأكبر ، وحتى بان يقيم داخل أسوار المدينة . ولا تشير أية وثيقة من الوثائق التي اطلعنا عليها على وجوده بالمدينة العتيقة . فكل التقارير تشير الى وجوده وسط « السمالة » غربي المدينة ، في بيت ريفي من أملاك اليهودي ليا صباغ ، أحد اعوان الباي . وهكذا فقد تحقق ضد فرنسا التحالف لا الاندماج بين الصفاقسيين والبدو . وهذه علامة من علامات الريبة الناتجة عن التوترات المستمرة التي تتسم بها العلاقات بين سكان المدن وسكان البادية .

أما الأعيان ، فان وصول البدو قد أثار فيهم الخوف اكثر من ظهور « ابن آوى » في سواحل صفاقس . ذلك أن العامل الديني لم يكن له تأثير كبير ، ازاء الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية في نظرهم . فلو سمح لهم بالاختيار لاختاروا بمحض ارادتهم « النظام الفرنسي ضد الفوضى البدوية » (161) . ولكن المثاليث ونفات والعقاربة وغيرهم قد تمكنوا من الحصول على محالفة الجماهير الصفاقسية وقد كانت تؤلف بين الفريقين عوامل متشابهة جدا تبعث على الثورة . وتبعا لذلك فان الأعيان الذين استولى عليهم الرعب وأصبحوا مهددين في املاكهم من طرف علي بن خليفة وجماعته ولم يعودوا يتحكمون في الجماهير التي فقدوا كل تأثير عليها ، اضطروا الى التحالف مع البدو ، أعدائهم منذ القديم ، ومع العامة المتركبة من « السفهاء » على حد تعبيرهم .

فهذا الموقف الانتهازي الناتج عن حسابات محكمة لم يدم طويلا . فما ان تيقن الاعيان من سقوط المدينة حتى غادروها ملتجئين الى بيوتهم الصيفية . وبعد انتهاء الحرب اعربوا للمحتلين عن خضوعهم لهم كما أعربوا عن مشاعر تعلقهم بالباي . فكيف نفسر حينئذ الدور الهام الذي

(159) نفس المرجع الصندوق 307 الوثيقة 31 .
(160) مارتال : فشل حركة ثورية في القرن التاسع عشر ـ ص 257 .
(161) مارتال : « حدود تونس . . . » ص 247 .

لعبه منذ اندلاع الحوادث احد ضباط الجيش محمد الشريف واحد اعيان صفاقس محمد كمون ؟

ان محمد الشريف هو قائد المدفعية ورئيس حامية متداعية ، فهل حاول باعلانه للثورة الحصول على تحسين مشكوك فيه لوضعيته ؟ ام هل أنه حاول منع الباي « تسليم البلاد الى الكافر » وهو المعروف بتعصبه ؟ وأخيرا هل انه دعي الى الاعلان عن الثورة من طرف القنصل الايطالي المساعد بصفاقس ، كما صرح بذلك فيما بعد بطرابلس (162) . ولعل جميع هذه العوامل قد فعلت مفعولها مجتمعة ؟ وعلى كل حال فالسؤال يبقى مطروحا . وكذلك الشان بالنسبة لمحمد كمون ايضا . فكيف نفسر انه الوحيد من بين كبار اعيان صفاقس ، الذي اختار منذ اندلاع الثورة ربط مصيره بمصير العوام ، وقد أصبح زعيمهم الحقيقي مع محمد الشريف ؟ انه تاجر مفلس قام منذ سنوات عديدة برهن أملاكه لدى أحد المرابين الايطاليين بصفاقس يدعي بورتالي (163) . فهل حاول عن طريق الثورة قلب الوضع المبؤوس منه لصالحه ؟ لا شيء يسمح لنا بتاكيد هذا الافتراض ، حسب الوثائق المتوفرة الآن .

فبقطع النظر عن بعض الاستثناءات النادرة وعن مشاركة الأعيان بصورة غير تلقائية ومؤقتة ، كانت الانتفاضة الصفاقسية من صنيع العموم الذين دفعوا ثمنها ، فمن بين الالف قتيل ، لم يسجل أي شخص من الاعيان الصفاقسيين المشهورين . فما ان تم احتلال صفاقس حتى اسرع ابناء العذار والفندري والمصمودي وغيرهم من الاعيان ، وكذلك القضاة والخلفاوات أو أرباب الأملاك والتجار الى مغادرة بيوتهم الريفية والاستقرار من جديد في المدينة . وحرصا على استعادة سمعتهم لدى الباي والمحتل ، عرض عليهما الكثير من الاعيان خدماتهم (164) وتعاونوا بحماس مع فرنسا (165) . ولم يمثل محمد كمون وعلي المصمودي حالات شاذة .

فالانتفاضة الصفاقسية هي اولا وقبل كل شيء من صنيع العامة . تلك هي النتيجة الأساسية التي من الممكن الوصول اليها وتأييدها بقائمة الأسرى (166) التي ضبطتها السلط الفرنسية .

(162) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ـ مراسلات طرابلس السياسية ج 21 ص 10 11 .
(163) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 307 الوثيقة 52 .
(164) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 464 ـ الوثيقة 147 .
(165) نفس المرجع ـ الصندوق 307 مكرر الوثيقة 226 .
(166) نفس المرجع الصندوق 464 ـ الوثيقة 152 و 158 .

فاذا ما اعتبرنا مجموعة الاربع وسبعين أسيرا ممثلة للقائمين بالانتفاضة ، نلاحظ من بين الخمس وستين مهنة المسجلة بالقائمة (167) : 16 عاملا يوميا و14 حرفيا و6 جنود أو طبجية و8 فلاحين و6 بحارة و4 تجار . فلا أثر اذن « للعلماء » ولا « لأرباب السلطة » ولا « لكبار الاثرياء » .

فما هو أصلهم ؟ أنهم كلهم من اهالي صفاقس ما عدا 7 من قرقنة و 1 من المهدية . وليس من بينهم اي بدوي . الأمر الذي يقيم الدليل مرة اخرى على ان أولئك « الحلفاء » قد بقوا خارج اسوار المدينة ثم انسحبوا الى الجنوب مع علي بن خليفة على اثر هزيمتهم .

وأخيرا اجتمع مجلس أعيان صفاقس للنظر في مسؤولية اولئك الأسرى في الحوادث ، فاثبت المسؤولية الجنائية بالنسبة لسبعة عشر منهم ، وهم المورطون أكثر من غيرهم ، وابدى شكوكه بخصوص الآخرين . ومن مجموع « المتهمين » السبعة عشر ، يوجد واحد فقط من غير أصيلي صفاقس ومن بين الاربع عشرة مهنة المسجلة بخصوصهم نجد : 5 فلاحين و3 حرفيين وتاجرين و4 جنود . وفي الجملة فانهم ينتمون كلهم تقريبا الى عامة الشعب . وان النتائج المستخلصة من المجموعة الثانية مطابقة لاستنتاجات المجموعة الاولى . وهناك اشارة اضافية واحدة وهو ان 9 أشخاص من بين السبعة عشر شخصا ينتمون الى عائلة الكشو التي بقيت الى يومنا هذا رمزا للمقاومة الصفاقسية ضد الاحتلال الفرنسي .

توفيق العيادي
استاذ مساعد
بكلية الآداب ـ تونس

(167) نفس المرجع ـ الوثيقة 158 .

الجلسة السادسة

رئيس الجلسة : السيد جرمان عياش ، الاستاذ بجامعة الرباط

البحوث :

ـ **السيدة انـي راي غـولد زيغـار**

الاستاذة بجامعة رانس

● الحدود الجزائرية التونسية حسب وثائق وزارة الحربية بفانسان :

ـ **السيد رومان رينارو**

مدير معهد الدراسات التاريخية بميالانو

● ملاحظات حول ردود الفعل الايطالية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية :

الحـدود الجـزائرية التـونسية والحملـة العسكـرية بالبـلاد التـونسية

لقـد عبر لوسيان فافر Lucien Febvre عن أفكار خصبة حول مفهوم الحـدود . وقـد سـار بعض الباحثين في ذلك الاتجاه ، من ذلـك أن نورد مان (Nordman) قـد قـام في رسالته المقدمة لنيل دكتوراه الحلقة الثالثة ، بدراسة مقارنة مفيـدة للحدود الجزائرية المغربية .

وفي نفس الاتجـاه ، اردت ان أكشف النقاب عن الـدور الـذي قامت به بعض الحدود المعلمة المقام عليها الحواجز (حسب الطرق المعمول بها في القرن التاسـع عشر) ، في المغرب العربي الذي يجهل التحديد الطبيعـي ، وذلـك في عصـر التنـاقضات المكثفة : ففي سنـة 1881 انتهكت القـوات الاستعمارية الفرنسية الحدود التي أقامتها للاستيلاء على مجـال مجاور مازل شاغرا .

فكيف كـان رد فعل السكان من هـذا الجانب ومن الجانب الآخـر ؟ وللاجابـة عن هـذا السؤال استعملت وثائق محفوظـات وزارة الحربية اي :

المراسلـة العامـة .... H 194 الـى سنـة 1880 بدخـول الغايـة . أمـا الوثائق المتعلقـة بسنة 1881 فهي محفوظة في أرشيف الولاية العامـة بـآكس بروفانس . لأن في ذلـك التاريخ قد حلت « الحكومة المدنية » محـل الحكومة العسكرية .

هـذا وان السلسة H 2 التي فتحت أخيرا للعموم بعدمـا أعيد ترتيبها وتصنيفهـا تمدنا بعناصر جديدة .

وأخيرا فـان « خلافتين » ستسلطـان الأضـواء على خفايا التاريـخ العسكـري للجملـة .

1) 1K204 : أوراق فاري Farré : ان فاري هذا هو وزير الحربية الذي نظم الحملة العسكرية وأشرف عليها وتعهد بأن يجد حلولا باقل التكاليف لمشكل الاعتمادات المحددة بتقتير من طرف الحكومة وتحقيق الامدادات اللازمة : انه فني ماهر غير محبوب .

2) 1K200 خلافة أوسمون osmont : ويحتوي هذا القسم على وثائق قائد الفيلق التاسع عشر بالجزائر الذي كان محصورا بين وزير الحربية والوالي العام المدني ، وكان موقفه غير ملائم ، لا سيما وهو لا يتمتع لا بعطف هذا ولا بعطف ذاك . فالاول يعتبره غير فعال وغير موثوق به والثاني يعتبره غير متلائم مع السلطة المدنية ومتشبع بتعاظمه العسكري .

ولئن أكدت على هذا المشكل الوثائقي ، فذلك لانه ينم عن وجود عدة حدود ادارية وسياسية واجتماعية تدل على العلاقات الموجودة بين القوى ، والمتطورة باستمرار .

ولكن قبل الدخول في صلب الموضوع ، لنضع المشكل الاقليمي في اطار أعم .

أولا ـ الجزائر في سنة 1881

ها قد مضت عشر سنوات على تسلط القمع الاستعماري على البلاد وعلى انتصار المعمرين الذين يأملون في « ابتلاع او محق الاجناس السفلى من قبل الاجناس العليا » (1) الا ان التشاؤم كان سائدا في سنة 1881 .

1) فقد هبت ريح الفزع على العالم الاستعماري الصغير واصبحت منذ ذلك الحين العبارة السحرية « الامن العام » هي التي تعبىء الرأي العام الاستعماري ضد « اللصوصية العربية » . ذلك ان المعمرين قد تفطنوا باندهاش الى ان القضاء المنتظر على الجزائريين لم يتحقق وان المشكل الاهلي قد ظهر من جديد وان مراجعة أليمة يجب ان تدفعهم الى المطالبة باتخاذ اجراءات قمعية أنجع .

2) وتنجر عن هذه الملاحظة المطالبة باتخاذ اجراءات جديدة باسم المبدا السحري المتمثل في « الحق العام » والمتجه الى ما يلي :

(1) باتاندي وترابو (Battandier et Trabut) الجزائر ـ 1898 .

ـ التوسيع من رقعة التراب المدني (2) وتسليح المدنيين بالاسلحة القمعية التي كانت في حوزة الجيش .

ـ حذف العدلية الاسلامية وفي آن واحد احداث نظام استثنائي معمم بمقتضى قانون 10 افريل 1881 المتعلق بالمخالفات التي يطلق عليها عبارة قانون النظام الاهلي ، وهي عبارة في غير محلها .

ـ الزيادة في الاعباء الجبائية الموظفة على الجزائريين ، وقد أضيفت اليها على مدى عشر سنوات الاداءات الحربية وشراء الاملاك المحجوزة (43 M 5) (3) .

ـ سلب الشعب من ثقافته للتمكن بصورة احسن من تفكيكه وجعله عاجزا عن استردادها . وتحوم تلك العملية حول غرض غير معروف الى حد انه صار من الضروري خلق عبارة جديدة للتعبير عنه .

ويمكن ان نؤرخ ظهور العبارة « الجامعة الاسلامية » ابتداء من سنة 1881 . ويدل ظهور تلك العبارة على بروز « النهضة » الحقيقية في مستوى الشعور واللغة . تلك النهضة التي بعثت من جديد بطريقة غير مباشرة مركب الحرب الصليبية .

فلقد قامت السلطة بعمل مدبر في المستوى المدرسي (حذف المدارس الاسلامية) وفي مستوى الطرق الدينية المفترى عليها والمفقرة والمراقبة من طرف الشرطة وفي مستوى الحج الى بيت الله الحرام المحجر او المحدود .

3) وتطابق أزمة النمو الاستعماري هذه مرحلة انتقالية تقع ما بين الاشكال القديمة الاستعمارية والاشكال التي جلبتها الثورة الصناعية الثانية بأوروبا . حيث تحول المجال الاستعماري من محل ادخار الى موزع للمواد الاولية والمرابيح . ولقد ترتبت على تلك التغييرات تغييرات في الهياكل وفي الاستغلال .

ولقد اتسع نطاق مركزين من مراكز القوى مع ما لهما من سلطة مجحفة هما : شركات الفلين الكبرى بالاقليم الشرقي وشركات الحلفا بالاقليم الغربي .

(2) ارتفعت مساحة التراب المدني من 1.278.000 هكتار في سنة 1870 الى 10.480.000 هكتار في سنة 1981 .

(3) من 1871 الى 1881 : اداءات الحرب : 34 م 5 شراء الاملاك المحجوزة 9 م .

وترمز الى هذه السلطة الجديدة في نظر الاهالي : السكة الحديدية والتلغراف .

وهكذا فقد كانت الجزائر في سنة 1881 في حالة تحول كامل ولكن سيظهر عنصر جديد في الاحصاء الذي جرى في سنة 1881 ألا وهو النمو الديمغرافي الذي أثار اندهاش الجميع وأصبح واقعا حقيقيا . فالاغلبية المستعمرة (بالفتح) ما زالت موجودة بل أخذت في الزيادة .

ثانيا ـ الوضع على الحدود

في هذا الوضع العام المثير للحيرة ، تبدو الحالة على الحدود غريبة .

1) فالجبهة الاستعمارية تشتمل على خطي قوة

ـ المناطق الخاضعة للسلطة العسكرية والتي هي حكر على المكاتب العربية ، وقد أقيمت فيها عدة تحصينات ، استقرت بها « السمالات » والقوات التابعة للقبائل الحدودية المكلفة بحراسة الممرات المفروضة كالقالة وسوق هراس وتبسة والموجهة لفرق الاسعاف والتموين . ومع ذلك فان انتصاب الحكومة المدنية في سنة 1880 قد وضع الجيش تحت سلطة المدنيين وعين للمرة الاولى على رأس مدن الحاميات العسكرية شيوخ مدينة من المدنيين .

ـ ووراء هذا الستار ، فان الجبهة الاستعمارية الرائدة بمنطقة قسنطينة ، تجد نفسها مهضومة الجانب بالنسبة لمطامحها المتجهة نحو الشرق . فهذه الجبهة الاستعمارية المتمثلة في الشركات الكبرى ذات الوسائل العتيدة ، تقوم بدور سياسي من خلال ضغطها على الحكومة بواسطة النواب البرلمانيين الذين يمثلهم أصدق تمثيل النائب طمسون . والحال ان الانطلاقة الاستعمارية بمنطقة وهران تبرز بوضوح تخلف المنطقة الشرقية .

2) المقاومات الجزائرية تفسر هذا التخلف

يبدي المجتمع التابع للمنطقة الشرقية المحكم البناء ، صمودا أشد ، تجاه محاولات التفكيك . فلئن انهارت بعض الاجزاء من البناء برمتها ، الا ان مناطق اخرى بأكملها استطاعت الحفاظ على نظامها

التقليدي . ومن هنا جاءت الخطة العسكرية المفروضة منذ أكثر من عشرين سنة على المناطق الحدودية والمتمثلة في احداث الفراغ لاجتناب تخلي السكان عن تلك المناطق والعمل على تحضيرهم قصد تجميع ما تفرق من شملهم .

فالمجتمع المقيم في المناطق الحدودية هو حينئذ مجتمع مفكك الاجزاء ليس في متناوله سوى ورقتين رابحتين : الهجرة والروابط الدينية .

أ ـ الضيافة التونسية تفتح دار الاسلام في وجه الهجرة

ـ **تصنيف قبائلي** : وهكذا فقد فر أولاد سيدي عبيد من منطقتهم في اكتوبر 1855 . وبعد ذلك بعشر سنوات قامت السلطة العسكرية بطريقة مفتعلة بتجميع أولاد سيدي عبيد من جديد ، وذلك بواسطة تحضير العائلات المفككة في بكارية والماء الابيض ، لحراسة ممرين من ممرات القوافل . وفي سنة 1870 لم يبق أي أثر لذلك . وبعد انتفاضة سنة 1871 تم تنصيب احدى وثلاثين عائلة من عائلات أولاد سيدي الشيخ المحولة (104 شخصا) داخل قبيلة أولاد سيدي يحيى بن طالب .

على ان هذه الخطة المغرية في الظاهر ، والمتمثلة في احداث الفراغ مع انشاء بعض الممرات المفروضة الآهلة بالحضريين ، تتضمن بعض الاخطار الحقيقية : فكيف يمكن مع انعدام جدار متواصل ، مراقبة الحدود التي تسمح بجميع التسربات والمناورات وعمليات التهريب (الاسلحة) ؟

ومن الجانب التونسي فعلت الضيافة مفعولها . فقد تم في أغلب الاحيان تجميع اللاجئين الجزائريين الذين ينتظرون الفرصة السانحة للدخول الى التراب الجزائري قصد استرداد ممتلكاتهم ومراعيهم . وقد وجدوا في تونس دارا اسلامية تسمح لهم بالبقاء . ويمكن ان نضرب ثلاثة أمثلة على ذلك في دائرة تبسة :

ـ فلقد تحول الى تونس أولاد بوغانم التابعون للايالة الجزائرية والمنتمون الى قبيلة الحنانشة ، على أمل ان يدفعوا أقل ضرائب .

ـ وفي نوفمبر 1871 ، استغل اولاد خليفة (فرع البرارشة) علاقاتهم الطرقية مع شيخ الكاف وروابطهم القبلية مع الهمامة للفرار الى تونس . وفي شهر ديسمبر 1871 قبل الباي ولاءهم وسمح لهم

بالاستقرار في سهل السرس (على بعد اثنين وثلاثين كيلومترا من الكاف) .

ـ وفي سنة 1874 التحق بهم سكان ثلاث قرى تابعة لاولاد مسعود ، فالتجأوا أولا لدى الفراشيش ثم توجهوا نحو الشمال .

توجد حينئذ هجرة جزائرية على حدود الايالة التونسية . والملاحظ ان المهاجرين كانوا على استعداد للرجوع الى عروشهم وان اقتضى الامر الرعي خفية في مراعيهم القديمة . وباختصار فانهم يقومون بحراسة يقظة يتمنون ان لا تطول مدتها .

واستقر مهاجرون آخرون بالبلاد التونسية منذ أمد بعيد ، نذكر من بينهم أهالي زواوة المقيمين بالعاصمة التونسية ، وقد ورد ذكرهم في تقرير غريب موجود بوثائق وزارة الحربية (5) . فهم يشكلون « مجموعة خاصة وعسكرية » ويمثلون « أشد القوات العسكرية اخلاصا للباي » . وتتكون نواتهم الاصلية من ابناء قبائل جرجرة الذين انضم اليهم جزائريون آخرون . وهم يعملون ايضا في سلك الادارة بصفة حجاب . وتتولى كتيبة منهم حراسة طبرقة . كما انهم يقومون بحراسة خمس ثكنات وثمانية بروج بالعاصمة التونسية .

ب ـ ان الروابط الدينية المتينة والوثيقة لا تعترف بالحدود الاستعمارية ، وقد سمحت باقامة علاقات ثقافية وسياسية متواصلة . فتنشىء الطرقات والمسالك التي لا يعرفها الا المطلعون ويعبرها الرجال والاخبار .

وان الطريقة الرحمانية التي يمتد نفوذها من جرجرة الى الصحراء تشع حول زاوية خنقة سيدي ناجي . وان أحفاد الشيخ عبد الحفيظ بن محمود موزعون بين تونس والجزائر ، وقد ربط مقدمو الطريقة في المنطقة الممتدة من طلقة والواد الى نفطة ، علاقات متواصلة فيما بينهم . وقد كان ذلك الدور دوما وأبدا محل ريبة ، ويعارضه الدور الذي تقوم به الطريقة القادرية المركزة حول مدينة الكاف منذ ان استرجع الشيخ محمد الميزوني سلطة طريقته بمباركة المكاتب العربية . وقد كان يقوم بزيارات متكررة لمدينة تبسة التي تمركزت بها الطريقة بقوة . ولكن السلط الاستعمارية لم تضع كل ثقتها فيه

(5) وثائق قصر فانسان K.200

نظرا الى حرية تفكيره وما يقوم به من نشاط . وبالعكس من ذلك فان الجميع متفق على الوثوق بخلفه السيد قدور ، لا سيما وهو عميل المسيو « روا » القنصل الفرنسي وعون المخابرات ورئيس مصلحة التلغراف ، رسميا . ولقد مكنت الخطة الاخيرة السيد قدور المطلع على الانباء قبل غيره ، من التنبوء بالاحداث ، وهي ميزة ثابتة لابعاد أي منافس .

فالخطة الاستعمارية ترمي حينئذ الى اقامة حدود سميكة ومحروسة عسكريا ، لاجتناب أي تنظيم او عدوى او نزيف . ولكن الواقع المغربي يختلف عن ذلك : فالمنطقة الحدودية تمثل ملجأ يسمح للقبائل بالنجاة وقتيا من تجاوزات الدول وتمكن التضامن من القيام بدوره على أكمل وجه ، باستثناء بعض الغارات التي تكتسي صبغة اقتصادية أكثر منها سياسية . الا ان الحدث المتمثل في احتلال البلاد التونسية قد غير جميع معطيات المشكل . فكيف كان رد تلك المنطقة الحدودية على تلك الحوادث ؟ وما هي التغييرات الحاصلة في العاجل ؟

لا يمكن القيام بدراسة شاملة حول هذا الموضوع ، لان المشكل كبير جدا ولكن يمكن اجراء الدراسة بالنسبة لفترة قصيرة حول الصدمة الناتجة عن الحدث وذلك بالاكتفاء بمجموعة من الوثائق المحددة في الزمن والتي لا تتجاوز تاريخ استقالة الوالي البار غريفي في أفريل 1881 .

ثالثا ـ المرحلة الاولى حتى شهر نوفمبر 1880 : حدود بلا مشاكل

لم تقع الاشارة الى تلك المنطقة الهادئة ظاهريا في التقارير العسكرية الشهرية الا بعبارات مهدئة في الفترات الاخيرة (6) وينم هذا الوضع عن علاقات حدودية « لم تكن مرضية أبدا بمثل هذه الصورة . فالنزاعات تفض عن طريق مؤتمرات دورية ثنائية » .

ـ ففي الشمال يجري المفاوضات بحنكة ولباقة الجنرال رشيد

ـ وفي الجنوب تسوى الخلافات بين الطروديين وبني يزيد بمدينة قابس .

(6) H.1/93 التقارير الشهرية ـ 1874 ـ 1880 .

ولقد سمح وجود جيوش الباي بالحدود بتسوية الخلافات بين القبائل المتجاورة (نوفمبر 1878) . ولا مجال لذكر الخلافات الدبلوماسية التي لم تؤثر في بعض المناوشات الناجمة عن طيش وشتاتة او الفراشيش ، وقد قامت بقمعها جيوش الجنرال رشيد . (7)

فالتعاون واضح بين الجانبين :

ـ لملاحقة المنحرفين من هذا الجانب او من الجانب الآخر . وقد كان الجيش الفرنسي يساهم في أعمال جيوش الجنرال رشيد بمنع الفارين من دخول التراب الجزائري .

ـ وتعتبر مصلحة البريد مضربا للمثل . « فالفرسان الجزائريون يحملون البريد من مكتب سوق هراس الى غار الدماء ، مع ترخيص خاص لحمل السلاح في تراب الايالة . وهذا ما يقيم الدليل على علاقاتنا الممتازة » (8) .

ـ كما يقيم الدليل على ذلك ، البحث المتبادل عن المعارضين السياسيين . . . وهكذا فقد تمكن الشريف العامري الذي كان موضوع الاحاديث في سنة 1879 ، من الهروب واللجوء الى نفزاوة . فأمر الباي جنوده بالقاء القبض عليه ، بالاتفاق مع الحكومة الفرنسية . وحصل نفس الشيء في سنة 1879 بعد انتفاضة الاوراس .

ويتضح من التقارير العزم الواضح على التقليل من أهمية الحوادث . ففي فيفري 1875 أفضت الاشاعات المتعلقة باحتمال احتلال البلاد التونسية الى الاستنتاج التالي « ليس لها أي نصيب من الصحة » .

ونلاحظ نفس الاغتباط في سنة 1880 ، حينما نجح المؤتمر الثنائي المنعقد بذراع الخروب من أفريل الى 18 جوان 1880 . وقد سمحت نتائج المؤتمر الايجابية « التي نالت استحسان الجميع » ، باعادة العلاقات الاقتصادية في أفريل 1880 : حيث قدمت الى الجزائر 20 قافلة تونسية لبيع الاقمشة والفواكه في مقابل الحبوب .

ونلاحظ نفس التفاهم لمقاومة حرائق الغابة .

ومع ذلك فقد ظهرت بعض علامات الخطر في اواخر سنة 1880 ، وهي تتمثل في تمرد قبيلة وشتاتة من جديد واشعال النار في الغابة الدولية بالجزائر وتكاثر عمليات تهريب الاسلحة والذخيرة بالجنوب .

(7) التقارير الشهرية اكتوبر 1878 .
(8) التقارير الشهرية 1880 ـ 9 ـ 10 .

فهل ان تلك العزيمة على اظهار السلم السائدة بتلك الربوع ، تدل على اعتزام الجيش التبجح بنجاعته في الوقت الذي يستعد فيه لترك مكانة للسلطة المدنية ؟

بدون اهمال هذا الجانب من الدعاية ، فان الجيش قد ركز اهتمامه على المناطق الاكثر خطورة ، اعني المنطقة الصحراوية التي مازالت منطقة نفوذه والتي تتعاقب فيها الثورات من الشرق الى الغرب .

ولكن من الناحية الرسمية لا تثير المنطقة الحدودية اي مشكل ، فجميع المشاكل يتم فضها بالتراضي في كنف التعاون الموثوق به .

رابعا ـ المرحلة الثانية من أوت 1880 الى ديسمبر 1880 : تحرك المنطقة الحدودية

بدأ التحرك بشكل خفي من الجانب الجزائري ـ وتدلنا عليه الاسرار التي تتضمنها الوثائق . (9)

العنصر الاول : ففي شهر اوت 1880 طلب الوالي غريفي من الجيش التحرك في اتجاه الحدود التونسية . وقد كان من اللازم توجيه رسالة شخصية من رئيس مجلس الوزراء الى وزير الحربية لتهدئته ، حيث كان غاضبا على عدم احاطته علما « بهذا الاستعراض غير المجدي الذي اصبح غير ذي موضوع بعد تنازلات الباي » .

العنصر الثاني : ولكن القضية لم تنته . فقد وجهت رسالة جديدة يوم 17 نوفمبر حول موضوع « السر الذي اذيع انطلاقا من خطاب الجنرال سوسيي بتاريخ 14 اكتوبر في الساعة 44 . 5 » . وفي هذه المرة لم تحط علما بالخطاب الا « رئاسة الجمهورية والداخلية » واهمل رئيس مجلس الوزراء . اذ يجب كتم السر بصورة مطلقة .

« ولقد ذاع السر انطلاقا من الداخلية » .

العنصر الثالث : ان البرقيات الصادرة من شهر نوفمبر الى شهر ديسمبر المتبادلة عن طريق الرموز بين وزير الحربية وقائد الفرقة التاسعة عشرة ، تدلنا على اعداد تدخل عسكري ، حتى قبل المقابلة بين بيزمارك وسان فاليي :

(9) 1.K.204 الملف رقم 10 ـ و 2.H.4 البرقيات المؤرخة من نوفمبر الى 80 الى افريل 81 .

- فقد تقرر تجميع فرقة تضم عددا من الجنود يتراوح بين 3 و 4000 رجل على الحدود التونسية مع استعمال السكة الحديدية .

- واصبح من الضروري استنباط « تعلة مقبولة جدا » للتدخل وتنظيم قيادة « استعجالية » .

- وفي اواخر شهر نوفمبر اصبح الهدف واضحا ، فقد تم التعرف على المراحل الموجودة بين سوق هراس وتونس بما فيها من نقاط ماء وتموين .

- وشرع في تدريب الجيوش الجزائرية مع « جولات عسكرية » على مسافة 35 كلم ووقع التفكير في جلب فرقتين من فرنسا .

- كما تم تخزين المؤونة على الحدود لمدة 15 يوما . الا ان برقية مفزعة بتاريخ 7 ديسمبر قد اشارت « الى اسرار الجزائر » . وابتداء من ذلك التاريخ اصبحت باريس على علم من القضية . وحاولت الجزائر مواصلة العملية الى اواخر الشهر . ولكن القضية التي ذاع خبرها لم تتوصل الى النهاية . فاغلق الملف ، ومع ذلك فقد تمت الامور التالية :

- لقد تم القيام بالعمل التمهيدي (الامدادات الواردة من فرنسا وتسخير البواخر للنقل الخ ...) .

- وقد اثار ذلك غضب وزير الحربية على الجنرال اوسمون .

- واصبح من اللازم كتم سر العملية حتى تكون ناجعة وقصيرة الامد (15 يوما من الحدود الى العاصمة التونسية) .

وباختصار فان الامر يتعلق بتنظيم « جولة عسكرية » ذات ابعاد سياسة ، في كنف السرية : « يجب ان تخفق اعلامنا الجمهورية بهذه المناسبة » . (10)

خامسا ـ المرحلة الثالثة : يجب انتظار اواخر شهر مارس 1881 لتدب في الحدود حياة جديدة وتصبح المنطقة قاعدة انطلاق

في 30 و 31 مارس تم العثور على « التعلة المقبولة » . فقد هجم اهالي خمير خلال يومين متواليين على القبائل الحدودية من اجل مسألة « الدية » وكانت الخسائر جسيمة من الجانب الجزائري :

(10) 2.H.4 برقية بتاريخ 13 ديسمبر 1880 .

4 قتلى و 6 جرحى . فكان رد فعل الجنرال اوسمون سريعا ، حيث اقترح التغلغل في التراب التونسي على مسافة 25 كلم ، بعد الحصول على رخصة من الباي . وفي صورة الرفض يتم القيام بعملية عسكرية مع الاستيلاء على مدينة الكاف المحصنة التي يمر منها التلغراف . وقد اعاد الى الاذهان بهذه المناسبة عملية الكولونيل فلاترس . (11)

وانطلق الجهاز بسرعة وكأن العملية كانت مدروسة من قبل بترو . وفي اول افريل تم اتخاذ القرار الحكومي . حيث اعلم وزير الشؤون الخارجية بذلك شفاهيا من طرف قائد الاركان الجنرال بلو . وفي 2 افريل وافق مجلس الوزراء على القرار . وعين الجنرال فور جمول على راس الحملة العسكرية . وفي 3 افريل اقلعت البواخر لنقل الجنود . وفي باريس قام الجنرال فاري بتنظيم الامدادات بطريقة منسقة والسهر على توجيهها . وخوفا من استنفار الرأي العام الفرنسي واثارة معركة سياسة عمد الوزير الى ذر الرماد على العيون . فقرر ان يؤخذ من كل فيلق فريق يتحول الى ميناء تولون للابحار في اتجاه عنابة . وفي 7 افريل كان المخطط العام جاهزا . فتقرر خرق خطوط مقاتلي خمير من ساقية سيدي يوسف الى غار الديماء والكاف ، مع القيام بعملية عسكرية في اتجاه مجردة وانزال الجنود في نفس الوقت بطبرقة .

ولكن العلاقات البشرية قد ساءت . فالجنرال اوسمون الذي احتج برتبته واقدميته يطالب بالحاح بتولي القيادة العامة والحضور على ارض المعركة . ووزير الحربية يرفض ذلك الاقتراح باستعلاء ويجتنب اعلامه بالقرارات المتخذة في هذا الشأن ، خشية اذاعة السر . اما الجنرال فورجمول فهو يراسل الوزير مباشرة ، مضخما حاجياته للتعظيم من شأنه . ولقد ثار المسؤولون بفرنسا على البطء الحاصل في تركيز الجهاز المقرر ، قائلين : « استعملوا السكة الحديدية ووسائل النقل الاخرى ولكن اسرعوا . فان الرأي العام يدعونا الى التعجيل والاعتبارات السياسية اكثر من ذلك ... فالمسألة متأكدة للغاية » . (12)

واتضح ان تاريخ 19 افريل المحدد في اول الامر ، غير ممكن . فاقترح فورجمول يوم 24 ، وعندما اعلم الوزير يوم 20 افريل

(11) 2.H.4 برقية بتاريخ 2 افريل في الساعة 30 ، 12 .

(12) 2.H.4 البرقية المؤرخة في 15 افريل 1881 .

فورجمول بتعهد الباي بعدم السماح بمهاجمة الجنود الفرنسيين ، اضاف قائلا : « اعلمتكم بذلك للاحاطة ولكن لا تغيروا اي شيء مما تم الاتفاق عليه » . فهذه البرقية المرموزة الموقع عليها من طرف رئيس مكتب الوزير تدل على ان القرار لا رجعة فيه .

ونتيجة لهذا التسلسل للاحداث ، كيف كان الوضع على الحدود ؟ فمن الجانب الجزائري يتعلق الامر قبل كل شيء باخفاء التحضيرات والاهداف على التونسيين وذلك بالتمويه عليهم بمؤتمرات التصالح كما كان الشأن في الماضي . وقد تحول الجنرال ريتر الى معسكر العيون على حدود منطقة خمير « لحماية قبائلنا » ، وكان على اتصال يومي مع ممثل الباي السيد علالة الجويني الذي توجه على عين المكان . وقد لاذ الجنرال الفرنسي الذي تنقصه المهارة الدبلوماسية بالصمت واخر جوابه الى الغد لربح لوقت .

وعلى الصعيد العسكري ، كان وضع فرق التدخل سيئا الى حد ان الجنرال فورجمول قد اضطر الى البقاء بعنابة ، في انتظار الامدادات ، ثم حاول الجمع بينها وتنظيم الفيالق كيفما كانت الحالة ، فكان بعض الفيالق يفتقر الى المعدات والبعض الآخر تنقصه الخيول او الذخيرة ، والجميع بدون مصلحة صحية ولا مصلحة ارشاد . وباختصار فقد كانت الفوضى عامة . وتعذر نقل الجنود بالسكة الحديدية ابعد من 12 كم عن سوق هراس . وينتهي الطريق بمسلك للبغال تورطت فيه المدفعية ، فالطبيعة قد زادت من الفوضى والامطار تنزل مدرارا .

ولم تكن السلط العسكرية بباريس شاعرة بهذا الوضع . فحلول الدورة البرلمانية يعتبر في نظرها اولى من كل شيء . وبناء على ذلك فقد قرر وزير الحربية الذي ضايقته التأخيرات المتوالية ، يوم 18 افريل جس النبض بطبرقة ، فأرسل للقيام بعملية استطلاعية البارجة « الضبع » التي قوبلت بالطلقات النارية . ومن الغد حاولت البارجة « الحارسة » بدون جدوى انزال الجنود . وتقبل التونسيون بارتياح هذه الهزيمة التي كانت لها انعكاسات ملحوظة بالجزائر . وحرصا على سد الثلمات قرر الخبراء العسكريون حينئذ استعمال القبائل الحدودية لتحقيق مخططاتهم . فاعفوا فيلق التدخل من مهمته الهجومية في نقطتين هما : الجريد المهدد من طرف قبائل سوف والمنطقة الواقعة جنوب الكاف والمهددة من طرف قبائل تبسة .

ولقد تقبلت الجزائر هذا المخطط الذي ضبطته سلط باريس ، باحتراز واقترح الجنرال اوسمون الذي ابدى أكثر واقعية ، القيام « بمجرد استعراض على الحدود التي لا ينبغي اجتيازها مهما يكن من امر » (13) . وسيتمركز جنود القوم بنقطتين هما فج بكارية الذي يفتح طريق تبسة وزريبة الوادي للدفاع عن منطقة سوف . ولقد كانت ثقة جيش الجزائر بجنود القوم التابعين للقبائل ، محدودة للغاية وذلك منذ انتفاضة سنة 1864 . ومن هذه المشاريع الذائعة تولدت بعض الشائعات التي اثارت التخوف والاضطراب حتى خارج المنطقة الحدودية .

فمنذ شهر افريل صارت مقاطعة قسنطينة في حالة غليان وبالخصوص في منطقة بوعريريج . واضطرت قوات الامن الى اتخاذ اجراءات احتياطية في كل مكان . واشتدت الحراسة على الزوايا وتكفلت الاعتقالات بردع اي هيجان في منطقة العمامرة الخطيرة بخنشلة . وفي الجنوب توقع جميع الناس تصعيد عمليات القمع . وقد حاولت القبائل مغادرة تلك المنطقة التي من الممكن ان تشهد مواجهة محتملة حتى قبل فصل الصيف . وذلك ما سعت اليه سمالة علي باي او عرش بن غانة اللذين طلبا الترخيص لهما بالرجوع الى منطقة التل في فترة مبكرة . ولقد اصبحت « المؤامرة الاهلية » الموضوع المفضل لدى المعمرين والسلط التي اثارت في 25 افريل قضية الجمعية السرية المعروفة باسم « قضاة غالمة » . وترتبت على تلك القضية الاعتقالات الجماعية وتفتيش المنازل ، وهي قضية خرقاء اصابت القضاة المسلمين . وقد تمكنت السلطة بتلك الطريقة من القضاء على من كان الرأي العام الاستعماري يطالب بحذف مناصبهم وستكون لهذه القضية ذيول في سنة 1882 ، تمثلت في اطلاق سراح الموقوفين (حيث لم تثبت ضدهم اية تهمة) . ولقد ثارت ثائرة الصحافة الاستعمارية التي نددت بعنف بالخطر . كما اثارت فزع الجالية الاروبية بقسنطينة حملة من الشائعات المدرجة بحكمة . وكانت المناسبة طيبة للمطالبة باسم الامن العام ، باحداث قوات اضافية لفرق الجندرمة التي اعتبرت غير كافية . وقد طالبت بذلك البلديات المختلفة (مثل بعض القرى الواقعة على بعد 6 كم من قسنطينة) وابلغت طلباتها الى الحكومة الفرنسية بواسطة النائب طمسون . كما انتهزت السلطة الاستعمارية « الانفعالات » للقيام

(13) 1.K.200 20 افريل .

خفية بتسوية بعض المشاكل الشائكة بصورة مخالفة « للحق العام » : من عدالة وشرطة وغير ذلك ...

ومن الجانب التونسي كانت الاخبار تكتسي اقل دقة . ففي اواسط شهر افريل انتشر الخوف واكدته اشد الاشاعات غرابة . فقد اعلن في زاوية بني مزان احد المشايخ القادمين من تونس « ان باي طرابلس قد ارسل جنوده عن طريق السكة الحديدية لمد يد المساعدة الى باي تونس حيث تقرر اعلان الجهاد في تلك السنة » . وختم المخبر تقريره قائلا : «ان هذه الاشاعة خطيرة ولو ان الخبر غير صحيح ، لان الجهاد يهم كافة المسلمين » (14) سواء كانوا تونسيين او جزائريين . ومنذ يوم 14 افريل تم قطع الاسلاك التلغرافية في منطقة الكاف ، وبعد اصلاحها قطعت من جديد في 26 افريل .

وكانت التقارير تكثر من الاخبار والتحذير من الطرق الصوفية بمنطقة الكاف . فقد اشار المسيو روا الذي هو دائما حسن الاطلاع ، الى وجود شخص معروف جيدا في التاريخ الجزائري الا هو السيد الفضيل ، الرجل المثقف والنشيط والمرشد باستمرار ولكن تحت طي الخفاء ، فهو يظهر كلما نشبت معركة من المعارك ، فنجده وهو شاب في منطقة الحضنة في سنة 1860 كما نجده في سنة 1864 الى جانب سي لعلاع بصفة خوجة وفي سنة 1871 بسوق هراس اثناء ثورة الجنود الرماة فهو يواصل بلا فتور سعيه الى الوحدة بواسطة الطرق الصوفية وينصح « القادة الدينيين . بمنطقة الكاف بالالتجاء الى القيروان » . وهذا الاختيار للمدينة المقدسة يدل على رغبته في توجيه المقاومة التونسية نحو الوحدة الطرقية الكفيلة وحدها بتجاوز الانقسامات القبلية . « فالقادة الدينيون يسلحون الطلبة » (15) حسب الخبر الذي ابرق به المسيو روا . ولقد تبين ان الطريقة الرحمانية على غاية من الخطورة ، لا سيما وهي تحت تأثير اللاجئين الجزائريين المستعدين للمقاومة حتى النهاية والذين يحثون سكان المدينة على المقاومة (16) . واستعمل « روا » ضد هذا الخطر عميله سي قدور المعارض لنفوذ القادرية والمناصر للسلم الفرنسية .

(14) 1.K.200 12 افريل .
(15) 1.K.200 25 افريل .
(16) 1.K.200 البرقية المؤرخة في 14 افريل .

وهكذا فقد كانت المنطقة الحدودية باكملها في حالة فزع في افريل 1881 . فالخوف طاغ من الجانب الجزائري والمقاومة طاغية من الجانب التونسي . فهل من الممكن التفكير في شن هجوم من طرف القبائل الجزائرية ضد القبائل التونسية ؟ وهل يسير الوضع نحو « الفوضى القبلية » ؟

سادسا ـ المرحلة الرابعة : المنطقة الحدودية تساهم في الحرب من شهر ماي الى شهر اوت 1881

لم تكن نتائج « الجولة العسكرية » منتظرة . فقد فعلت المقاومة التونسية مفعولها . وفي الطرف الآخر من القطر الجزائري هجم اولاد الشيخ وبوعمامة واظهرت الجيوش الفرنسية انها عاجزة على حماية التل الوهراني . ذلك ان الحملة العسكرية بتونس قد جندت اغلبية القوات الفرنسية بالجزائر . وتم توجيه من تبقى من الجنود نحو جنوب وهران . ففي اواسط شهر جوان لم يبق بعاصمة الجزائر سوى « فيلق صغير تابع للخط الثاني والثلاثين » (17) . كما طلب الفيلق التاسع عشر بالحاج الامدادات من فرنسا . وفي هذه الظروف ، اصبحت الحالة على الحدود مثيرة لانشغال البال . وتشتمل ملفات فانسان على تقرير (اشير اليه في فصل نشر بالمجلة التونسية للحضارة المغربية) وهو تقرير ساندير Sandherr (18) فالقبطان ساندير مكلف بتنظيم مصلحة الاستعلامات اثناء الحملة العسكرية . وقد انتدب مراسلين لامداده بالمعلومات . واول من انتدبهم الآباء البيض « الذين هم على اتصال بالقبائل » . وقد وضع السيد لافيجري شرطا وحيدا لذلك الا وهو : « السرية » (19) . فقد كان القبطان ساندير الذي يتكلم العربية ولا يرتدي الزي العسكري يتحصل على المعلومات بصورة ناجعة في منطقة عنابة ويتلقى مراسلات وافرة . وقد لاحظ اذن منذ يوم 19 افريل « التأثير السيء للغاية لمحاولة طبرقة الفاشلة » . وفي اواخر افريل اشار الى معارضة الجماعات بعنابة « فالمسلمون حذرون للغاية ويبدو انهم مرتابون من الاروبيين » . وقد استمع الى بعض الشكاوي « شكاوي اهالي الجزائر وبعض المرافقين واصحاب البغال من دخول فرنسا في حرب ضد المسلمين » .

(17) 2.H.5 16 – 6 – 1881 .
(18) 2.H.1
(19) نفس المرجع .

– ويضاف الى هذا المأخذ العقائدي مأخذ آخر اقتصادي : ففي مثل حالة الجدب هذه السائدة بالجزائر في ذلك الوقت بالذات ، يثير اي تسخير او ابتزاز اقتصادي او اعمال اجبارية « استيياء » الجزائريين لا سيما وقد بدأت الاشغال الزراعية « فينبغي الاحتياط » من جميع فرسان القوم ومن المرافقين . انهم جميعا غاضبون وبمجرد أية انتكاسة لجيوشنا سينقلبون ضدنا .... ان جميع عمليات تسخير الفرسان والبغال قد ضايقت الاهالي بشدة » . (20)

– وبناء على ذلك فما فتئت تنمو المقاومة ضد تجنيد القادة الاهالي لجلب القوم . « انهم يسدون آذانهم ويلتجئون الى جميع التعلات للتخلص من الجندية » . (21)

ولكن ابتداء من شهر جوان استقر ساندير بالعاصمة التونسية . فنضب مصدرنا الاعلامي ، ولم تبق لنا سوى برقيات السلط .

وقد استرعت انتباهنا نقطتان :

1) لقد أسفر الهيجان بالمنطقة الحدودية عن ظهور روح تهجمية لدى القبائل التونسية التي تساهم في القتال وتهدد الحدود الجزائرية : ففي 11 جوان انقض الهمامة على الطرودين وفي 21 جوان صار الجنوب يخشى الهجوم العام وفي 27 جوان اعتبرت منطقة الواد نفسها مهددة وطالبت بالامدادات .

واذا ما نظرنا الى الامور عن كثب ، نلاحظ انعدام أي خطر حالما ترد الامدادات وتتمركز . فهذه الخطة التي اتبعتها القبائل الجزائرية ، قد شتتت الجهود العسكرية وأجبرت السلط على الاكثار من الحاميات ، وهي ترمي الى التخفيف من ثقل الهجومات على البلاد التونسية .

2) ولقد شكت القيادة الفرنسية في قيمة الجيوش الأهلية المستعملة بكثرة بالبلاد التونسية . فلم يعد الحديث يدور حول هجوم جنود القوم ، بل أصبح الامر يتعلق بفيالق الجنود الرماة « الذين تحركهم أياد خفية » . وعندما طلب الوزير من فورجمول تكليف جنوده بحراسة غار الدماء ، رفض ذلك قائلا « يخشى أن يميل رماتنا الى الفرار أكثر فاكثر » (22) .

(20) نفس المرجع .
(21) نفس المرجع .
(22) 1.K.200 81 – 6 – 10 .

ولكن الوضع قد تفاقم بالحدود في أواخر شهر جوان . ولقد أشارت كل السلط العسكرية والمدنية الى « الهيجان الجديد والخطير » . وبالفعل فقد أخذت القبائل التونسية تتحرك . ولم تشهد سوق تبسة نشاطا مماثلا من قبل لبيع الدواب ويعتبر ذلك النشاط اشارة فزع ، حيث ان القبائل أصبحت تتسلح . وتعددت الاعمال المتقطعة التي لم تكن تجري بلا تبصر ، بل كانت ترمي الى نهب حصيلة الحصاد الجاري آنذاك لتعبئة المطامير . وكانت تلك العمليات تستهدف بالخصوص القادة الجزائريين من الاهالي المكروهين ، من اشخاصهم وأملاكهم ، مثل عملية النهب التي استهدفت شيخ نغرين .

وتجاه هذه الحملة ، لم تحرك القبائل الجزائرية ساكنا . فقد اتجه النمامشة نحو الشمال دون أن يحصدوا حقولهم . وانسحب الطروديون دون أن يردوا على هجومات الهمامة . وادعت منطقة سوف أنها لا تستطيع باي وجه من الوجوه الوقوف في وجه أي هجوم .

فأبدت القيادة حينئذ تشاؤما كبيرا للغاية . وأصبح فورجمول الذي ألحق بالبلاد التونسية ، منشغل البال قائلا : « ان الحالة على غاية من الخطورة بينما لاتستطيع الجيوش العودة الى البلاد الجزائرية قبل منتصف شهر جويلية » (23) . وبالفعل فقد انتشرت العدوى في كامل المنطقة الشرقية وطالب الوالي العام بقوة بارسال القوات الاضافية لحماية المراكز الاستعمارية ، وفي نفس الوقت حذر المختصون بشؤون العالم العربي المستقرون بطرابلس واسطنبول من العلاقة الموجودة بين تلك المقاومة السلبية وبين الغليان الاسلامي الملاحظ في غدامس وطرابلس .

وألح فيرو بالخصوص على العلاقات القائمة بين شيخ السنوسية وبين أولاد سيدي الشيخ الثائرين .

وكل هذه الوقائع المتظافرة تفسر قرار الحكومة الفرنسية القاضي بحل فيلق التدخل العسكري في 30 جوان .

فلقد كان فورجمول يرغب « في العودة بسرعة على رأس فيلقه الى الجزائر حيث تبدو الحالة السياسية مثيرة للحيرة » (24) . وقد تم تجميع القوات العسكرية بسرعة بالقالة وعنابة حيث ظهرت نفس الاضطرابات قبل ذلك التاريخ بشهر . وتولى البحارون اركاب المرضى

(23) 1.K.204 28 جوان .
(24) 2.H.5 30 جوان .

والعجز والبغال والذخيرة شذر مذر في حالة لا توصف من الفوضى . وسيتم نقل أولئك الجنود لتعزيز القوات المتمركزة بالمنطقة الغربية . ومن الكاف توجه الجنود المبعوثون الى الحدود ، نحو سوق هراس أو تبسة . وقد أحيط الوزير علما بذلك ولكنه لم ينخدع قط ، اذ يقول « ينبغي استعمال الجنود الرماة القادمين من تونس بكل تحفظ ضد الثائرين » .

ولكن كل هذه التحركات العسكرية لم تمنع الغابات من الاحتراق في أوائل جويلية . حيث اندلعت الحرائق في كل الغابات واصبحت تهدد مصالح مستغلي غابات الفلين . وترجع مسؤولية تلك الحرائق الى الانفعال التونسي والرغبة في الانتقام من الشركات المستغلة للغابات بقدر ما ترجع الى أشواك الغابة والحرارة . على أن شركات الحلفاء قد استولى عليها الرعب في نفس الوقت من جراء غارات بوعمامة بمنطقة وهران . وان الشبه لغريب بين الحادثين ،

وعندئذ أصبح من الممكن تسوية الحسابات في أعلى مستوى . فلقد عوض الجنرال أوسمون بالجنرال سوسيي ، وتعرض لشتى ضروب الاهانات . كما عوض الجنرال سيريز الذي عجز عن القتال في منطقة وهران ، بالجنرال دينباك الذي أثبت قيمته بالبلاد التونسية . وأخيرا فقد استقال الوالي العام من اجل قضية الالحاقات .

وهكذا فان للقضية التونسية انعكاسات كبيرة .

سابعا ـ ولكن كيف كان الوضع بالحدود ؟

لقد فقدت الحدود في العاجل ما كانت تمتاز به من خصائص حيث أصبح الجيش الفرنسي موجودا من الجهتين . وصار اللجوء الى دار الاسلام من قبيل الذكريات . واعتبارا من ذلك التاريخ انتقلت الحدود الى البلاد الطربلسية .

1) وفي الحين بدأت عمليات تحويل السكان . ففي تونس تلقى فورجمول استسلام أولاد خليفة الذين سيحولون الى سهل الارناب بعد القاء السلاح ودفع غرامة حربية . كما عمد الجيش الفرنسي الذي أقصى عن السلطة السياسية بمنطقة التل ، الى تركيز قواته بالجنوب . من ذلك ان فرقة عسكرية قد توجهت الى نفرين وشرعت في بناء برج . وهكذا استقر الوضع بالجنوب تحت السيطرة العسكرية عن طريق اقرار السكان طوعا أو كرها . أما منطقة سوق هراس والقالة ، الواقعة

تحت السيطرة المدنية ، فقد سلمت خيراتها بوفرة للجشع المالي والعقاري ، كما انتهت عملية التشتيت الاجتماعي ، وهكذا فقد طويت الصفحة وانتصبت الأمبريالية .

2) ولكن النتيجة التي تفرض نفسها تتجاوز الاطار المحلي وتهم قدرة المجتمعات على المقاومة .

فباعتبار ان المجتمع قد احتفظ بهياكله المتجذرة ، يستطيع المقاومة بأكثر الاسلحة فعالية ، وبناء على أن المجتمع قد تعرض للاعتداء وفقد ماهيته ، فانه لا يلتجأ الا بصورة غير متجانسة الى كفاح اقتصادي أو نفساني أكثر مما هو عقائدي . وباعتبار ان المجتمع قد تفككت هياكله ، لا يسعه الا الاستسلام والخضوع في الظاهر (مثال ذلك : الجزائريون اللاجئون الى تونس من أبناء زواوة وأولاد مقران) .

والحال بالنسبة للقضية التونسية ، أن القبائل الجزائرية بالحدود لم تبق مكتوفة الايدي : بل ساهمت في مقاومة القبائل التونسية ، في حدود امكانياتها .

أني راي غولدزيغار
الاستاذة بجامعة رانس

ملاحظات حول ردود الفعل الايطالية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية

هناك تنافس بين فرنسا وايطاليا حول حضور احداهما بالبلاد التونسية . ذلك أن التاريخ القديم من جهة ووجود جالية ايطالية هامة بالبلاد التونسية من جهة أخرى ، قد أثارا شيئا من الأمل لدى ايطاليا . كما ان التاريخ الرسمي القومي ثم الفاشي قد حاول اثارة الجانب الامبريالي من المطامح الايطالية . على ان الرأي العام الايطالي قد تعاطف في سنة 1881 مع المواقف المناهضة للاستعمار . فلدينا وثائق تؤيد التونسيين في رفضهم للاحتلال الفرنسي . وهذه المواقف قد اتخذها الجمهوريون والاشتراكيون المنضوون تحت لواء حزب يدعى الحزب العمالي الايطالي . كما ساندت بعض النشريات الايطالية الاستقلال التونسي المهدد منذ سنة 1879 ، مثل : « سردينيا وتونس » و « مجردة » و « المستقبل » ، التي وزعت في الايالة بصورة شبه سرية .

ولقد تأثر الرأي العام الايطالي منذ وصول الأخبار الأولى حول الاحتلال . وكان التونسيون ـ في نظر الرأي العام الايطالي ـ يفتقرون الى زعيم من نوع « عرابي باشا » الذي لقب في كثير من النشريات « بغاريبالدي العربي » . ذلك أن غاريبالدي يرمز في ايطاليا الى الدفاع عن المضطهدين . فكان الايطاليون ينادون ويكتبون « تونس يجب أن تكون حرة » . وعلى صعيد البحر المتوسط كانوا يعتبرون من الضروري حماية الاستقلال التونسي .

ومن المفيد أن نرى أيضا ردود الفعل الايطالية من الناحية العاطفية ـ ونحن نعلم أن الانفعال العاطفي شيء هام سواء في ايطاليا أو في تونس ـ

وسوف لا أستشهد بجميع القصائد التي نظمت آنذاك ، ولكني أود أن أقرأ لكم هذا النص :

« يا أوروبا الشقيقة ! لقد ارتكبت دناءة عندما استعملت القوة بتونس وارتكبت دناءة عندما عمدت الى تخريب صفاقس » . فها هي زهرة ايطالية قد وضعت على قبر الاستقلال التونسي .

ولقد نشرت بجونيف رسالة هجائية كان لها بعض الوقع في ايطاليا وهي تحمل عنوان « تونس وفرنسا » وتلخص رفض المناهضين الفرنسيين للاستعمار . وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي :

« لقد اعتدينا بلاحياء على حقوق الناس وانتهكنا حرمة المعاهدة واكتسحنا بدون اشهار حرب تراب بلد صديق وخرقنا بلا جدارة قوانين الضيافة المقدسة ونقلنا المأتم الى شعب كريم وطيب .... » .

هذا وان المقاومة التونسية للحضور الفرنسي تمثل واقعا لاحظه كل أحد وأشارت اليه الصحف الايطالية مثل « كوريري ديلاسيرا » و « غازينا بيمونتيزي » ، التي كتبت الكثير حول الاضطرابات التي عقبت الاحتلال الفرنسي .

ولقد نددت الصحافة الايطالية بتلك الاضطرابات وشهرت بالخصوص بعنف القمع العسكري . وكان قصف مدينة صفاقس بالقنابل عنصرا هاما لاثارة المشاعر المضادة للاستعمار . وكاتب الملاحظون الايطاليون الموجودون بالايالة مختلف الصحف الايطالية للتشهير بالعنف وعدم احترام الحقوق التي يتمتع بها الشعب التونسي . وكتبت جريدة الحرية الصادرة بجنوة ما يلي : « لا يمكن ان تكون لنا فكرة صحيحة عن الوضع الجديد السائد بالايالة فلم يعد هناك قانون ولا تقاليد .... فلا مكان الا للادارة التي تفرض كل شيء » . ورفع الرأي العام الايطالي عاليا الشعار الآتي : « لنغادر افريقيا » . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن الكنيسة ترفض في ذلك التاريخ المساهمة في الأنشطة السياسية . فقد امتحنت باحتلال روما وأصبحت غير مستعدة لتنسى ذلك . كما اصبحت تعارض بصورة طبيعية مبادرات ومطامح الحكومة .

ففي سنة 1887 اتخذت الكنيسة موقفا مناهضا للاستعمار ، مشيرة الى وجود « اكثر سيوف من اللازم بافريقيا » وعدم وجود « ما يكفي من السلم » ، ومع مرور الزمن ستتبنى الكنيسة أفكارا أخرى وستتخذ مواقف أخرى .

وفي الوقت الذي انتصرت فيه فرنسا على الباي وفرضت عليه المعاهدة الشهيرة ، كانت الصحف الايطالية تكتب ما يلي :

« ان الذي ربح قد خسر . فالفرنسيون قد ربحوا المعركة وأصبحوا سادة الموقف بتونس . ولكن سوف لا يمضي وقت طويل ليدفعوا غاليا ثمن ما احرزوا عليه اليوم من نصر » .

وأود أن أتوقف عند هذا الاستنتاج الذي يصور أصدق تصوير احداث الساعة وحدة المواقف السياسية السائدة في ايطاليا اثناء فترة الاحتلال الفرنسي لتونس في سنة 1881 . ولكن واحسرتاه ! فان التاريخ الرسمي قد فضل اخفاء هذه الشهادة الصادقة والمؤثرة عن الرأي العام والاكتفاء بتمجيد الرؤية الامبريالية والحنين الى تاريخ الامبراطورية الرومانية .

رومان رينارو
مدير معهد الدراسات التاريخية
بميلانو

الجلسة السابعة

رئيس الجلسة : السيد **محفوظ قداش** ، مدير معهد علم المكتبات بالجزائر .

البحوث :

- ردود فعل المدن على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881 ، وحدودها :

  ـ السيد **محمد الهادي الشريف** ، الاستاذ المحاضر بكلية الآداب بتونس.

- دور الصادقيين في حركة التحرير الوطني :

  ـ السيد **نور الدين سريب** ـ المكلف بالبحوث بالمركز القومي للبحث العلمي بفرنسا .

ردود فعل المدن على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881 وحدودها

بالمقارنة مع المقاومة الطويلة والمستميتة التي ابدتها قبائل الوسط والجنوب خلال صائفة وخريف 1881 ، تبدو لنا مقاومة المدن محدودة وبدون اقتناع .... ولا شك ان صفاقس قد شذت عن تلك القاعدة ، حيث لم تتمكن القوات الفرنسية من احتلالها الا بعد حصار منظم ومعارك ضارية ، فيما بين 5 و 16 جويلية 1881 (موضوع البحث الذي قدمه زميلنا توفيق العيادي) . وكذلك الشأن بالنسبة الى قابس ، اذا ما اعتبرناها في عداد المدن . فقد قاومت مدة اطول اذ وقع الهجوم عليها للمرة الاولى حوالي 24 – 25 جويلية ، ولم يتم احتلالها « وتهدئتها » الا في اواخر نوفمبر ، وذلك بعد تدمير قسم من حي المنزل . ولكن لا يمثل ذلك الا بعض الاستثناءات ، فما عدا صفاقس وقابس ، استسلمت المدن بدون قتال ، بما في ذلك القيروان المدينة الدينية ورمز الاسلام بالمغرب العربي وبالاحرى فان محاولات المقاومة التي قام بها العامة في بعض المدن ، قد تم احباطها من طرف الاعيان والسلط التونسية المحلية ، حتى قبل ظهور الجيوش الفرنسية . وبعد استيلاء القوات العسكرية الفرنسية على المدن ، تمكنت ، مقابل بعض الاعدامات (مثل ما وقع بالكاف) من السيطرة على الوضع ولم تثر كثيرا من الاعتراضات او انها قضت عليها بسهولة .

وان هذه السلبية النسبية التي ابدتها المدن ما فتئت تثير التساؤلات . لان تلك المدن قد اظهرت في الماضي وبالخصوص خلال القرن السادس عشر والثامن عشر – حماسا ملحوظا في التصدي للكفار

(مكافحة الاسبانيين في القرن السادس عشر والحروب ضد فرنسا في 1741 – 1742 ثم في 1769 – 1770 وكذلك الحرب ضد البندقية في 1784 – 1792) . وسنبحث عن تفسير لهذه الظاهرة على ثلاثة مستويات مختلفة وهي مستوى التقاليد المحترمة للهياكل المدنية ، ان صح التعبير ، ومستوى الاوضاع السائدة في القرن التاسع عشر وعلى وجه الخصوص اوضاع العشريتين السابقتين للحماية . واخيرا فاننا سنبحث هذه المسألة من زاوية الاحداث والمواقف المتخذة خلال سنة 1881 ذاتها .

1 – ضعف المقاومة بالمدن : الاسباب الهيكلية

سوف لا نطيل الحديث حول هذه النقطة العامة جدا والتي تتجاوز حدود موضوعنا . وسنقتصر على الاشارة بادىء ذي بدء الى شهادة او ملاحظة بروديل حول المجتمع التونسي خلال القرن السادس عشر ، بالمقارنة مع نظيره في مدينة الجزائر (1) . فهناك وجد مجتمعا « متدينا ومتحضرا » وهنا وجد « مدينة آهلة بسكان غلاظ ووصوليين » وبالنسبة لفترة قريبة العهد اكثر – الفترة الاولى من الحماية – يمكننا الاستشهاد بدي تورنال دي كونستان (احد كبار مركزي نظام الحماية بوصفه العضد الايمن لبول كمبون) ، الذي اعتبر التونسيين « مقاتلين تافهين بقدر ما هم متطلعون للمعارف » . (2)

فنجد حينئذ تطابقا بين الملاحظات التي ابديت في عصور متباينة للغاية . ولقد ايد هذا التطابق الرحالون الاروبيون في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، حينما لاحظوا اختلافا كبيرا بين مدينة تونس ومدينة الجزائر من حيث سلوك السكان والجو العام .

فالى اي شيء يعزى هذا التباين وبالخصوص « تمدن » سكان تونس و « لطفهم » و « مسالمتهم » ؟ يمكننا ان نشير اولا الى تأثير التجارة والتفتح على الخارج ، ذلك التأثير الراجع سببه الى عوامل جغراسياسية (مجموع السهول والتضاريس المنخفضة المتفتحة على اقدر البحار علاقة بالانسان) وكذلك الى التقاليد التاريخية العريقة

(F. Braudel) البحر الابيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني – باريس 1976 – ج 1 – ص 108 – 109 .

(2) Destournelles de Constant – السياسة الفرنسية بتونس ، الحماية واصولها باريس 1891 ص 448 .

الراجع عهدها الى العصر البونيقي ، حسب قول بعضهم . وعلى كل حال فمنذ النصف الثاني من القرن السابع عشر بدت مدينة تونس في مظهر مدينة « تجارية اكثر منها مدينة قرصنة » (3) . وقد تواصل هذا التطور وتأكد في القرن الموالي ، وهو تطور قد ارتضاه النظام العالمي (4) والنظام الرأسمالي التجاري ، بقدر ما ارتضته الطبقة المحلية الحاكمة ، المتحالفة مع ذلك النظام الرأسمالي . (5)

ومن ناحية اخرى فان الدولة والطبقات الحاكمة قد لعبت دورا كبيرا في ترسيخ بعض التقاليد السلمية بالبلاد التونسية ، حيث لا يوجد بها اي قطب مقاومة ملائم للانشقاقات ، مثل الاوراس الجزائري او الاطلس المغربي ، كما لا توجد اية اقلية دينية او عرقية ذات اهمية (مثل القبائليين بالجزائر والبربر بالمغرب الاقصى) ، من شأنها ان تكون عائقا هاما في وجه السلطة المركزية . وهذا ما يفسر ما احرزت عليه تلك السلط والتقاليد التي تمثلها من انتصار يسير نسبيا . ويكتسي ذلك الانتصار شمولية اكبر داخل المدن التي تراقبها الدولة بواسطة جنودها واعوانها من مختلف الاصناف . ولقد كنا قدرنا عدد الجنود بالايالة التونسية خلال القرن الثامن عشر بسبعة جندي واحد مقابل عشرين ساكنا بالمدينة وجندي واحد مقابل مائة ساكنا بالارياف (6) . ونضيف الى ذلك ان العائلة الحسينية قد عقدت حلفا ناجحا مع أكثر اعيان المدن نفوذا . وبذلك نفسر ولاء سكان المدن او سلبيتهم ، بحسب الظروف ، إزاء حوادث سياسية خطيرة مثل التي جدت في سنة 1881 . (7)

2 – ضعف المقاومة بالمدن : الاسباب الظرفية

لقد كان القرن التاسع عشر قاسيا بالنسبة للبلاد التونسية مثل غيرها من البلدان ذات الحضارة غير الاروبية . ويكمن المصدر

(3) بلاديتي (E. Plantet) مراسلات بايات تونس وملوك فرنسا (1577 – 1830) باريس 1893 ج 1 ص 162 – 164 .

(4) والبرشتاين (Wallerstein) النظام العالمي من القرن الخامس عشر الى يومنا هذا – ج 1 باريس 1980 .

(5) راجع اطروحتنا التي ناقشناها بجامعة السوربون بباريس في جوان 1979 « السلطة والمجتمع بالبلاد التونسية في عهد حسين بن علي » .

(6) نفس المرجع .

(7) نفس المرجع .

الاساسي لمشاكلها في المواجهة مع القوى الاروبية ـ الاقتصادية والفنية والسياسية وبالطبع العسكرية التي هي في عنفوان ازدهارها ـ ولقد بدأ تسرب تلك القوى الى البلاد التونسية (وغيرها من البلدان الاخرى) بالاخلال بالتوازنات الاقتصادية (8) وانتهى به الامر الى فرض الهيمنة الاجنبية على عدة قطاعات من الحياة الاقتصادية بالبلاد ثم على شؤونها المالية فيما بعد (9) . ولقد بلغت الازمة ذروتها بالبلاد التونسية في حدود 1867 – 1869 ، عندما انضافت آثار الكوارث الطبيعية (سنوات الجدب والوباء) الى آثار التداين الخارجي (وهي فرصة مناسبة لتنافس المغامرين والمحتالين وغيرهم من ممثلي النظام الرأسمالي الاروبي بتونس) والى آثار الابتزاز الجبائي الذي اصبح لا يطاق على اثر ذلك التداين . حيث اعلن في سنة 1869 عن افلاس حكومة الباي التي فقدت حتى حرية التصرف في شؤونها المالية التي عهد بها الى لجنة دولية . وقد كان من المفروض منطقيا ان تفقد البلاد التونسية استقلالها السياسي في ذلك التاريخ . الا ان الاوضاع الدولية ـ وبالاحرى الاروبية ـ قد قررت خلاف ذلك ، فتاخرت العملية الى سنة 1881 . ولكن الازمة قد تواصلت ـ ولو باقل حدة ـ الى ذلك التاريخ .

وعلى كل حال ، فابتداء من اوائل اواسط العقد السادس من القرن التاسع عشر أصبح الامر متعلقا ببلد متدهور ديمغرافيا ومفكك اقتصاديا ومناهض للعائلة المالكة سياسيا . وان ما يسيطر على مراسلات العمال في ذلك التاريخ ، اولا موضوع انخرام الامن الذي يكاد يكون عاما بالبلاد (10) . كما ان تلك المراسلات تضع وجها لوجه ، من ناحية سكان المدن والحضريين واصحاب الامتيازات على وجه العموم ، ومن ناحية اخرى البدويين والجائعين . وينجر عن ذلك اولا تفاقم التناقضات والخلافات بين سكان المدن وسكان الارياف ، وبالتالي تعذر او صعوبة التحالف المتين بين العنصرين المذكورين

(8) كارل براوان (L.C. Brown) البلاد التونسية في عهد احمد باي (1837 – 1855) جامعة برينستون – 1974 ص 237 – 260 .

(9) – غانياج (J. Ganiage) اصول الحماية الفرنسية بتونس (1861 – 1881) باريس 1959 .
– فان كريكن (Van Krieken) خير الدين وتونس (1850 – 1881) ليدن 1976
– ابديرة : العلاقات الدولية والتخلف – تونس (1857 – 1864) اوبسالا 1978 .

(10) محمد الهادي الشريف : « حركات الفلاحين بتونس خلال القرن التاسع عشر – مجلة الغرب الاسلامي وبحر الابيض المتوسط عدد 30 – 1980 ص 2155

حتى امام المحتل الكافر في سنة 1881 . اما النتيجة الثانية فهي ان السلطة الملكية التي لم تعد قادرة على القيام بأحد واجباتها الاساسية : الا وهو حفظ الامن ، قد فقدت شرعيتها او علة وجودها في نظر ضحايا اختلال الامن من السكان (وهم اثرياء الاعيان وسكان المدن بوجه عام) . ولقد تمثل اهم تعبير عن هذه الاستعدادات في البحث عن الحماية الاروبية ، وهو الموضوع الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

ومن المشاكل التي اثارت اهتمام السلط التونسية على غرار مشكلة اختلال الامن ، قضية الربا او بالاحرى قضية الديون غير المسددة لا سيما اذا كان الدائن اروبيا او محميا اروبيا (مثل الكثير من الرابين اليهود التونسيين) . ذلك ان الربا الذي يعتبر آفة عالمية قبيل انتصاب الحماية ، قد انتشر في ظل التسرب الاروبي مع ما يتبع ذلك من صعوبات بالنسبة لحكومة الباي وما ينجر عنه من انعكاسات على السكان . فمن المواضيع الواردة مرارا وتكرارا في رسائل العمال موضوع عجز المدينين على الوفاء بديونهم وموضوع بيع الاملاك المرهونة ، نتيجة لذلك . ففي منطقة الساحل مثلا تعد بالمئات الممتلكات المحجوزة والمباعة او المهددة بالبيع في سنة 1880 – 1881 . (11)

وباختصار فان الانطباع الاليم الذي تتركه مطالعة المصادر يتمثل في الانحلال العام وتردي المجتمع بالمدن والارياف ، فلا غرابة حينئذ اذا لم يعرف ذلك المجتمع كيف يرد الفعل تجاه احداث سنة 1881 ، ذلك ان نوابضه قد تحطمت ، وذلك خلافا للمجتمع القبلي الذي ، بالرغم من تعرضه لجباية مهلكة ولازمات رهيبة مثل ازمة 1867 ، تمكن من الحفاظ على هياكله التقليدية كما هي ، وعلى شيء من حيويته وقدرته على المقاومة . ولا شك ان ذلك يرجع الى ضعف التأثير الاروبي في ذلك المجتمع القائم الذات في القرن التاسع عشر .

والادهى من ذلك ان الاثرياء من سكان المدن قد اخذوا يبتعدون شيئا ما عن النظام القائم ، وذلك منذ اواسط القرن التاسع عشر . وحرصا منهم على وضع ممتلكاتهم واشخاصهم في مأمن من تعسف حكومة الباي ، تعودوا على الاحتماء باحد قناصل الدول الاروبية .

(11) راجع بالخصوص وثائق الحكومة التونسية الصندوق 38 ـ الملف 441 .

من ذلك مثلا ان قاضي رأس الجبل محمد العنابي قد حاول في سنة 1847 الاحتماء بالقنصلية البريطانية ، فرارا من الظلم الذي لحق به . فطلب الباي من اعلى سلطة دينية بالعاصمة وهو الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي ، ادانته . ولكن الشيخ تولى الدفاع عنه ، معلنا شرعية الاحتماء بالكافر ، في صورة الذود عن الممتلكات والاسرة (12) . وقد كان ذلك بداية ظاهرة ستستفحل اكثر فاكثر ، كلما زادت الحكومة المفلسة والمكبلة بالديون ، في الاغتصابات واعمال التعسف واتجه اثرياء سكان المدن ـ أي البرجوازية ـ اكثر فاكثر الى الاحتماء بالدول الاروبية التي اخذت تحميهم من تجاوزات السلطة التونسية . مع الملاحظ ا نتلك الدول هي المتسببة في التجاوزات المذكورة ، وذلك بتشجيعها لصاحب المملكة التونسية على اجراء الاصلاحات الباهظة الثمن ، وعلى الاقتراض ، وبالتسامح تجاه ما يقترفه رعاياها على عين المكان من اعمال ابتزاز وتعسف (13) فاصبح اثرياء الاعيان حينئذ الحلفاء الموضوعيين للدول الاروبية ضد دولتهم ذاتها . وتمثل اقصى هذه الحالات البرجوازية اليهودية التي انحازت اقتصاديا وثقافيا الى شق الدول الاروبية « الغازية » (14) . ولكن ظاهرة الاحتماء بالاجنبي لم تكن مقصورة على البرجوازية اليهودية والاسلامية ، فان قبيلة بني يزيد ذات النزعة الباشية والعلاقات الصعبة مع السلطة ، قد هددت صراحة حوالي سنة 1869 بالاحتماء بفرنسا (15) . وفي اوائل سنة 1881 ، ربما في اطار حملة منظمة انطلاقا من القنصلية الفرنسية بتونس ، انتشرت (اكثر فاكثر) اشاعة (الدخول تحت الحماية الفرنسية) لدى الرعايا ، الى حد انهم صاروا يتحدثون عن ذلك علانية كما لو كان الامر طبيعيا ... (16)

ومن ناحية اخرى فان الاصلاحيين بتونس من المؤرخ ابن ابي الضياف الى الوزير خير الدين ، يمثلون من جانبهم حالة غريبة ، فهم ما فتئوا يوجهون الانتقادات (المبررة في الغالب) الى حكومة الباي ولكنهم يهملون ذكر مساوي التجار ومختلف المفترسين الاروبيين العاملين بمدينة تونس . وكثيرا ما يبدو الاصلاحيون وكأنهم متواطئون

(12) ابن ابي الضياف « الاتحاف ... » ج 4 ص 117 ـ 118 .
(13) غانياج ـ المرجع المذكور الصفحات : 203 ـ 216 ـ 287 .
(14) نفس المرجع .
(15) فصل محمد الهادي الشريف المشار اليه آنفا .
(16) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 30 الملف 365 .

شيئا ما مع القناصل الاروبيين ، وهذا ما يفسر مثلا الدور الذي قام به اولئك القناصل في نشأة عهد الامان (1857) والدستور (1861) اللذين اوحوا بهما ان لم يكن قد فرضوهما . فموقف الاصلاحيين في القرن التاسع عشر يتسم حينئذ بالتناقض والغموض . وعلى كل حال ففي سنة 1880 ـ 1881 وعلى وجه الخصوص منذ اقالة رئيس الجماعة الجنرال خير الدين في شهر جويلية 1877 ، اصبح الاصلاحيون يكنون العداء لنظام الباي محمد الصادق ووزيره السيء الذكر مصطفى بن اسماعيل (17) وهذا لا يعني انهم كانوا يرغبون في الحماية الفرنسية ، بل كانوا يعلمون أن نظام الباي محكوم عليه بالاندثار .

ومن ناحية اخرى فان السلط الدينية العليا بتونس قد اقلعت عن تقاليدها المحترمة المقامة على الولاء ـ او المجاملة ـ تجاه السلطة ، وقد ضايقتها ممارسات او ابتزازات الوزير الاكبر مصطفى اسماعيل ومن لف لفه ، فأخذت تهدد بالالتجاء الى اسطنبول ، وهذا يعني خير الدين الذي ازداد نفوذه لدى السلطان في ذلك التاريخ (18) . ولعل ذلك كان نتيجة لنشاط انصار خير الدين بتونس ذاتها . ومهما يكن من امر فان الباي ومحظوظه ، قد اخذا بعين الاعتبار ذلك التهديد ودفعا باهظا ثمن عدول الرؤساء الدينيين عن مشروعهم . (19)

فلا شك حينئذ في ان جانبا كبيرا من الاعيان والعامة ، لم يعد متمسكا شديد التمسك بالذود عن العائلة المالكة في سنة 1881 . وربما من اجل ذلك عدل الباي بسرعة ـ حتى قبل انذار 12 ماي ـ عن تعبئة السكان ضد المعتدي ، كما تظاهر بذلك خلال شهر افريل . (20)

3 ـ الوضع في البلاد وسياسة الباي في سنة 1881 :

منذ تقدم القوات الفرنسية بالتراب التونسي (ابتداء من 24 افريل) شهدت البلاد بعض الهيجان الذي ما فتىء يتضخم حتى اندلاع ثورة قبائل الوسط والجنوب .

(17) بيرم الخامس « صفوة الاعتبار ... » .
(18) نفس المرجع .
(19) نفس المرجع .
(20) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 38 الوثيقة 443 ـ الصندوق 17 الوثيقة 192 .

أ ـ سكان المدن والاحتلال الفرنسي وثورة القبائل :

من جملة المدن التونسية ، لم تشارك في الثورة المسلحة التي شنتها القبائل البدوية سوى صفاقس وقابس . فكيف يمكن تفسير هذين الاستثنائين ؟ يمكن ان نعتبر اولا ان المدينتين المعنيتين بالامر والواقعتين على الساحل الجنوبي متعرضتان للتأثيرات الاروبية (من اقتصادية وسياسية وثقافية) اقل من المدن الواقعة بمنطقة الساحل او بالشمال ، وهما متجهتان اكثر ، بموجب مصالحهما وآفاقهما ، نحو المشرق (الاسكندرية او اسطنبول او ازمير) (21) . وينجر عن ذلك تأثر اشد بالاعتداءات الاروبية المسيحية واصرار اكبر على المقاومة . ومن ناحية اخرى فان ابتعاد مركز السلطة وضعف سيطرتها على المناطق الجنوبية قد يكونان من العوامل التي ساعدت على اندلاع الثورة ، وكذلك الشأن بالنسبة لموقع صفاقس وقابس على شاطىء بحر قليل العمق ، الامر الذي يجعلهما اقل عرضة للقنابل الفرنسية .

ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا لم تتخذ بعض المدن الاخرى او السكان بالوسط والجنوب نفس الموقف الذي اتخذته صفاقس وقابس ؟ ذلك ان مدن مثل قفصة او مدن الجريد وكذلك سكان منطقة جرجيس من اهالي عكارة او سكان جربة لم يظهروا نفس الاصرار على المقاومة بل يبدو ان همهم الوحيد كان يتمثل في الاتقاء من اهانات الاعراب الرحل الذين لا يبعدون كثيرا عنهم (22) . ان مثل هذا التباين في المواقف في سنة 1881 ليثير مشكلا لم نجد له لحد الآن جوابا مرضيا . ما عدا ربما التطابق بين مصالح اعيان سكان مدينة صفاقس ومصالح البدويين : ذلك ان عقود المغارسة المتعلقة بالزياتين كانت تربط بين العنصرين في اطار تعاون مثمر ، يدل عليه تنوع اصول اصحاب الزياتين في اواسط القرن التاسع عشر . (23) اما في قابس فان عددا كبيرا من القادة البدويين ـ من بينهم ابرز رجال ثورة 1881 وهو علي بن خليفة ـ كان يملك بعض النخيل وحتى بعض المنازل بالواحة . وهكذا فان تداخل المصالح ـ بل حتى مجرد

(21) علي الزواري ـ العلاقات التجارية بين صفاقس والمشرق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ أطروحة دكتوراه الحلقة الثالثة ـ جامعة آكس 1977 .

(22) وثائق وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية ـ تونس ـ المراسلات السياسية .

(23) توفيق العيادي ـ هياكل الملكية العقارية بصفاقس في أواسط القرن التاسع عشر ـ شهادة الكفاءة في البحث ـ تونس جوان 1970 .

التعايش ـ دليل على التحالف ـ المخالف للطبيعة في ذلك العهد ـ المعقود بين الحضريين والبدويين في كل من صفاقس وقابس .

وابدت سائر المدن الاخرى ركودا غريبا تجاه احداث سنة 1881 . وتضاف الى الاسباب العميقة المشار اليها في مستهل هذا البحث عوامل اخرى خاصة بالحالة التي كانت سائدة في سنة 1881 ، يمكن ان تفسر ما اظهره سكان المدن من مسالمة او سلبية . ونخص بالذكر منها الخوف من البدوي الثائر ومن ردود فعله الطائشة . ففي مدينة تونس كان من نتيجة الخبر (الكاذب او المضخم اكثر من اللازم) حول الغارة التي شنها الاعراب الرحل بمنطقة رادس ، بث الفزع في العاصمة وحلق الوادي (24) . وفي القيروان اثارت ممارسات فرسان جلاص الذين فرضوا وجودهم في وقت ما على سكان المدينة ، اثارت الحيرة واحيانا الرعب لدى اولئك السكان . (26)

ويقال ان بعض المدن الساحلية قد فضلت علنا فتح ابوابها في وجه القوات الفرنسية المنظمة على فتحها امام الفرسان البدويين (26) . ولكن الى اي مدى لم يكن ذلك الموقف قد فرضه التقدير الصحيح لتوازن القوى وقد وافق عليه البدويون انفسهم (27) ؟ ومهما يكن من امر ومهما تكن مواقف سكان المدن تجاه الغزو الاجنبي ، فانهم لم يلجأوا الى عقد حلف ثابت ودائم مع البدويين ، ما عدا في الحالتين المشار اليهما آنفا اي صفاقس وقابس .

2 ـ سياسة الباي في الوسط الحضري :

لقد حاول الباي قبل امضاء معاهدة 12 ماي تهدئة الخواطر على اثر المخاوف التي اثارتها اخبار الغزو الفرنسي وما اظهره في اول الامر من استعداد لتعبئة الموارد المادية والبشرية خلال شهر افريل (28) . ومنذ غداة يوم امضاء المعاهدة اتجهت حكومة الباي

(24) بـرود لاي ـ المرجع المذكور ـ ص 54 ـ 53 .

(25) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 17 الملف 192 ـ وبرود لاي المرجع السابق ص 65 ـ 96 .

(26) مارتال « فشل حركة من حركات المقاومة في القرن التاسع عشر » باريس 1971 .

(27) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 28 ـ الملف 443 مكرر ـ ص 206 .

(28) نفس المرجع الصندوق 17 الملف 192 ـ والصندوق 17 الملف 192 الوثيقة 13913 والصندوق 33 الملف 396 .

بحزم نحو الحفاظ على النظام واحباط كل سعي الى المقاومة داعية السكان الى الاهتمام بشؤونهم الخاصة حتى « تسود الراحة » (29) . والهدف الظاهر من كل ذلك الحد من الاضرار وتجنيب العائلة المالكة والبلاد المصير الذي عرفته الجزائر من قبل اي الالحاق بدون قيد ولا شرط .

ولقد توجه المبعوثون الى أهم المراكز بالايالة للاعلان عن ان القضية الحالية بين حكومة الباي و « الدولة الفرنسية الصديقة » قد انتهت (30) . وكان هم السلطة التخفيف من ابعاد معاهدة 12 ماي ، وبالخصوص ابتداء من الوقت الذي اعلن فيه الجهاد من طرف رؤساء قبائل الوسط والجنوب . من ذلك مثلا ان عامل الساحل قد اعلم رؤساء القبائل الثائرين وأعيان صفاقس بأن الباي لم يتخل عن سلطته لفائدة الفرنسيين وانه لم يقع أي مس بمبادىء الشريعة . ولتأكيد هذه الاقوال وجه الى رؤساء القبائل نسخة من الرائد التونسي المتضمن نص معاهدة 12 ماي . (31)

وهكذا كانت حكومة الباي تسعى منذ غداة ابرام المعاهدة الى الحث على احترام الالتزامات التي تعهدت بها ودعوة السكان المحتارين او الثائرين الى قبولها . واستعملت لهذا الغرض الاطارات المحلية وفي مقدمتها العمال الذين بقوا على عين المكان او الذين ارسلتهم الحكومة الى دوائرهم على غرار بنزرت وسوسة .

ولقد قام العمال بدور الوسطاء بين الحكومة والاعيان المحليين فجمعوا في المراكز المعرضة للخطر ـ لا التي قامت بها الثورة ـ مشايخ التراب وكبار القوم ورجال الدين (المجلس الشرعي اذا ما وجد) وطلبوا منهم اقناع السكان بضرورة « كف اليد واللسان عن الفعل والقول » (32) . واعتمدوا في بعض الاحيان على الرؤساء الدينيين ، مثل باش مفتي المنستير الذي كلف بالقيام بجولة في القرى القريبة (وبالخصوص جمال) لحث الجنود الفارين على « الرجوع الى سواء

(29) نفس المرجع الصندوق 17 الملف 192 الوثيقة 13922 والصندوق 38 الملف 443 مكرر والصندوق 33 الملف 396 .
(30) نفس المرجع : الصندوق 33 الملف 396 .
(31) نفس المرجع الصندوق 38 الملف 443 مكرر .
(32) نفس المرجع ـ الصندوق 38 ـ الملف 44 مكرر .
(33) نفس المرجع ـ الصندوق 38 ـ الملف 44 مكرر .

السبيل » وتذكيرهم بتعاليم الشرع المتعلقة بطاعة الامير واعلامهم بما تقتضيه « مصلحتهم في الدنيا والآخرة » (33) . وكلف بنفس المهمة قاضي سوسة الذي توجه الى القلعة الكبرى والقرى المجاورة (34) . واستعملت في بعض الحالات الثابتة قطعيا بالنسبة لمنطقة الساحل ، العلاقات العائلية المتينة ، من ذلك مثلا ان خليفة مساكن قد جمع اقرباء الجنود الفارين وحملهم مسؤولية سوء سلوك ابنائهم وارغمهم على ارجاعهم الى ثكناتهم . (35)

وعلى وجه العموم فقد وجدت الدعاية الرسمية آذانا صاغية لدى قسم كبير من ابناء المدن الذين لا يثقون عادة في البدويين ولا يميلون الى التحالف معهم ولو ضد الكفار . من ذلك ان خبر اقتراب القبائل الثائرة في اواخر شهر جويلية 1881 قد اثار الفزع في مدينة تونس وراس وحلق الوادي (36) كما ان القيروان العاصمة الدينية للبلاد التي كان الثائرون يعتزمون الدفاع عنها قد « تزعزعت » واصابها الهلع مرات متعددة من جراء طيش البدويين . (37)

ولا شك انه من الشطط التحدث عن تفضيل المدن « للنظام الفرنسي » على « الفوضى البدوية » (مارتال) ، اذ لا ريب ان سكان المدن احسوا بالاهانة وشعروا بالمناهضة تجاه الاحتلال الفرنسي (38) . الا ان هذا الشعور لم يبرز بصورة فعالة في سنة 1881 وذلك لمختلف الاسباب التي شرحناها .

محمد الهادي الشريف
الاستاذ المحاضر بكلية الآداب والعلوم الانسانية ـ بتونس

(34) نفس المرجع ـ الصندوق 38 ـ الملف 44 مكرر .
(35) نفس المرجع ـ الصندوق 38 ـ الملف 44 مكرر .
(36) بروديلاي ـ المرجع المذكور ـ ص 53 ـ 54 .
(37) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 17 ـ الملف 102 .
(38) راجع بروديلاي (المرجع المذكور) والتقارير الرسمية الموجهة الى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية .

دور الصادقيين
في حركة التحرير الوطني

في الوقت الذي كان فيه النقاش حول التعليم على اشده بفرنسا تحت تأثير جول فيري وما اتخذه من اجراءات في هذا الميدان ، احتلت فرنسا البلاد التونسية بمقتضى معاهدة باردو في سنة 1881 .

ان لهذين الحدثين مدلولا خاصا ، اذا ما اعتبرنا ان تدخلنا قد ربط علاقة مباشرة بين التعليم والسياسة ، حيث ان هذا البحث يرمي الى النظر في اسباب مساعدة المعهد الصادقي على بروز ونمو نخبة سياسية من بداية الاستعمار الى الحصول على الاستقلال الوطني . وسنتوقف عند ثلاث نقط تبدو لنا هامة وهي :

1 ـ من هم هؤلاء الصادقيون ؟

2 ـ كيف كان تصرفهم ؟

3 ـ لماذا نجحوا في فرض زعامتهم ؟

1 ـ من هم الصادقيون ؟

لقد اقر القانون الاساسي المؤرخ في 1875 والقاضي باحداث المعهد ، مجانية التعليم (1) .

ذلك ان الفصل 31 من ذلك القانون ، بعد ما بين اصناف التلامذة الداخليين والخارجيين ، نص في فقرته الثانية على ما يلي : « كل (التلامذة) يزاولون دراستهم مجانا » . وبما ان المعهد مفتوح في وجه جميع التونسيين المسلمين (الفصل 29) وان التعليم يلقن به مجانا ، فمن المفروض ان يجلب مبدئيا عددا كبيرا من الراغبين

(1) الفصل 31 من القانون المؤرخ في 5 ذو الحجة 1294 هـ .

في الدراسة ، وذلك بفضل ما قام به مؤسسه خير الدين من اشهار لدى عمال المملكة . الا انه قد تبين عند احداث المعهد ، ان عائلات المماليك والعلائلات العربية بالعاصمة هي التي أرسلت إليه ابناءها .

فبالرقيات التي وجهها عمال الآفاق الى خير الدين تعبر عن خيبة املهم تجاه قلة حماس الاولياء لارسال ابنائهم الى المعهد الصادقي . وهذا من شانه ان يحول دون تحقيق مشروع الاندماج الوطني المضمر في نص القانون الاساسي للمعهد ، حيث تقرر توزيع تلامذة المعهد بين المعاصمة (100 تلميذا) وبقية البلاد (50 تلميذا) .

وانه ليتعذر علينا تقديم معلومات ثابتة حول التوزيع الجغرافي للتلامذة الصادقيين فيما بين 1875 و 1889 .

وبالعكس من ذلك فاننا نعلم ان نصيب العاصمة من خريجي الصادقية فيما بين 1889 و 1897 قد بلغ 69،4 % وبلغ نصيب الساحل 23،4 % وبقية البلاد 7،2 % اي على التوالي 77 تلميذا و 26 و 8 تلامذة .

وفيما بين 1898 و 1911 سيبلغ نصيب العاصمة 61،3 % وبقية المناطق الاخرى . بما فيها الساحل 38،7 % .

ولننظر الآن في شأن خريجي المعهد خلال السنوات 1911 ، 1921 ، 1932 ، 1942 و 1952 والبالغ عددهم 111 تلميذا (2) فان توزيعهم الجغرافي قد كان على النحو التالي :

المناطق	العدد	%
العاصمة	31	28
الساحل	32	29
صفاقس	10	9
الوطن القبلي	14	12،5
الشمال	6	5،5
الوسط	11	10
الجنوب	7	6
المجموع	111	100

(2) نور الدين سريب « التعليم وتفريع الطبقات الاجتماعية بتونس » ـ الطبقات المتوسطة بالمغرب العربي ـ مرسيليا 1980 ص 162 ـ 202 .

ويتضح من هذا الجدول ان السيطرة مازالت راجعة للعاصمة والساحل مع الملاحظ ان المنطقة الاخيرة قد التحقت بالعاصمة من حيث العدد والنسبة المائوية . الا ان هاتين المنطقتين تعد ان 56،7 % من خريجي المعهد على حساب الوسط والجنوب اللذين مازالا اقل حظوة بالنسبة للمناطق الساحلية المتقدمة .

ولكن في الجملة يبلغ نصيب العاصمة من مجموع الحالات المدروسة فيما بين 1889 و 1952 اي 359 حالة : 192 اي 53،5 % من خريجي المعهد الذين تحصلوا على شغل او على شهادة انتهاء الدروس ، بينما لا يبلغ نصيب بقية البلاد التونسية سوى 167 اي 46،5 % .

تلك هي بعض العناصر الكفيلة باعطائنا فكرة ، ولو محدودة ، عن التوزيع الجغرافي لخريجي الصادقية .

وماذا عن اصولهم ووضعياتهم الاجتماعية ؟ باعتبار المعطيات التي بين ايدينا . سنتناول بالدرس ثلاث فترات محددة تاريخيا وهي : 1875 – 1888 ، 1889 – 1911 – وفيما بعد 1911 .

ولنذكر فيما يلي سبب اختيارنا لتلك الفترات : فبالنسبة للفترة 1875 – 1888 ، ليست لدينا معلومات حول الاصول الاجتماعية للتلامذة اعني مهنة اوليائهم ووضعيتهم العائلية . الا اننا نعلم بالعكس من ذلك ماذا كان مصيرهم عند تخرجهم من المعهد .

وفيما يتعلق بالفترة من 1889 الى 1911 ، المعلومات متوفرة لدينا سواء حول الاصول الاجتماعية للتلامذة او حول وضعيتهم المهنية .

اما بالنسبة للفترة الفاصلة بين 1911 و 1952 ، فقد اقتصرنا على عينات من الخريجين المتحصلين على شهادة انتهاء الدروس فحسب ، وهي الشهادة التي احدثت بالضبط في سنة 1911 . فالخريجون المحرزون على تلك الشهادة متأكدون من الحصول على شغل سواء بالادارة او في سلك التعليم او من امكانية مواصلة دراساتهم العليا ، اذا ما تحصلوا على شهادة البكالوريا بجزئيها .

فمن سنة 1875 الى سنة 1888 تخرج من المعهد الصادقي 172 تلميذا اضطلعوا بالمهام التالية :

اصحاب املاك ومزارعون		تجار		كتبة ومترجمون وموظفون		محامون ومهندسون وصحافيون		حرفيون	
العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
13	7،55	9	5،23	72	41،90	4	2،32	5	2،90

مدرسون		عمال (قياد)		الجيش والشرطة		عدول قضاة وحكام		طلبة	
العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
24	13،95	2	1،15	5	2،90	2	1،15	36	20،93

والجدير بالملاحظة ان العدد الجملي للتلامذة في ذلك التاريخ كان يبلغ 432 تلميذا منهم 215 قد توقفوا عن الدراسة او اطردوا من المعهد (50%) . وليست لدينا معلومات حول 34 تلميذا . وتمكننا مطالعة الجدول السابق من ابداء بعض الملاحظات اولا حول نشأة وتطور المهام الادارية الجديدة كمهام الكتبة والمترجمين والموظفين . وهكذا فقد تم بلوغ الهدف الذي رسمه خير الدين للمعهد الصادقي منذ تاسيسه ، وتلبية رغبة السلط الاستعمارية ، وذلك وفقا للاصلاحات الادارية التي عوضت الاطارات القديمة باطارات جديدة مهيئة لتكون الواسطة المزدوجة اللغة بين المستعمر (بالكسر) والمجتمع المستعمر (بالفتح) . ومن اجل ذلك ايضا نلاحظ ظهور هيئات مهنية جديدة كالمهن الحرة والمدرسين واعضاء سلك الجيش والشرطة على حساب الاطارات القديمة (القضاة والعدول او الحكام) التي لم تعد تمثل سوى 1 % من العينة التي اخترناها .

ومما تجدر الاشارة اليه ايضا العدد الهام نسبيا من التلاميذ الذين يواصلون دراساتهم بعد التخرج من الصادقية سواء بالجامعة الزيتونية او بالمؤسسات التعليمية الاخرى كمعهد كارنو اوبالخارج .

واذا ما اعتبرنا الفترة الممتدة من 1889 الى 1897 نلاحظ ان من بين الحالات المدروسة والبالغ عددها 111 حالة ، 65% من أصيلي العاصمة (50 من 77) و 41،2% من أصيلي الساحل وبقية المناطق الاخرى (14 من 34)

بضطلعون عند خروجهم من المعهد بمهام متوسطة : كموظفين ومترجمين وكتبة الخ .... أي 57،7% من المجموع العام في حين يواصل 30 منهم دراساتهم (27%) . أما وضعيتهم الاجتماعية فهي مبينة كما يلي :

أصحاب أملاك مزارعون		تجار		موظفون كتبة مترجمون		عدول قضاة حكام		حرفيون	
العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
24	21،62	6	5،40	23	20،72	21	18،91	21	18،91

موظفون كبار		عملة		مدرسون		مهن حرة		جيش وشرطة		غير معروفة	
العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
4	3،60	1	0،90	1	0،90	2	1،80	0	4،50	3	2،70

ويتضح من هذا الجدول ان العائلات المحظوظة اكثر هي التي ترسل ابناءها الى المعهد . واذا ما وجدنا من بين مجموع التلامذة تلميذا واحدا ابن عامل ، فان أبناء الموظفين والكتبة والمترجمين يمثلون 20% من المجموع .

أما الملاحظة الثالثة التي نود ابداءها فهي تتعلق بكون جميع أبناء الحرفيين تقريبا هم من أصيلي العاصمة ، في حين يأتي ابناء المزارعين وأصحاب الاملاك والاطارات القديمة من داخل المملكة وبوجه خاص من الساحل .

وبالعكس من ذلك فان أبناء الموظفين الكبار واعوان الشرطة أو الجيش قادمون من العاصمة وذلك حسب رأينا بسبب المركزية الادارية .

ونلاحظ خلال الفترة 1898 – 1911 تأكيد الاتجاهات التي ظهرت في السنوات السابقة سواء فيما يتعلق بوضعية التلامذة الاجتماعية أو بمهنة التلامذة أنفسهم .

فأبناء أصحاب الاملاك والاطارات المتوسطة والاطارات التقليدية والحرفيين يمثلون 75،20% من مجموع خريجي المعهد .

على أن جميع تلك الفئات ستساهم في تكوين تلك الطبقة المتوسطة المتركبة من الموظفين والمترجمين والكتبة .... حيث ان 48،20% من خريجي المعهد سيتبعون نفس ذلك المسلك (66 من 137 تلميذا)

أما الظاهرة الاخرى فتتمثل في ارتفاع عدد التلامذة الذين يواصلون دراساتهم بعد الخروج من المعهد ، اذ تبلغ نسبتهم 30% من المجموع (41 من 137) .

ولننظر الآن في وضعية خريجي المعهد خلال السنوات 1911 ، 1921 ، 1932 ، 1942 و 1952 مثلما تبدو في الجدول الموالي .

مهنة أولياء التلامذة

أصحاب أملاك ومزارعون	تجار	موظفون مترجمون كتبة	عدول قضاة مشايخ	حرفيون	عملة	موظفون كبار
العدد 14	العدد 17	العدد 12	العدد 20	العدد 10	العدد 2	العدد 5
% 16،3	% 11،7	% 14	% 23،3	% 11،8	% 2،23	% 5،8

مدرسون	مهن حرة	شرطة وجيش	طلبة	مهن مختلفة أو غير مصرح بها
العدد 5	—	العدد 1	—	العدد 25
5،8%		1،12%		25،5%

بعد اطلاعنا على التوزيع الجغرافي لأولئك الخريجين سنقتصر هنا على دراسة وضعيتهم الاجتماعية . ونبدأ بابداء ملاحظة اجمالية وهي أن نفس المجموعات الاجتماعية لا تزال ترسل أبناءها الى المعهد الصادقي .

« فالنخب » الادارية التقليدية توفر 23،3% من خريجي المعهد وهي الممثلة أكثر في هذا الميدان .

أما المنتمون الى فئات التجار واصحاب الأملاك فانهم يرتقون الى مناصب الأيمة والعدول والمشايخ .... ويوفرون 36% من خريجي المعهد ، وكما هو الشأن بالنسبة للصنف الاول فان منطقة الساحل هي

التي توفر أكبر عدد من الخريجين ، وهذه المنطقة هي أولا وبالذات منطقة فلاحية ذات ممتلكات زراعية عديدة وتضم أيضا عددا كبيرا من التجار والحرفيين نظرا الى وجود صناعة صغرى للنسيج بقصر هلال والى نمو التجارة بسوسة التي تعتبر عاصمة لكامل منطقة الساحل .

أما بالنسبة للعاصمة ، فيتم على وجه الخصوص انتداب الاطارات الادارية والموظفين والكتبة والمترجمين من بين المحرزين على شهادة انتهاء الدراسة بالمعهد الصادقي .

هذا وان قرب هذا الصنف من السلطة المركزية المستقرة بمدينة تونس يفسر قلة عدد الابناء المنحدرين من تلك الفئة الاجتماعية في بقية المناطق ، بالنسبة الى العاصمة التي توجد بها أهم الادارات المركزية ، وكذلك الشأن بالنسبة لابني الموظفين الكبيرين المستقرين بالعاصمة وبالنسبة للخريجين الذين يقيم أولياؤهما ببنزرت ونابل من أصيلي الوسط .

وبالنسبة للأفواج المعنية بالامر فانه لم يتحصل على شهادة انتهاء الدراسة بالصادقية سوى ابني شغالين الاول أصيل الساحل والثاني أصيل صفاقس .

ولئن كان أبناء المدرسين يمثلون حوالي 6% من الخريجين فاننا لا نجد أثرا لأبناء اصحاب المهن الحرة (كالمحامين والاطباء والصحافيين والمهندسين المعماريين) والحال ان تلك المهن هي التي « سيتهافت » عليها قدماء المعهد الصادقي ، كما تدل على ذلك الدراسات التي أجريت حول « النخب » التونسية السياسية . ورغم ان تلك الدراسات مقامة على أساس بعض العينات فهي تبين « أن أغلبية النخبة التونسية قد تابعت دراستها بالمعهد الصادقي وتحصلت على ثقافة من درجة عربية وفرنسية . والجدير بالملاحظة أن أكبر عدد من المعنين بالامر قد زاولوا دراساتهم العليا بفرنسا واتجهوا بالخصوص نحو الحقوق واللغة العربية والمدارس العليا . وقد انجر عن ذلك ارتفاع نسبة المدرسين والمحامين وكبار الموظفين من بين رجال السياسة التونسيين » . (3)

ولنذكر على سبيل المثال لتأكيد تلك الظاهرة ان المنح التي أسندها المعهد الصادقي خلال السنة الدراسية 1954 – 55 لمساعدة التلامذة على

(3) جان ايمسي (Jean Emmecy) « النخب السياسية المغربية البلاد التونسية » باريس ص 195 و ص 98 .

مواصلة دراساتهم العليا تهم 39 تلميذا من تلاميذ المعهد الصادقي موزعين كما يلي : (4)

- العلوم : 8
- الآداب : 9
الطب : 18
المدارس العليا : 4

ونلاحظ نفس النسبة بخصوص الأفواج السابقة ، حيث أن أغلبية الحالات المشار اليها أعلاه تهم تلامذة قد تحصلوا على شهادتهم الثانوية في سنة 1947 والتحقوا بالجامعة في سنة 1949 بعدما نجحوا في الجزء الثاني من البكالوريا .

وان تحليل الجدول السابق المتعلق بممنوحي المعهد الصادقي المواصلين لدراساتهم العليا بفرنسا ، يبين لنا تطور الوضع من حيث الكيف ، نتيجة للتغييرات الحاصلة لا فقط على المستوى الدراسي بل بالخصوص في المستوى الاجتماعي ذاته . ذلك ان التغييرات الهيكلية التي لحقت البناء الاجتماعي التونسي ، وطرق التصرف الاقتصادي الجديدة واقامة ادارة عصرية جديدة حسب المثال الأروبي ، لهي من العوامل المولدة للتغييرات .

ففي هذا السياق من التحول ، وباعتبار وضعيتهم الخاصة في ذلك الاطار ، قام الصادقيون بتنظيم شؤونهم .

2) كيف كان تصرف الصادقيين ؟

ولنشر بادىء ذي بدء الى أول موقف سياسي مناهض للاستعمار ، هو الموقف الذي اتخذه العربي زروق المدير السابق للمعهد الصادقي (1875 – 1881) . فبرفضه للحماية الفرنسية حكم على نفسه بالهجرة . ويكون بذلك قد سطر طريق الرفض السياسي في وجه قدماء تلاميذه الذين سيواصلون العمل بأشكال مختلفة كلما توطدت أركان الحماية .

ذلك أن السياسة الاستعمارية ستمكنهم من الشعور بوضعيتهم داخل النظام الجديد وسترغمهم على اتخاذ مواقف ستتطور بحسب التغييرات التي سيتعرض لها المجتمع التونسي الاسلامي وبحسب تحولات السياسة

(4) محضر مداولات مجلس ادارة المعهد الصادقي .

الاستعمارية ذاتها . وهكذا سينتقلون من الحركة الاصلاحية المحتشمة الى الكفاح المستمر ضد الاستعمار ، في سبيل الاستقلال الوطني .

وسيكون الصادقيون – كما سنرى – حاضرين في جميع أطوار ذلك الكفاح .

وهكذا ستظهر في سنة 1888 جماعة الحاضرة الملتفة حول تلميذين سابقين من تلامذة المعهد الصادقي هما علي بوشوشة والبشير صفر . وهي فترة « الاصلاح الثقافي » التي أشار اليها محمد الهادي الشريف (5) . ولم تكن « تلك الحركة الاصلاحية الثقافية » الا امتدادا لعمل الاصلاحيين الأوائل المتعلقين بشخص خير الدين وتعاليمه ، حسبما تبدو من خلال كتابه « أقوم المسالك .... » أو من خلال فترة تسلمه لمقاليد الحكم .

ولم يكن الأمر متعلقا ، بالنسبة اليهم ، بطرح نظام الحماية للمناقشة . بل كان هدفهم الاساسي يتمثل في الحفاظ على الشخصية التونسية العربية – الاسلامية وتمكينها من التطور عن طريق الاقتباس من الغرب ومن فرنسا بوجه خاص للعوامل العلمية التي كانت مصدرا من مصادر التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي (6) .

ولقد وجد هذا العمل امتداده الطبيعي في انشاء الجمعية الخلدونية في سنة 1896 ، وعلى الاقل خلال سنواتها الاولى ، حيث سيتطور داخل تلك الجمعية ، تحت غطاء العمل الثقافي ، تيار توعية سياسية ، سيتجاوز اطار الصادقيين ليصل الى الزيتونيين . ولم تخف على المتفوقين الفرنسيين أبعاد ذلك النشاط . فقد حذر دي كارينار مواطنيه قائلا « اذا ما اندلعت ثورة في البلاد التونسية ، فان الثوار سينتدبون قادتهم من الخلدونية » (7) . وسيوضح هذه الملاحظة توضيحا أكبر أحد كبار دعاة الاستعمار ، وهو أندري سارفيي الذي أشار بخصوص دروس البشير صفر بالخلدونية الى ما يلي : « ولكن بقطع النظر عن المواكب الرسمية، فان محمييينا لا يتركون أية مناسبة تمر دون نقد الطبائع والعادات الأروبية والتنويه بامجاد الاسلام الماضية وعرض أطوار حركة البعث والتحرير التي أخذت تظهر بتركيا ومصر . ولقد برع على وجه الخصوص في هذا النوع من التمارين السيد البشير صفر الذي تكلف « مجانا » بالقاء دروس في التاريخ والجغرافيا . فكان يفيض القول بمجاملة حول

(5) محمد الهادي الشريف « تاريخ تونس » دار سيريس للنشر 1980 ص 113 .
(6) محمد الفاضل بن عاشور : « الحركة الادبية والفكرية في تونس – 1972 ص 65 .
(7) شارل اندري جوليان « المعمرون الفرنسيون والشبان التونسيون » .

كل ما من شأنه ان يسيء الى سمعة وكرامة الدولة الحامية . ولقد كان يذهب به الأمر الى حد استغلال الاحداث اليومية للتشهير بمواطنينا والاستهزاء بما يدعوه « بأفكارهم المسبقة » . كما كان معمرونا موضوع سخريته وتهكمه ، حيث انه يستهزىء « بفظاظتهم » و « كبريائهم » و « جهلهم » ، فيثير قهقهة مستمعيه الشبان المتعصبين من قبل ، عن طريق الدروس الدينية التي يتلقونها بجامع الزيتونة » (8) .

وبالضبط فان الآثار المتظافرة للمواد الجديدة المدروسة والمحاضرات والمسامرات العمومية وشراء الكتب لمكتبة الجمعية ، ستجعل من هذه المؤسسة مجالا للتأمل والتوعية وبالتالي للمعارضة التي بدأ يتسع نطاقها بالجامعة الزيتونية المطلوب اصلاح التعليم بها . وقد ظهرت آثار تلك المعارضة في الاضطرابات والاعتصابات التي جرت خلال سنة 1910 . ولكن ذلك العمل السياسي والثقافي قد تواصل بوجه خاص عن طريق المحاضرات والانشطة الثقافية ، ذلك أنه بالاضافة الى المحاضرات المتعلقة بالاسلام كانت المواضيع المطروحة تهم من قريب الحياة الاجتماعية والسياسية بالعالم الاسلامي والعربي (9) . وسيمكن توسيع نطاق الدروس الجديدة بالخلدونية، بعض المدرسين الصادقيين المنتمين للحركة الوطنية من بعث روح جديدة معاكسة لعمل المدرسين المحافظين بالزيتونة وفتح آفاق جديدة في وجه التعليم والطلبة بالجامع الأعظم . وسنجد نفس هؤلاء المثقفين يعملون داخل جمعية قدماء الصادقية التي تأسست في سنة 1905 ويمثلون قادة أول حركة سياسية تونسية منظمة ، الا وهي حركة الشباب التونسي التي جعلت من جريدة « التونسي » لسان حالها ، وقد تولدت تلك الحركة من الحاجة التي شعر بها اول خريجي الصادقية ، بعد اتمام دراساتهم العالية ، الى ضرورة مقاومة سياسة الميز العنصري التي انتهجتها ازاءهم الجالية الاروبية ، وذلك بالرغم من قبولهم لنظام الحماية الذي هو ليس محل نقاش . ويندرج التزامهم السياسي في اطار نظام الحماية الذي مازال يعترف بشكل من السيادة التونسية ليس هو شكل السيادة المزدوجة ـ وبناء على ذلك فانهم مصرون على المطالبة بتحسين ظروف عيش التونسيين ، وبالخصوص المساهمة في تسيير شؤون البلاد .

وقد كتب علي باش حانبة في هذا المعنى يقول :

(8) اندري سارفيي (André Servier) الحركة القومية الاسلامية بمصر وتونس والجزائر ـ قسنطينة 1913 ص 91 .

(9) المنجي الصيادي « الجمعية الخلدونية » الدار التونسية للنشر ـ 1974 .
ـ أحمد عبد السلام « الصادقية والصادقيون » تونس 1975 ص 87 ـ 89 .

« اننا مقتنعون تمام الاقتناع باننا حينما نواصل الدفاع عن مصالح مواطنينا الشرعية ، انما نخدم سياسة المشاركة التي تنادي بها حكومة الجمهورية ... ايمانا منا بما ينجر من فوائد لاهالي هذا البلد ، عن حماية دولة نحن نعرف تقاليدها القامة على الحرية والعدالة . واننا نقدم مساهمتنا الصادقة لفرنسا قصد مساعدتها على الاضطلاع بمهمتها التمدينية » . (10)

ولكن بعض اعضاء المجموعة سيتخذون موقفا متصلبا اكثر ازاء الحماية وبالخصوص بعد حوادث الترامواي والزلاج وما تبعتهما من اجراءات قمعية ضد المسؤولين عن حركة الشباب التونسي . وقد اتخذ هذا الموقف بوجه خاص محمد باش حانبة الذي خصه الحبيب الجنحاني بدراسة سنعتمدها في بحثنا هذا (11) . فاثناء اقامته بجنيف التي قدم اليها من اسطنبول ، اصبح محمد باش حانبة المتكلم باسم الجزائر وتونس لدى المحافل والشخصيات الدولية واصدر « مجلة المغرب » التي عالج فيها مختلف المشاكل المتعلقة بتونس والجزائر . كما احدث في نفس الوقت « اللجنة الجزائرية التونسية لتحرير المغرب العربي » وقدم باسمها الى لجنة الهدنة المجتمعة بباريس ، مذكرة بعنوان « مطالب الشعب الجزائري التونسي » وذلك في سنة 1917 . وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي :

« لم يقبل التونسيون والجزائريون قط بمحض ارادتهم الطغيان المسلط عليهم وهم مستعدون للذود عن قضيتهم ، في اول فرصة تتاح لهم . انهم يريدون استقلالهم » (12) ومع مرور الزمن اصبح محمد باش حانبة متطرفا اكثر فاكثر . فلقد كتب في 31 جوان 1920 الى الشيخ عبد العزيز الثعالبي يقول « لا اقبل اي تغيير في المبادىء التي رسمتها لنفسي اعني الاستقلال التام وتغيير نظام الحكم (الغاء الملوكية وتعيين حكومة يختارها مجلس منتخب من طرف كافة السكان) » . وستتعمق الهوة اكثر فاكثر بينه وبين الشيخ الثعالبي الذي انحاز الى شق احمد الصافي وحسان قلاتي ، الى حد انه قد خاطبه

(10) نقلا عن : محمد الهادي الشريف « عصر الاصلاح السياسي » 30 صفحة مرقونة غير منشور .

(11) الحبيب الجنحاني ـ محمد باش حانبة ـ الدار التونسية للنشر تونس 1968 .

(12) راجع مارسال الاكي (Marcel Alacchi) « النخب التونسية تجاه الاستقلال » .

قائلا : « ارجوك ان لا تحدثني في المستقبل عن اموركم السياسية وتصرفاتكم ، فهي تحزنني ... يكفي ان تمدني باخبار صحتك » . (13)

وهكذا فقد كانت مواقف محمد باش حانبة تمثل بداية القطيعة مع الزعماء السابقين . الا ان هؤلاء سيستمرون في عملهم بالرغم من خلافاتهم . من ذلك ان صدور كتاب عبد العزيز الثعالبي « تونس الشهيدة » وتأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي في مارس 1920 ، سيرجعان شيئا من الامل الى نفوس الشبيبة التونسية وعلى وجه الخصوص الزيتونيين والصادقيين الذين سيواصلون رد الفعل على الاحداث (14) وتنمية ما بدأ التعليم الصادقي يكونه من وعي سياسي . ولنذكر على سبيل المثال من بين الشهادات الكثيرة هذه الشهادة : ... « الى جانب قاعات الدروس التي لا يمكن فيها ابدا التحدث عن الاحداث السياسية التونسية ، هناك قاعات المذاكرة وساحات الراحة والآثار غير المتوقعة للتكوين الذي كان يعتبر ذا صبغة تعليمية بحتة . وقد كان اساتذتنا الفرنسيون لا يخرجون عن نطاق دروسهم ، احتراما للتعليمات الصادرة لهم . ولكن دروس أساتذتنا الزيتونيين وتصريحات بعض القيمين الجريئة والصحف المنتقلة خفية من يد الى اخرى ، وصخب الشارع وما ترن فيه من اصداء تنعش افئدتنا الفتية ، كل ذلك كان يعطي للتعاليم التي نتلقاها من اساتذتنا الفرنسيين رنة خاصة . فقد كنا نكتشف من خلال عظمة الشخصيات الادبية مدلولا اشد دقة واكثر حركية لمجدنا السالف الذي يشير اليه اساتذة العربية . كما كانت المآثر والاحقاب الثورية المدروسة في فصول اللغة الفرنسية والادب والتاريخ ، والمنعكسة على الرصيد العربي والاسلامي الذي اودعه فينا مشائخنا الزيتونيون ، تثير ، علاوة على الحس العميق بالتفتح على العالم ، الشعور بما نعانيه من حرمان وتبث في نفوسنا اكثر فاكثر بذور الثورة » . (15)

ولقد ظهرت تلك البذور بصورة اوضح خلال بعض الفترات الحاسمة من التاريخ التونسي . فلنستمع الى ما يقوله الدكتور سليمان بن سليمان حول هذا الموضوع : « لقد شرع الدستوريون

(13) الشاذلي خير الله ـ محمد باش حانبة ـ جريدة صوت التونسي بتاريخ 2 فيفري 1932 .

(14) راجع فصلنا بمجلة الغرب الاسلامي والبحر المتوسط ـ النصف الثاني من سنة 1971 بعنوان « مذكرة حول المسؤولين التونسيين السياسيين والنقابيين » .

(15) احمد عبد السلام المرجع المذكور صفحة 143 (شهادة السيد الهاشمي السبعي)

خلال سنة 1920 في تنظيم صفوفهم . فمن وفود موجهة لباريس الى اجتماعات بتونس . وقد كانت لتلك الاحداث اصداؤها بالمعهد الصادقي . فكان الحبيب جاوحدو اصيل القيروان التلميذ بالقسم الثاني والشاعر الشاب والوطني النشيط ، العنصر الفعال المتصل بالخارج . وكنت من بين اتباعه . ومن ناحية اخرى كنت اترصد الاحداث السياسية لدى الاشتراكيين والشيوعيين بتونس . وهكذا فقد حضرت محاكمة الشيوعي لوزون الذي احيل على المحكمة العسكرية ودافع عنه المحامي الاشتراكي دوارن انجليفيال . وتلك هي المرة الاولى التي احضر فيها محاكمة سياسية . وكانت تحدث من حين لآخر داخل المعهد بعض الاضطرابات المسؤول عنها بالخصوص جاوحدو . فكنا نتذرع مثلا بسوء التغذية ... وكان ذلك اول مظهر من مظاهر مشاركتنا في الاضطرابات المدرسية .

وفي السنة الموالية 1920 – 1921 ازداد نشاط الحزب الدستوري بعد اطلاق سراح الثعالبي . وبالاتصال مع الحزب الدستوري هيأ لنا جاوحدو زيارة للشيخ الثعالبي . وخلال عدة ايام ، كان يعلمنا داخل المعهد الاناشيد التي سنلقيها اثناء الزيارة . وعندما حل اليوم الموعود تحولنا الى بيت علي كاهية حيث استقبلنا الشيخ محفوفا بالقادة الدستوريين وبعض الشخصيات الاخرى . وانشدنا القصيد الذي نظمه جاوحدو لمدح الشيخ الثعالبي الزعيم الاكبر للحركة الوطنية » . (16)

ثم جاءت بعد ذلك مظاهرة 5 افريل 1922 التي انتظمت على اثر الاشاعة المتعلقة بتنازل الناصر باي عن العرش . ولقد شارك الرئيس الحبيب بورقيبة الذي كان انذاك تلميذا بمعهد كارنو في المظاهرة التي نظمها تلامذة المعهد الصادقي بتلك المناسبة . (17)

فغادر الصادقيون معهدهم متجمهرين وقرروا التحول الى القصر الملكي بالمرسى ، بعدما جلبوا الى صفوفهم تلامذة جامع الزيتونة والمعهد الفني بباب العلوج . اما تلامذة المعهد العلوي فلم يتمكنوا من الخروج حيث اوصد باب المعهد في وجوههم . وقد عوقب تلامذة المعهد الصادقي بعدم الخروج ايام الراحة لمدة غير معينة . كما

(16) الدكتور سليمان بن سليمان « المعهد الصادقي 1919 – 1925 » (غير منشور) .

(17) الحبيب بورقيبة : محاضرات حول تاريخ الحركة الوطنية ـ تونس 2 نوفمبر 1973 .

اطرد البعض منهم من المعهد في آخر السنة ، من اجل الحصول على « اعداد غير كافية » .

وفي سنة 1930 استغل الصادقيون من جديد مظاهرة الذكرى المائوية لاحتلال الجزائر والمؤتمر الافخارستي بقرطاج للتعبير عن غضبهم ورفضهم للسياسة الاستعمارية ، على غرار بقية الشعب التونسي .

ولكن سنة 1934 هي التي ستمثل اهم فترة من فترات العمل السياسي ، نتيجة للانشقاق الذي سيحصل داخل الحزب الدستوري والذي سيفضي الى ظهور الحزب الدستوري الجديد ، وقد كان اعضاء الديوان السياسي الأول كلهم من قدماء الصادقيين وهم محمود الماطري والحبيب بورقيبة ومحمد بورقيبة والطاهر صفر .

وكان الرئيس الحبيب بورقيبة قد اعطى ما يكفي من المعلومات حول نشأة الخلاف واسبابه ، فلا نرى فائدة حينئذ في الرجوع الى ذلك الموضوع هنا (18) . انما نشير الى ان الاجيال المتعاقبة قد التحمت حول تلك المجموعة للكفاح من اجل الاستقلال الوطني حتى النهاية . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان الصادقيين كانوا دائما في المقدمة سواء داخل الحزب الدستوري الجديد او داخل المنظمات الاخرى الديمقراطية والمناهضة للاستعمار مثل الحزب الشيوعي التونسي الذي ما فتىء يقاوم النظام الاستعماري وذلك في ظروف صعبة ورغم بعض الاخطاء المعترف بها الآن من طرف الشيوعيين التونسيين انفسهم . ولقد اعطى ذلك الوضع الجديد دفعا جديدا للمعارك السياسية ، من ذلك ان القمع قد تسلط على الصادقين عندما القت السلط الاستعمارية القبض على احد زملائهم وهو علي البلهوان ، وذلك على اثر المحاضرة التي القاها في جانفي 1938 وانتقد فيها سياسة التعليم وبالتالي سياسة الحماية . ثم منعت السلطة المحاضرة الثانية التي كان من المقرر القاؤها في شهر مارس حول « دور الشباب في الكفاح » . ورغم ذلك فقد القيت المحاضرة بنادي الحزب الدستوري الجديد يوم 18 مارس 1938 « بمحضر جمهور متكون في معظمه من تلامذة المعهد الصادقي وطلبة الجامع الاعظم . وبعد ذلك بثلاثة ايام اوقف علي البلهوان عن عمله » . (19)

(18) محاضرات حول تاريخ الحركة الوطنية التونسية كتابة الدولة للاعلام 1973 .
(19) احمد عبد السلام – المرجع المذكور – ص 103 – 109 .

وبلغ القمع ذروته اثر مظاهرات 9 افريل واعتقال علي البلهوان وكافة زعماء الحزب الدستوري الجديد وكان من بين ضحايا ذلك القمع تلامذة المعهد الصادقي ، حسبما تدل على ذلك العقوبات المتخذة ضد بعضهم . من ذلك ان عبد الله علي قد احيل على المحكمة العسكرية « من اجل التحريض على القتل والتباغض بين الاجناس والحث على مخالفة قوانين البلاد » . بينما تم فصل محمد الرحال عن المعهد الصادقي لانه قدم الى رفقائه صورا مثيرة للشغب واطلعهم على محاكاة ساخرة للنشيد الوطني الفرنسي » . (20)

وكانت « الروح الصادقية » تثير قلق السلط الاستعمارية حتى قبل حصول تلك الحوادث بكثير . من ذلك ان مذكرة موجهه في سنة 1936 من طرف مدير الامن الى مدير الداخلية حول جمعية قدماء الصادقية قد اشارت الى ان « الجمعية قد اتخذت ابتداء من سنة 1931 وجهة سياسية جديدة ذات نزعة قومية » واضاف محرر المذكرة قائلا : « منذ ذلك التاريخ اخذت تتكون داخل الجمعية كتل متعارضة ، على اثر خلافات في الآراء السياسية ، الى حد ان انتخابات 3 ماي 1931 كادت تثير بعض الحوادث والمشاجرات .

ويكفي ان نستعرض التركيب الخليط للمكاتب المنتخبة في 1931 – 1932 ، 1932 – 1933 ، 1933 – 1934 ، و1934 – 1935 ، لنلاحظ الحملة الخفية المناهضة لفرنسا ، التي كانت تجري تحت غطاء الجمعية . فنجد من بين اعضاء تلك المكاتب الاخوة بورقيبة (محمود ومحمد والحبيب) والسيد الطاهر صفر والسيد الطاهر الاخضر والسيد البحري قيقة ، بالنسبة للحزب الدستوري الجديد والسيد احمد بن ميلاد والسيد عز الدين الشريف والسيد الطيب الجميل اعضاء الحزب الدستوري القديم » .

« وفي الوقت الذي بلغ فيه الحزب الدستوري ذروته ، تأسست « الشبيبة المدرسية » التي هي فرع من جمعية قدماء الصادقية وذلك بمبادرة من المبعد السياسي الطاهر صفر الذي كان آنذاك رئيسا لمكتب الجمعية ذاتها في 1933 – 1934 » . (21)

(20) راجع فصلنا المنشور في « حوليات افريقيا الشمالية » 1971 ص 132 .
(21) وثائق ادارة الامن الوطني – تونس

ولقد رفضت ادارة التعليم الترخيص في احداث الجمعية المذكورة بدعوى « ان جمعيات التلامذة محجرة مبدئيا » والواقع ان السلط الاستعمارية كانت شاعرة بالخطر الذي يمكن ان تمثله مثل تلك المنظمة . ذلك ان الصادقيين ، باحداثهم « للشبيبة المدرسية » كانوا يرغبون لا محالة في التوسيع من نطاق عملهم الوطني عن طريق انتداب مناضلي وقادة الحركة الوطنية في المستقبل من بين افراد تلك الشبيبة المتحمسة (22) . ويبدو ان الفقرة (ب) من الفصل 2 من القانون الاساسي للجمعية ، ليس غريبا عن تلك المشاغل . اذ انها تنص على « تدريب الشباب على الخطابة بواسطة تنظيم المحاضرات والمنابر الحرة » ، ولو ان الفصل 12 ينص على ان « كل مناقشة دينية او سياسية ممنوعة » .

والواقع ان « الشبيبة المدرسية » قد اصبحت منظمة جماهيرية حقيقية تغطي كامل تراب الايالة وتعمل بالتعاون مع الشعب الدستورية (المحاضرات العامة ـ والروايات المسرحية ـ وجمع التبرعات الخ ...) ، شأنها في ذلك شأن الحركة الكشفية التي يعمل بها جنبا الى جنب الصادقيون والزيتونيون وتلامذة المعاهد الثانوية الاخرى ويتناقشون حول المسائل القومية .

ولقد مدت جمعية قدماء الصادقية يد المساعدة لتلامذة المعاهد الثانوية الراغبين في مواصلة دراساتهم العليا والذين لا تسمح لهم امكانياتهم بذلك ، وقد خفف هذا العمل من قلة المنح الدراسية التي كانت ادارة التعليم تسندها الى الطلبة التونسيين بتقتير . ولهذا الغرض قامت الجمعية بعدة انشطة على الصعيد الوطني ، نخص بالذكر منها « يوم العلم » و « نصف شهر الطالب » ، وذلك لجمع الاموال اللازمة لارسال الممنوحين الى الجامعات الاجنبية وخاصة منها الفرنسية . وبعد اتمام دراستهم والمساهمة او النضال في اطار جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا وحتى ضمن بعض الاحزاب السياسية الفرنسية ، يرجع اولئك الطلبة الى تونس لتعزيز عمل المنظمات القومية السياسية او الثقافية او النقابية ، والمساهمة بهذه الصورة مساهمة فعالة في حركة التحرير الوطني . ولقد ساهم بعض قدماء الصادقيين الذين رجعوا الى تونس بعد اتمام دراستهم للتدريس بالمعهد الصادقي ، لا فحسب في تعزيز العمل

(22) راجع : « تكوين النخب السياسية المغربية » باريس 1973 ص 175 .

النقابي سواء داخل الاتحاد العام التونسي للشغل او في اطار الجامعات المهنية وبالخصوص جامعة الموظفين او الجامعة القومية للتعليم ، بل ساهموا ايضا في تنمية الروح الوطنية لدى تلاميذهم الصغار الذين اعربوا عن ذلك اصدق تعبير خلال السنوات 1952 – 1954 ، من خلال مظاهراتهم السياسية .

وبعد حصول تونس على الاستقلال الداخلي ثم الاستقلال التام ، نجد من جديد قدماء تلامذة الصادقية الذين يمثلون من سنة 1955 الى سنة 1969 ، 55،5% من الهياكل السياسية التونسية ، لا سيما في مستوى الحكومات المتعاقبة والديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد (والحزب الاشتراكي الدستوري فيما بعد) ومجلسه الوطني أو لجنته المركزية .

ولقد أشار ايلي كوهين حضرية الى تلك الظاهرة قائلا : « لقد كان بامكان الملاحظين المتنبهين آنذاك (1920) ان يشاهدوا لدى السكان المسلمين بروز ظاهرتين ستكون لهما نتائج هامة للغاية وهما : أولا انتشار التعليم . فالتونسيون الذين مكثوا مدة طويلة من الزمن متحفظين تجاه التعليم الفرنسي ، قد أخذوا يقبلون عليه بشغف كبير . ولم يرضهم التعليم الابتدائي وحتى التعليم الملقن بالمعهد الصادقي الذي بقي ردحا من الزمن مصدرا لتخريج المترجمين ، فأقبل أحسن التلامذة التونسيين نحو التعليم الثانوي العصري بل حتى التعليم العالي . ولم يعد أبناء كبار الموظفين هم الذين يتبعون وحدهم ذلك السبيل ، مثلما كان الامر عندما كنت تلميذا في التعليم الثانوي . فلقد قدم عدد كبير من أبناء الآفاق للانضمام اليهم في صفوف متراصة اكثر فاكثر . ومن بين أولئك الآفاقيين كان أكثرهم عددا وأشدهم شغفا بالتعليم ، ابناء تلك البرجوازية الساحلية الصغرى التي لها نصيب من العلم والتي تتعاطى شيئا ما الصناعات التقليدية أو الفلاحة ، وقد كان لها من الدعائم الاقتصادية ماكفاها مؤونة التأثر بالنظام الاستعماري ، وهي تتوق الى اعداد ابنائها للحياة العصرية .

وسينشأ بعد حوالي عشر سنوات من ذلك التاريخ الحزب الدستوري الجديد المنحدر من تلك البرجوازية الآفاقية الصغرى التي هي برجوازية تقليدية لا محالة ، ولكنها ذات فكر متفتح بما فيه الكفاية ، ليرفض

(23) ايلي كوهين حضرية (E. Cohen Hadria) من الحماية الفرنسية الى الاستقلال التونسي نيس 1976 ـ ص 43 – 44 .

أن تتجاوزه حركة القرن العشرين ، وهي مستقلة بكل اباء سواء عن العائلة المالكة التي تكاد تعتبرها هي نفسها أجنبية أو عن النخبة المنحلة المحيطة بتلك العائلة » .

3) لماذا فرض الصادقيون زعامتهم هذه ؟

وهكذا فقد وفر التعليم الصادقي للبلاد التونسية الخاضعة للاستعمار ثم المستقلة ، ما كان يرجوه خير الدين لتونس قبل الاستعمار . وان المعهد الصادقي الذي كان يريد الحكم الاستعماري أن يجعل منه أداة لهيمنته قد أصبح مكانا لتخريج اطارات الحركة الوطنية .

كما أن التعليم المزدوج اللغة الذي أحدثه خير الدين والذي ظل قائم الذات خلال الفترة الاستعمارية لاجتناب الاخطاء الواقعة بالجزائر ، قد أصبح سلاحا قويا بين أيدي الصادقيين (24) . فالتعليم باللغة الفرنسية يفتح في وجههم آفاق جديدة للمعرفة وبالتالي للشغل . والتعليم باللغة العربية يمكنهم من البقاء في اطار ثقافتهم الذاتية ويقربهم من الجماهير التي يريدون تعبئتها . وان ردود الفعل على قوانين التجنيس والمؤتمر الافخارستي بقرطاج ومحاولة ادخال البلاد التونسية في البوتقة « اللاتينية » لم تكن سوى التعبير عن ذلك « التأصل » ، ولو لم يكن لبعض الأوامر الصادرة الا بعدا استراتيجيا (مثل النقاش حول الحجاب الذي شارك فيه الرئيس الحبيب بورقيبة) .

ويبدو أن هذا المشكل اللغوي المحايد في الظاهر قد كان بالعكس من ذلك من أكبر العوامل الاساسية في نشأة ونمو الحركة الوطنية التونسية . ولقد مثل الصادقيون همزة الوصل بين التفكير السياسي الغربي والتفكير التونسي التقليدي القائم الذات بالزيتونة . ولئن عملوا على نشر التفكير الأروبي لا سيما في الخلدونية وفي جمعية قدماء الصادقية ، فانهم قد نافسوا الزيتونيين الذين كانوا يحتكرون التعليم باللغة العربية ، وذلك عندما قدم عدد من المدرسين المتكونين بالجامعات الفرنسية والمتدربين على طرق التحليل الجديدة ، والمطلعين أيضا على كامل التراث الثقافي بتونس وبالشرق الأسط . ولقد ساعد اللقاء بين العناصر الزيتونية التقدمية والشبان الصادقيين على تحقيق الوحدة اللازمة للكفاح ضد الاستعمار ، والقضاء بذلك على هيمنة من يسميهم غرامسكي بالمثقفين

(24) ارنولت (L. Arnoult) « التسرب الثقافي بتونس قبل الحماية » المجلة الافريقية 1974

التقليديين أو « موظفي الهياكل الفوقية » (25) و « وكلاء » المجموعة المهيمنة الممارسة للوظائف السفلى التابعة للهيمنة الاجتماعية والحكومة السياسية . وسيساعد تغيير الهياكل الاجتماعية من طرف السياسة الاستعمارية على بروز أولئك « المثقفين الجدد » الذين سيساهمون مساهمة فعالة في الحياة العملية بوصفهم « منظمين ومقنعين دائمين » وان اقترابهم من وضعيتهم الاصلية ، خلافا للصادقيين الأوائل ، سيساعدهم على تعبئة الشعب والاتجاه اليه . وختاما لنذكر ما قاله كوهين حضرية حول هذا الموضوع .... « ان الحزب الدستوري القديم والحق يقال يضم أولا وبالذات أبناء برجوازية العاصمة المنتسبين الى العائلات التقليدية الكبرى بل حتى العائلة المالكة نفسها المتشبعين بفكرة التفوق الطبقي بينما الحزب الدستوري الجديد يجمع شبانا من أصل متواضع وفي أغلب الأحيان أفاقي . فالحزب الدستوري القديم لم يكن أبدا سوى حزب اطارات ، بينما يرغب الحزب الدستوري الجديد في التحدث الى الشعب لجلبه الى صفه . فسيكون حينئذ حزبا جماهيريا » .

فالوضعية الاجتماعية والتكوين الصادقي قد ساهما مساهمة فعالة في نجاح الحزب الدستوري الجديد في الميدان السياسي .

نور الدين سريب

(25) راجع حول هذه النقطة « غرامسكي (Gramsci) من خلال النصوص » باريس — المنشورات الاجتماعية 1975 ص 597 .

الجلسة الثامنة

رئيس الجلسة

ـ **السيد محفوظ قداش** مدير معهد علم المكتبات بوهران ـ

البحوث :

- « ردود الفعل الجزائرية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية (1881) » .

ـ **السيد الطيب شنتوف** ، الاستاذ المساعد بجامعة وهران .

- « دور الشبان التونسيين » في تطوير الحركة السياسية والمؤسسات بالبلاد التونسية .

ـ **السيد خالد قزمير** ـ مساعد بمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس .

ردود الفعل الجزائرية
على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية (1881)

لقد تسنى لنا منذ بداية اشغالنا صباح امس الاستماع الى عدة محاضرات حول حركات المقاومة بالجزائر . اما حديثي اليوم فسيكون مقصورا على ردود الفعل الجزائرية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية في سنة 1881 ، وقبل ذلك أود ان أبدي بعض الملاحظات المنهجية حول تحليل حركات المقاومة .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان المؤرخين يتعرضون لصعوبة أولى مرتبطة بالعصر المعني بالامر . ذلك انه من الاسهل تحليل ردود الفعل على حدث ما ، اعتبارا من أواسط القرن التاسع عشر ، أكثر من الفترات السابقة . حيث ان نشر التعليم وانتشار الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام الاخرى فيما بعد ، وكذلك المساهمة السياسية (عن طريق الاقتراع العام) ، ان كل ذلك قد سمح بالاحاطة بمفهوم الرأي العام ، وهو مفهوم من الصعب تحديده ، بغض النظر عن مخاطر المغالطة التاريخية ، اذا كان الامر يتعلق بمجتمعات أو فترات لم تتوفر فيها بعد العناصر الثلاثة المذكورة .

وتضاف الى تلك الصعوبة ، صعوبة ثانية مرتبطة بطبيعة ردود الفعل التي يمكن في بعض الحالات ان تتمثل في بعض الحركات العسكرية أو السياسية ، وعندئذ يكون من السهل الاحاطة بها . وفي بعض الحالات تكون ردود الفعل خفية وغامضة أكثر وتتخذ صيغا وأشكالا متباينة وتتمثل حينئذ في بعض المواقف التي يكون من الصعب لا الاحاطة بها فحسب بل تحليلها أيضا .

ولا أظن من الممكن ، خلال اشغالنا ، تحاشي النقاش حول هذه المسألة الهامة ، اذ اما أردنا ان يتقدم البحث حول حركات المقاومة بوجه خاص والحركات الوطنية بالمغرب العربي بوجه عام .

ورغم هذه الصعوبة المزدوجة فانه لا يمكن لمؤرخي المغرب العربي اهمال تحليل ردود الفعل دون التعرض لمخاطر جسيمة . وفي نقطة الالتقاء بين التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي والذهني والتاريخ السياسي يمكن لذلك التحليل ان يسمح بتجاوز دراسة حركات المقاومة والحركات الوطنية ، باعتبار النخبة فحسب وما تقدمه من خطب حول نفسها وحول المجتمع بأكمله على حد السواء . الا ان التاريخ السياسي في البلدان الواقعة على ضفتي البحر الابيض المتوسط ، كثيرا اما اقتصر على هذا الجانب الذي هو هام ولكنه ليس وحيدا . الامر الذي يدعو اليوم الى اتمامه .

وبعد هذا ، فكيف كانت ردود الفعل الجزائرية على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية ؟

ان الاحداث العسكرية والسياسية التي سبقت وتخللت ذلك الاحتلال معروفة بما فيه الكفاية . فلا حاجة لنا الى اعادتها للأذهان . ولم ينقض وقت طويل حتى أصبحت معروفة لدى الاقطار المجاورة . ولقد كانت معروفة بالمدن عن طريق المراسلات التي كانت متبادلة بين بعض السكان وبين الجزائريين المقيمين بتونس ، وكذلك عن طريق الصحافة الفرنسية نفسها أو بواسطة المسافرين ، أما في الأرياف فقد كانت معروفة اما بصورة مباشرة ، بالنسبة لبعض المناطق ، مثل منطقة ورقلة التي كانت لها علاقات مباشرة مع البلاد التونسية ، أو بصورة غير مباشرة ، انطلاقا من المدن الساحلية أو من خلال الأسواق وتنقل الأشخاص .

فمنذ أوائل العمليات العسكرية اهتمت الادارة الاستعمارية بردود الفعل بالجزائر . ولقد ضاعف المحافظون بالمناطق المدنية ورؤساء الدوائر بالمناطق العسكرية من مراقبة السكان وشددوا من حراسة الأجانب وأشاروا في مراسلاتهم وتقاريرهم الدورية أو الظرفية الى أية اشاعة وأي تحرك . وقد جمعوا المراسلات والتقارير في أغلب الأحيان في الملفات المتسلسلة J و K و I . أما الملف الفرعي H 11 فهو يحتوي على وثائق متعلقة بالأوضاع السياسية وغيرها من التقارير المحررة من قبل المصلحة المركزية للشؤون الأهلية التابعة للولاية

العامة ، ولقد كانت انتفاضة منطقة الجنوب الغربي الجزائري وحدها موضوع عدد وافر من الوثائق .

على أنه من الواجب عند تحليل ردود الفعل الجزائرية التمييز بين المناطق والفئات الاجتماعية . ولكن ذلك من الصعوبة بمكان ، ان لم يكن مستحيلا . فالمراجع تهتم بالمجتمع الجزائري ككل ، بدون ان تفرق مثلا بين أبناء القبائل . على أن الوثيقة الوحيدة الصادرة عن رئيس بلدية أومال المختلطة التابعة لمقاطعة مدينة الجزائر قد ميزت بوضوح بين ردود الفعل المختلفة . فالاشاعات التي راجت حول نتائج المعركة الأولى على الحدود التونسية قد أعطت الغلبة للباي . وقد لاحظ رئيس البلدية في هذا الصدد ما يلي : « لقد قوبلت هذه الرواية على وجه العموم بالاحتراز من طرف الأهالي الأثرياء وأصحاب الاملاك ، ولم يكن الامر كذلك بالنسبة للطبقة الكادحة من السكان ، حيث لوحظ عليها علامات الاضطراب والتلهف للأخبار » (1) .

كما يبدو من المناسب أيضا التمييز بين ردود الفعل بالمدن وردود الفعل بالأرياف . وأخيرا يمكن أن تختلف ردود الفعل بحسب المناطق فينبغي حينئذ تمييز المناطق التي تربطها تقليديا علاقات تبادل متينة مع البلاد التونسية (كالعلاقات التجارية وتنقل السكان) . والملاحظ في هذا الصدد ان المناطق الحدودية ومنطقة بني مزاب ، القريبة من البلاد التونسية والتي تربطها بها علاقات عديدة ، قد اظهرت اهتماما أكبر بالأحداث بل أن القبائل الحدودية قد ساهمت مباشرة بصورة أو بأخرى في العمليات الى جانب القبائل التونسية .

وخلافا لذلك فان المراجع متعددة وثرية بما فيه الكفاية لتمكيننا من الاطلاع على ردود الفعل الجزائرية بالنسبة للأحداث العسكرية والسياسية الجارية بالبلاد التونسية ، من أحداث الحدود التونسية الجزائرية الاولى حتى الاشهر التي تلت امضاء معاهدة باردو . ففي تلك الفترة بلغت ردود الفعل ذروتها ثم انخفضت فيما بعد . وتنقسم ردود الفعل الجزائرية الى ثلاثة أنواع :

1 ـ ردود الفعل العسكرية : لقد انتهز بوعمامة واولاد سيدي الشيخ الفرصة في الجنوب الغربي الجزائري للاسراع بشن الثورة التي تواصلت حتى سنة 1883 .

(1) وثائق الولاية العامة بالجزائر ـ 9 H 4 ـ 25 افريل 1881 .

2 ـ وتتمثل ردود الفعل الثانية في تكاثر الحركات الصوفية الدينية التي ترمي الى تحريض السكان على الثورة . ولكن اتضح في آخر الامر انها لم تكن ناجعة .

3 ـ وأخيرا فان تسلسل الاحداث قد تسبب في بعض التأويلات على الصعيد الدولي وقد سجلت تدخل دولة أو عدة دول أجنبية وتنبأت بانتهاء التدخل العسكري الفرنسي بالبلاد التونسية وانتهاء الاستعمار بالجزائر .

والواقع أن ردود الفعل المختلفة متشابكة مع بعضها . ولم نفصل بينها هنا الا لضرورة التحليل .

1 ـ انعكاسات الأحداث التونسية في منطقة الجنوب الغربي الجزائري :

ان الاسباب المباشرة لانتفاضة 1881 متشعبة للغاية ، فهل كانت تلك الانتفاضة مجرد معاودة للمعاركة التي اندلعت في سنة 1864 ، أم هي رد فعل ازاء التسرب العسكري والاقتصادي والسياسي الذي أصبح واضحا فيما وراء منطقة التل وتفاقم ابتداء من سنة 1878 ؟

ولكن الادارة الاستعمارية تعتبر من بين الأسباب الخارجية للانتفاضة نشاط الطريقة السنوسية وكذلك الحركة الاسلامية المطابقة في بعض الأحيان لذلك النشاط . ألا أن أحداث البلاد التونسية قد كانت لها انعكاسات أكبر من العاملين المذكورين في منطقة الجنوب الغربي الجزائري ، حيث انها تسببت في تقديم تاريخ الانتفاضة ، ذلك انه قد كان من المقرر ان تندلع تلك الانتفاضة في شهر جوان 1881 ، بينما يرجع تاريخ الحوادث الأولى الى سنة 1878 . فوقع تقديمها الى شهر أفريل ، لأن انصراف الجيوش الفرنسية التي كانت متمركزة بمنطقة وهران قد عجل بالقرار الذي اتخذه بوعمامة وأنصاره .

ففي أوائل سنة 1881 ، لم يكن موجودا بكامل منطقة جنوب وهران سوى مركز عسكري واحد بجيريفيل وكان حصن سفيسيفة مقرا لاقامة القسم التأديبي التابع للفيف الأجنبي . ولم ينشأ بعد مركز عين صفراء ولا مراكز المشرية وخريدر وعين بن خيل . وباستثناء الطريق الرابطة بين السيدة وجيريفيل ، كانت جميع المواصلات تتم بواسطة الابل . أما السكة الحديدية الصالحة لاستغلال سباسب الحلفاء والواقعة ما بين شط الشرقي ومنطقة التل ، فقد كانت تعبر الهضاب العليا من السيدة الى مرهوم . وبما أن منطقة التل كانت محتلة ، فان المراكز العسكرية

المقامة على ذلك الحد ، قد كانت كافية للقيام بنشاطها حتى منطقة شط الشرقي فحسب .

وكان الجيش الفرنسي المتدخل بالبلاد التونسية والبالغ عدده 25 000 رجل موزعين على فيلقين ، يعزز صفوفه من المراكز العسكرية المذكورة ، حتى بدأت تظهر آثار النقص في الجنود منذ شهر افريل . ولم يبق في المراكز العسكرية بتاهرت وجيريفيل والسيدة سوى حوالي مائة رجل في كل مركز . ولم يعد المركز الرئيسي بمدينة معسكر قادرا على تعبئة اكثر من ثلاثمائة رجل ، والا أصبح خاليا من أي جندي . أما العتاد وسلاح المدفعية فلم يبق منهما شيء حيث وجهت جميع المعدات الى البلاد التونسية (2) .

ولقد قام باش آغا فرندة في وقت مبكر بكشف النقاب عن العلاقة القائمة بين اعداد الانتفاضة والعمليات العسكرية بتونس ، ففي وقت كان فيه سكان الجنوب الغربي الجزائري يجهلون كل شيء عن تلك العمليات ، رأى الآغا المكلف بحراسة سكان تلمسان والمنطقة المدنية ، أنه لا يخشى أي تحرك في الوقت الحاضر « ولكن ما إن تظهر آثار الأحداث الجارية بالبلاد التونسية على الحدود الجزائرية التونسية ، حتى يكون لها انعكاس في الغرب الجزائري (3) وان مصدر الخطر هو بوعمامة « القادر وحده على جمع العناصر اللازمة للثورة » (4) .

وقبل ذلك بقليل يقال ان بوعمامة قد أجاب أنصاره الذين كانوا يحثونه على شن المعارك « بأن الوقت لم يحن بعد . اذ ليس لدي قوة كافية تحت تصرفي . والله وحده معي في الوقت الحاضر » (5) . وحسب رواية ديغول ، فان بوعمامة ربما فضل الانتظار حتى أواخر جوان ، لأنه يأمل في تحريض أهالي التل على الثورة . وقد يكون ذلك أيسر بعد الحصاد (6) .

وكلما انتشرت أخبار الاحداث الجارية بالقصر المجاور ، الا وازدادت حركة اعداد الثورة نشاطا . وقد أصبحت الانتفاضة ممكنة بعد اخلاء المراكز العسكرية من جنودها التي وجهت الى الحدود التونسية ولم يتم

(2) ديغول De Gaulle « انتفاضة بوعمامة » باريس 1905 .
(3) وثائق الولاية العامة بالجزائر 77 IJ ـ 15 افريل 1881 .
(4) نفس المرجع 25 افريل 1881 .
(5) نفس المرجع .
(6) ديغول ـ المرجع المذكور .

تعويضها بعد بالجنود القادمين من فرنسا ، حيث وصل بعضهم ومازال البعض الآخر في الطريق . (7)

وان ارسال معظم الجنود التابعين لفيلق وهران الى البلاد التونسية قد قوى الأمل في نفوس بوعمامة وأنصاره الذين « أصبحوا واثقين من ان ساعة الثورة قد دقت » . فمنذ أوائل شهر أفريل شرع المبعوثون في التجول للاتصال برجال القبائل الرحل ، طالبين منهم الاستعداد للحرب . وبالفعل فقد بدأت الحرب يوم 22 أفريل بالهجوم على ضابط المكتب العربي بجيريفيل ومرافقيه . وحتى منطقة التل تحولت نحو الجنوب ثم أقصى الجنوب الى أن أبرمت الاتفاقية بين عائلة أولاد سيدي الشيخ والادارة الاستعمارية في أواسط سنة 1983 .

أما خارج تلك الجهة فان ردود الفعل الجزائرية قد تمثلت في تأويل المحاولات الفرنسية بالبلاد التونسية والتعبير عن رغائب وآمال السكان . ورغم ان الكفاح المسلح قد كان مقصورا على جنوب منطقة وهران ، فان آمال التحرر القريب لم تكن أقل حدة في المناطق الأخرى .

2 ـ التنبؤات والمتنبئون :

أما النوع الثاني من ردود الفعل الذي ظهر منذ بداية العمليات العسكرية بالبلاد التونسية ، فلقد اشير اليه في المراجع بعبارة « الغليان » المتمثل بالخصوص في ظهور وانتشار « الاشاعات » و « الأراجيف » التي لفتت اليها الانظار في المدن والأرياف .

والمقصود بكل ذلك تعدد التنبؤات والمتنبئين (مولى الساعة) المعلنين من جهة عن انتهاء الاحتلال الاجنبي ومن جهة أخرى عن نهضة الأمة الاسلامية . ولكن ذلك لم يفض في أي وقت من الاوقات الى القيام بعمل عسكري .

وكل ما في الأمر ـ مثل ما أشار الى ذلك رئيس دائرة تلمسان ـ « أن عدة مشوشين قد نادوا بأنفسهم سلاطين وحاولوا تحريض السكان على الثورة » (8) .

(7) وثائق الولاية العامة بالجزائر 9 H 44 ـ 27 أفريل 1881 .
(8) نفس المرجع IJ 77 ـ 16 اوت 1881 .

والجدير بالملاحظة ان هذه الحركات الاحتجاجية التي اتخذت شكلا دينيا لم تكن خاصة بالبلدان الاسلامية ولا شيئا جديدا بالنسبة للجزائر في العقد الثامن من القرن التاسع عشر . كما ان ظهور هذه الحركات التي تخللت تاريخ الجزائر كان يصادف في كل مرة تحولا عميقا في ظروف الحياة المادية وأزمة اجتماعية وسياسية مستفحلة كما هو الشأن بالنسبة لأواخر القرن التاسع عشر . ولقد ظهرت تلك الحركات بكثرة في أوائل القرن المذكور حيث أنها كانت تسبق أو تتلو الانتفاضات التي حصلت في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر لمعارضة سلطة الدايات والبايات ، ملاحظة تدهور الوضع العام ومعلنة عن انتهاء عصر الظلم والتعسف وحلول عهد جديد .

ولقد تعددت التكهنات والتنبؤات في سنة 1881 ، معربة عن استيائها للوضع السائد ومعبرة عن أملها في حصول تغيير عميق في القريب العاجل . الا ان محتوى تلك الحركات ، رغم ارتكازها على القواعد القديمة قد تغير ، لاحتوائها على معطيات الوضع الجديد في أواخر القرن التاسع عشر .

أ ـ التنبؤات :

لقد انتشرت من جديد بعض التكهنات الجديدة التي اعيد تأويلها بحسب الظروف الجديدة والأحداث ، وهي تتعلق كلها بانتهاء القرن الثالث عشر الهجري . ففي منطقة تلمسان أعيد للأذهان أن ما يجري قد وقع التنبؤ به من قبل ، وما هو سوى تحقيق التكهنات القديمة (9) ، وفي منطقة ورقلة يقول الناس انه « لا ينبغي الاستغراب من الحوادث الجارية منذ مدة قليلة لأن الرسول قد تنبأ بأن كل ما سيجري من أحداث خلال القرن الثالث عشر سيكون موجها ضدنا .... » (10) وفي دائرة مدية يعتقد السكان بأن الحوادث الجارية « بداية تحقيق تنبؤات الولي الصالح سيدي عيسى » (11) .

الا أن تلك التنبؤات ، مع تأويلها للأحداث ، قد كانت تعلن في نفس الوقت عن نهاية تلك الحالة وعن آفاق التحرر في القريب العاجل . ففي

(9) نفس المرجع ـ 13 أفريل 1881 .
(10) نفس المرجع 10 H 11 ـ 18 جوان 1881 .
(11) نفس المرجع ـ 28 أفريل 1881 .

منطقة تلمسان تفيد التنبؤات « بأن الفرنسيين سيطردون في أواخر القرن الثالث عشر الهجري » (12) وفي منطقة الجزائر أعلن أن « الوقت الذي حددته التنبؤات لخلاص الأقطار الاسلامية من هيمنة النصارى ، قد حان » (13) . وفي منطقة أولاد سالم نصحت بعض الرسائل السكان بالاستعداد « لأن الساعة أوشكت أن تدق » (14) . وفي منطقة المثنان (بلدية عين بسام المختلطة) تقبل أولياء أولاد سيدي سعد عدة تبرعات معبرين عن الأمل في حدوث تغييرات في المستقبل القريب لأن « فرنسا ستتعرض قريبا لمواجهة تامة مع المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية وما على سكان المنطقة الوسطى (التل) الا ان يستعدوا لاعانة اخوانهم عندما يشنون المعركة بعد موسم الحصاد » (15) .

وفي منطقة الجزائر اعلن الولي الصالح مرابط بلقاسم أن « عهد الفرنسيين قد انقضى وقد بدأت البلاد التونسية المعركة وقريبا ستعود الجزائر والصحراء والبحر الى العرب . فليحرص على شراء البنادق كل من ليس له سلاح لأن البلاد ستعود لصاحبها الأمير السابق عبد القادر وابن اسماعيل » (16) .

ب ـ « أصحاب الساعة »

ولعله من المفيد أن نحصي بالتدقيق عدد « أصحاب الساعة » الذين أعلنوا أو حاولوا الاعلان عن انفسهم . فلقد أحصينا ثمانية أشخاص في الوثائق الرسمية في ظرف بضعة اشهر ، ولكن ربما لم تكن الادارة على علم بجميع الحالات . الا أن هذا العدد يكفي وحده لتمكيننا من ابداء بعض الملاحظات حول ظهور « أصحاب الساعة » وما أثاروه من مشاكل .

والجدير بالملاحظة أن « أصحاب الساعة » هم اما أشخاص قدموا أنفسهم بتلك الصفة أثناء الانتفاضات السابقة أو أشخاص ينتسبون الى

(12) نفس المرجع ـ IJ 77 ـ 13 أفريل 1881 .
(13) نفس المرجع ـ 11 H 34 ـ 10 ماي 1881 .
(14) نفس المرجع ـ 11 H 10 ـ 2 جوان 1881 .
(15) نفس المرجع .
(16) نفس المرجع 11 H 40 ـ 2 ماي 1881 .

عائلات معروفة في الماضي بهذه الصفة ، الا أنهم لا ينتمون كلهم الى هذا الصنف .

ففي منطقة الجزائر كان قد ظهر المدعو بوبكر الذي حاول ان يقوم بدور « الشريف » بمنطقة القبائل ، فاعتقلته السلطة في جزيرة كورسيكا ثم نقلته الى سجن للا عودة ، ففر منه في شهر أفريل 1881 ، ليقوم بدون شك بمحاولة مماثلة . فأقام تارة عند عائلة بني سليمان بالطبلات وطورا في بلدية بن شيكاو المختلطة وفي بلدة بن رواقية (17) . وفي اقليم وهران حل أحد اليهود بتلمسان قادما اليها من عين تيموشنت حيث تفاقم الهيجان ، وأخبر بأن أولاد زايز وأولاد خلفة وسكان الاغواط مستعدين للثورة وأنهم يطوفون مسلحين في المدينة أفواجا أفواجا ، يتراوح عدد كل فوج بين 300 و 400 رجل ، ويوجد من بينهم ، رجل طاعن في السن ، وهو مقدم الدرقاوة وشقيق الولي الصالح التابع لعائلة أولاد ابراهيم ، والذي كان قد دخل الى معقل سيدي بلعباس في 30 جانفي 1845 ، فقتل مع 58 من انصاره بعد ما قتل ستة جنود وجرح ستة وخمسين آخرين (18) . ووصل المدعو بوذراع الى عين صفراء وفرض نفسه بوصفه « مولى الساعة » . وقد دخل الى تلك البلدة في أواخر شهر جويلية مخفورا بأربعين رجلا من أولاد سوهالة وأولاد غثيب ، ويقال انهم قد نادوا به سلطانا وقد كان له طابعان وهو يدعى انه ابن الأمير عبد القادر (19) .

أما المناطق التي انطلقت منها الثورة في الجنوب الغربي من البلاد الجزائرية بعد سنة 1830 فهي مناطق الظهرة ومعسكر الواقعة تحت نفوذ أولاد سيدي الشيخ في الجنوب والمنطقة الواقعة بين تلمسان والحدود الجزائرية المغربية . والملاحظ أن المحاولات الجديدة لأصحاب الساعة تغطي جزئيا ذلك التوزيع الاجتماعي . ولم يظهر أي شخص آخر من هذا القبيل بمنطقة الظهرة . وقد اندلعت الثورة في منطقة أولاد سيدي الشيخ منذ 22 أفريل واتجهت بالخصوص نحو منطقة تلمسان ، باعتبار وضعها الجغرافي والسياسي .

وظهر ولي آخر يدعى يوسف بالقرب من بني صاف معلنا مرارا وتكرارا « بان الساعة قد دقت لنرى أشياء غريبة » (20)

(17) نفس المرجع 11 H 10 ـ 30 أفريل 1881 .
(18) نفس المرجع IJ 77 ـ 21 أفريل 1881 .
(19) نفس المرجع ـ 16 اوت 1881 .
(20) نفس المرجع 19 اوت 1881 .

كما ظهر سلطان آخر بمنطقة بني ازناسن وشرع في زيارة القبائل معلنا عن الجهاد (21) . أما بوذراع فقد صرح عند مروره بعين صفراء انه متوجه الى منطقة بني أزناسن وعندئذ سيبدأ الجهاد (22). ولقد ألقي القبض على احمد بن محمد ، من مواليد الاغواط والقاطن بدوار أوزلال وأحيل على المحكمة الجناحية ، بتهمة التحول لدى المحاميد بمنطقة كشرو والدعوة الى الجهاد (23) . وفي مقاطعة الجزائر ألقي القبض على أربعة أشخاص بتهمة التحريض على الثورة في بلدية الصومام ، وهم ينتمون الى بلدية عقبو المختلطة التابعة لمقاطعة قسنطينة (24) .

أما في المدن ، فقد نادى السكان بالثورة دون أن يعتبروا أنفسهم بالضرورة من « أصحاب الساعة » . ولقد تلقى قاضي بلدة سيغ والباش عدل ، عدة رسائل وجهها من تونس المسمى ابن والي . وهي تتضمن الدعوة الى الثورة وتوصي باعداد الاسلحة والبارود .

وقد ظهر الباش عدل بمظهر الخليفة المقبل (25) .

ج ـ انتظار التدخلات الخارجية :

الا ان التنبؤات لم تستثن تأويلات أخرى للأحداث . فلقد اتجهت الأنظار ، ربما بسبب عدم نجاعة التنبؤات الأولى ، نحو الخارج والدول الخارجية . وقد لاحظ رئيس دائرة تلمسان « أن الناس يعتبروننا في حالة مواجهة مع تركيا ومصر وطرابلس ويذهب بهم الأمر حتى الى اقحام بعض الدول الأوروبية .... » (26) . من ذلك أن الأخبار الرائجة في شهر جوان 1881 في دائرة تلمسان نفسها تفيد « بأن الباي قد أحال جميع الاعمال التي ارتكبت ببلاده على مؤتمر يضم ممثلي جميع الدول وأن جنرالا وعقيدا فقط استطاعا الدخول الى مدن الايالة بعد الحصول على الأمان من قبل الباي وأن هذا الأخير رفض قبول أي اقتراح حول السلم ، تاركا اتخاذ القرار للدول » (27) . وفي الجملة

(21) نفس المرجع 26 افريل 1881 .
(22) نفس المرجع .
(23) نفس المرجع ـ 23 افريل 1881 .
(24) نفس المرجع 11 H 10 ـ 6 ماي 1881 .
(25) نفس المرجع IJ 77 ـ 19 افريل 1881 .
(26) نفس المرجع IJ 77 ـ 25 جوان 1881 .
(27) نفس المرجع 1 جويلية 1881 .

فان الانظار قد اتجهت الى ناحيتين : أولا الدول الاسلامية الأخرى المؤمل تدخلها في النزاع ثم بعض الدول الأوروبية .

ـ تدخل الدول الاسلامية :

يندرج تدخل الدول الاسلامية المرغوب فيه في اطار الحركة الاسلامية في أواخر القرن التاسع عشر . ومن المقرر ان يتم هذا التدخل المنتظر بدون جدوى ، بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة عن طريق ذرية الأمير عبد القادر .

فحسب الأخبار الرائجة ، يهم ذلك التدخل على حد السواء الجزائر وتونس وقد يكون ناتجا عن بعض الاتفاقيات المبرمة بين الحكومات . ويتحدث بعض الناس عن امكانية وقوع بعض العمليات العسكرية لتطبيق تلك الاتفاقيات .

وفي تلمسان لم يعلق السكان أهمية كبرى على العمليات الاولى الجارية بتونس ، فهم يرون « أن دخول الفرنسيين لمدينة الكاف أمر لا يؤبه به وسنرى قريبا ماذا سيحصل للفرنسيين عندما يصل سلطان اسطنبول مع جيوشه وجيوش مصر وطرابلس .... » (28) . وقبل ذلك أي في غضون شهر أفريل بدأ ينتشر الخبر القائل بان سلطان المغرب سيحل قريبا بالحدود ، وقد أثار ذلك الخبر شتى التعاليق . وقد يكون وصول سلطان المغرب « نتيجة للاتفاق الحاصل بين باي تونس وسلطان اسطنبول » (29) . وفي منطقة ورقلة لم يصدق الناس الأخبار المتعلقة بالعمليات الاولى التي جرت لصالح الفرنسيين حيث أن « تركيا التي هي أقوى من فرنسا ستأتي لنجدة التونسيين وسحق الفرنسيين » (30) .

وبعد التسليم بمبدأ تدخل البلدان الاسلامية ، أخذ الناس في وصف مختلف العمليات المنتظرة بكل دقة . ففي اقليم قسنطينة راجت الأخبار في شهر جوان حول معارضة بعض القبائل بالايالة التونسية لمعاهدة الضمان وحول نزول الجنود الاتراك بطرابلس (31) . وفي شهر

(28) نفس المرجع IJ 37 ـ 30 افريل 1881 .
(29) نفس المرجع .
(30) نفس المرجع 11 H 10 ـ 18 جوان 1881 .
(31) نفس المرجع 11 H 34 ـ 10 جويلية 1881 .

مـاي تشيـر الاخبـار المنتشرة بمنطقة تلمسان الى وصول أحد الباشوات يدعى نور الديـن الى تـونس قادمـا من القاهـرة على رأس 000 80 رجل ، وهـو يعتـزم الاستيـلاء على عنابـة (32) . وفي شهـر افريل تفيد الاخبار بـأن ذلك التدخل مكثف ومنسق من طـرف سلطان اسطنبـول لأن « مـا جـد أخيـرا لا ينبغي اعتبـاره مجـرد عمليات لصوصيـة قامت بها القبائل التونسية .... بـل بداية الجهاد الذي أمـر سلطان اسطنبـول باي تونس اعلانـه ضـد الفرنسيين . ولقـد أبحـر من الاسكندرية 30·000 رجل مـن الجنـود المصريين ووصلـوا الى تونس . كما وضع الاسطول المصري تحت ذمـة باي تونس الذي ليس لديـه بواخـر .

والأمـر الأول الذي اصدره سلطان اسطنبول لباي تـونس يتعلق بطـرد الفرنسيين من الولايـات التابعـة لـه والاستيـلاء على ممتلكاتهم وتدميـر سككهم الحديديـة وكذلك التلغـراف . والملاحظ ان القبائل التونسية التي كانت دائمـا متمـردة على مليكها قد خضعت له في المـدة الأخيرة للمساهمة في الجهـاد » (33) . وأخيـرا فالنتيجة القصوى لتلك التدخلات ان سكان الكنادسة يقولـون ان « سلطان اسطنبـول قد قـدم لنجـدة التونسيين وانه قـد استولى على الجزائـر التي لم يبق فيها أي فرنسي » (34) .

وهنـاك أخبـار أخـرى تتوقع تدخلا غير مباشر من طـرف الأميـر عبد القادر أو ذريتـه . وتـوارد هذه الاخبـار يـدل على ان الناس يفكـرون ويرغبـون في عـودة عائلـة الأميـر .

وفي منطقة بني أزناسن ، أذاع أحـد الحجيج عند عودته من مكـة في سنـة 1880 الاشاعـة القائلـة « بـأن السبب الحقيقي للنـزاع الذي أثارته تـونس يتمثـل في المهمـة التي كلف بها سلطان اسطنبول الأمير السابـق الحاج عبد القادر لاسترجاع الجزائـر من أيـدي النصارى » (35) . وحسب هذه الروايـة فـان الاميـر سيتولى قيـادة كافة الجيوش الاسلامية ، وهناك روايـات أخـرى تسنـد الى الأميـر دورا محدودا أكثـر . وفي منطقة أولاد ميمـون كان سكـان نيمـور وبني أزنـاسـن ، يعتقدون أن الامير سيتولـى قيـادة الجيـوش التونسية هو نفسه أو ولـده (36) . وفي رواية أخيـرة

(32) نفس المـرجـع IJ 77 ـ 11 مـاي 1881 .
(33) نفس المـرجـع 13 أفـريـل 1881 .
(34) نفس المـرجـع ـ 2 جـوان 1881 .
(35) نفس المـرجـع 26 أفـريل 1881 .
(36) نفس المـرجـع ـ 21 أفـريـل 1881 .

« أقـال سلطان اسطنبـول الباي سي الصادق وعوضه بالجنرال خير الدين الذي عين خليفة لـه محي الدين ابن الامير عبد القادر » (37) .

ـ تدخل الـدول الأروبيـة :

يـدور الحديث حـول تدخل سلطان اسطنبـول بمفـرده وفي بعض الروايـات بمساعـدة بعض الـدول الأروبيـة . أمـا الـدول التي يعتبـر تدخلها متوقعـا بل حتى وشيكـا ، فهي مطابقـة الى أبعـد حـد للمواجهات الأروبيـة بالبحـر الابيض المتـوسط وبالمغـرب العربي . ويبد وبالخصوص ان المناقشات الفرنسية الايطاليـة والفرنسية الانجليزية قد تدعو ايطاليـا وانجلتـرا الى التدخـل .

ففي إقليم وهـران تفيد الاخبـار بـأن « بعض الدول الأروبية تـؤيـد البـلاد التـونسية (38) . وفي تلمسان يـرى السكان ان جميـع الـدول الاسلاميـة تستطيـع الاعتمـاد على ايطاليا وربما على انجلترا » (39) . وفي تلمسان يـرى السكان ان جميع الدول الاسلامية تستطيع الاعتماد على ايطاليا وربما على انجلتـرا » (39) . وفي منطقة ورقلة يتساءل السكـان » كيف يمكن أن يغلب الفرنسيون تونس ؟ هذا شيء غير صحيح . لان ايطاليا مناصرة للبـاي ويجب عليها ان تمـد له يـد المساعدة » (40) .

وتؤكـد روايـة أخـرى مماثلة في منطقة الأغـواط ان « الباي مؤيـد من طـرف ايطاليـا وان على الفرنسيين أن يقـرؤوا حسابـا لقـوات تلـك الحكومة اذا ما أرادوا احتلال تراب الايالة » (41) . وفي بلـديـة « فـور ناسيونـال » المختلطـة راجت اشاعات تفيـد بان انجلتـرا متحالفة سريا مع البـاي (42) . وبعد احتجـاز احدى البواخر الفرنسية بمليلـة استخلص الناس من ذلك ان « اسبانيـا نفسها ستشارك في القتال الى جانب اعـداء الفرنسيين » (43) .

(37) نفس المـرجـع 5 مـاي 1881 .
(38) نفس المـرجـع IJ 77 ـ 19 افـريـل 1881 .
(39) نفس المـرجـع 13 أفـريـل 1881 .
(40) نفس المـرجـع 12 H 11 18 جـوان 1881 .
(41) نفس المـرجـع 10 H 11 ـ 26 أفـريل 1881 .
(42) نفس المـرجـع 6 H 19 ـ فيفـري 1881 .
(43) نفس المـرجـع IJ 77 ـ 13 افـريـل 1881 .

ومجمل القول ان ردود الفعل الجزائرية التي تبدو متعددة الاشكال تهم على حد السواء مواقف السكان الجزائريين تجاه النظام الاستعماري بالجزائر وما تركته العمليات العسكرية الجارية بالبلاد التونسية من وقع في البلاد الجزائرية .

فلقد مضى على انتصاب الاستعمار بالجزائر ، في سنة 1881 نصف قرن . وقد تم الاحتلال العسكري لشمال البلاد ، كما شهدت منطقة الهضاب العليا تركيز المراكز العسكرية الثابتة ، وأصبحت بعض مدن الجنوب مثل ورقلة والاغواط وجيريفيل مقرات للدوائر العسكرية . كما تكثفت حركة التأطير الاداري وحققت الادارة تقدما كبيرا في سنة 1848 وفي سنة 1871 . وأفضت مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية الى تفكيك الهياكل المحلية بالمناطق الشمالية وأصبحت تهدد المناطق الواقعة فيما وراء التل . ومن سنة 1830 الى سنة 1881 أمكن التغلب على حركات المقاومة ضد الاحتلال العسكري والاستلاب الاقتصادي وذلك باعتبار التفاوت في الوسائل والاساليب العسكرية .

الا أن ردود الفعل الجزائرية في سنة 1881 تدل على الآمال التي كانت معلقة على انتهاء الهيمنة الاستعمارية في القريب العاجل ، تلك الهيمنة التي عارضها الثائرون في سنة 1881 بحد السلاح . أما ردود الفعل الاخرى فقد كانت مطابقة لأوضاع المجتمع الريفي المتجذرة ، ولتحطيم الهياكل الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية .

ومن ناحية أخرى فان ردود الفعل الجزائرية تدل أيضا على مدى تأثير الحوادث التي تهم أي قطر من الاقطار المغربية والاسلامية . من ذلك مثلا أن انزال جيوش بونابرت بمصر في سنة 1798 ، قد أثار انفعالا كبيرا بالجزائر ، سجله أحد كتبة الداي في يومياته . كما لوحظ في المغرب العربي ما أثاره نزول الجيوش الفرنسية بسيدي فرج في سنة 1830 ، من ردود فعل مغربية وتونسية . وفي سنة 1881 أثارت العمليات العسكرية الفرنسية بتونس نفس القلق بالجزائر . وسيكون الامر كذلك عندما ستتضح التهديدات الموجهة ضد المغرب في سنة 1911 – 1912 ويتم انتصاب الحماية الفرنسية بتلك البلاد . ففي كل مرة تعم الاضطرابات وتزداد الحاجة الى رد فعل مناسب ضد الضغوط الأوروبية . وسيتمثل رد فعل المجتمعات المغربية فيما بعد في تكوين ونشاط الحركات السياسية والنقابية .

وختاما تجدر الاشارة الى أن مختلف التواريخ الوطنية المغربية ، مع ما تتطلبه من دراسات مقارنة ، تبدو بمثابة المستوى الثالث للتاريخ المقام على أساس التبادل بين مختلف الاقطار المغربية : كتنقل المواد والاشخاص وحركات الافكار المتولدة عن الاحداث الخاصة بكل قطر على حدة وبالمغرب العربي بأكمله .

فلا ينبغي حينئذ أن يهمل تاريخ المغرب العربي هذا البعد الاخير ، والا كان ناقصا .

الطيب شنتوف
الاستاذ المساعد بجامعة وهران

دور « الشبان التونسيين » في تطوير السياسة والمؤسسات بالبلاد التونسية

سيداتي سادتي ،

لا أدري هل ستتسامحون لتمكين متدرب في القانون على ولوج دروب التاريخ . الا أن التسامح الذي عبرتم عنه في هذا المكان من شأنه أن يسمح لي بابلاغكم بعض الملاحظات حول ظهور الحزب السياسي « الشبان التونسيين » .

واني أعتقد ان هذه الحركة معروفة بما فيه الكفاية ، حيث قد خصصت لها عدة نشريات من قبل عدد من المؤرخين الأجلاء ، وكثير منهم حاضرون في هذه الندوة . ولقد سبق لي أن نشرت في مجلة مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بعض الفصول حول عدد من الوقائع التاريخية المتعلقة بتلك الحركة .

وبناء على ذلك سوف لا أتناول بالدرس الأبعاد التاريخية لحركة « الشبان التونسيين » بل مساهمتها في تشييد المؤسسات التونسية بوجه خاص وفي التطوير السياسي للبلاد التونسية بوجه عام . أجل ، يجب علينا أن نضع الاحداث التاريخية في اطارها الزمني . ولكنني سأخالف التحديد الذي ضبطه شارل اندري جوليان وذلك بمنح الاولوية للزمنية الحالية . ذلك أننا نعيش اليوم في تونس فترة ومرحلة على غاية من الأهمية بالنسبة لتطوير النظام السياسي التونسي نتيجة لما نطمح اليه من نظام تعددي وديمقراطي .

لقد كانت لانتصاب الحماية الفرنسية بتونس انعكاسات بالغة الأهمية على الحياة السياسية والادارية والاقتصادية بالمنطقة وقد تسنى لكثير من الزملاء المؤرخين وعلماء الاجتماع دراسة الجوانب البارزة من ذلك الانفصام شبه التام الحاصل في تطور البلاد التونسية الاصلاحية فيما قبل سنة 1881 والذي سينعكس على تطور الجهاز السياسي والاداري والمؤسسات بالبلاد .

من ذلك أن السيد الهرماسي قد بين في تدخله كيف كان خير الدين والمفكرون في عصره يريدون تطوير الدولة التونسية التي هي متخلفة لا محالة ولكنها موجودة ومضطلعة بالاشراف على شؤون المجتمع ، فلو تحقق ذلك الهدف لأمكن توقيف التدخل الاستعماري بالبلاد .

فمما لا شك فيه ان عهد الامان الصادر في سنة 1857 والدستور الصادر في سنة 1861 والاوامر التطبيقية لم تنص على احداث وزارات ذات صبغة اجتماعية او اقتصادية ومتوجهة نحو التنمية . ومع ذلك فانها قد نصت على احداث عدة وزارات سيادة مثل المالية والشؤون الخارجية والبحرية والحربية ، وعلى رأسها الوزارة الكبرى .

وكان من الممكن أن تشهد الهياكل الحكومية بدفع من الجنرال خير الدين ، تطورا متوقعا ، في سبيل تنظيم المهام الادارية وانجاز البنية الاساسية اللازمة للتنمية الاقتصادية للبلاد . ولكن ذلك لم يحصل ولم يبلغ التطور غايته . وسيجعل انتصاب الحماية في سنة 1881 بادخال تونس بقوة في طور جديد من تنظيم السلطات العمومية .

فلقد تم قبل ذلك التاريخ التنقيص من سلطات الباي بموجب دستور سنة 1861 لفائدة الوزير الاكبر والحكومة .

ولكن الحماية بتنظيمها الاداري الجديد ستحدث واقعا جديدا يتمثل في تجريد الادارة التونسية من أية سلطة من سلطات التقرير والمراقبة .

ذلك أن العمل الاستعماري يتطلب الاعتماد على جهاز اداري من نوع خاص لا تستطيع الهياكل المحلية تحقيقه . فكان من الضروري تركيز جهاز اساسي ضخم لتسهيل عملية استقبال وتنصيب الجالية الفرنسية الجديدة وتأكيد أغراضها .

ولقد اتضح ذلك بالخصوص داخل البلاد حيث لعبت طرق المواصلات دورا حاسما في انتشار الاستعمار التوطيني ولا سيما منه الزراعي .

وكان من الضروري تحقيق تلاؤم الايالة مع مناخ الحياة السياسية والحريات العامة بفرنسا ، التي بدونها لا يمكن للجالية الفرنسية أن تستقر بالبلاد التونسية . فطوال عقدين كاملين تم اخضاع البلاد التونسية عن طريق شتى القوانين والأوامر ، للامركزية الادارية والادارة المباشرة التي ورثنا عنها ما نحن مطالبون باصلاحه الى يومنا هذا . فهذا حينئذ واقع سيطغى على حياتنا التنظيمية للسلطات العمومية حتى عصرنا هذا .

ولقد مثلت تلك الاحداث ثورة حقيقية . فكيف أحس التونسيون بذلك ؟ وما هي عوامل التلاؤم مع ذلك الواقع ؟

وهنا ستتخذ حركة « الشبان التونسيين » بعدها الحقيقي .

فالنخبة التي كانت تحيط بالجنرال خير الدين ، أصبحت تشاهد باندهاش تركيز هذا الوضع الجديد . واني أذكر على سبيل المثال ما رواه الشيخ محمد السنوسي عن استقبال الباي لوفد الاعيان الذين توجهوا اليه في سنة 1885 لتقديم مطالبهم المتعلقة بقضية بلدية تونس . فقد « بكى (الباي) لبكائهم وقال : الحق اني أولى منكم بالبكاء وظهر عليه أسف عجز لا مقدرة معه » (1) . ففي هذا الجو من الاندهاش والانخذال وانحطاط صنف معين من النخبة التونسية ، بل انحطاط الشعب التونسي بأسره ، ستظهر الحركة التي ورثت تفكير خير الدين وايديولوجيته .

وابتداء من سنة 1880 ستتكون تلك المجموعات ضمن هياكل مختلفة مثل جماعة الحاضرة من سنة 1885 الى سنة 1888 وجماعة علي باش حانبة من سنة 00 19 الى سنة 1905 . وسوف لا أطيل الحديث حول هذا الموضوع الذي طرقه أمس باطناب زميلي نور الدين سريب .

فهذه المجموعة هي التي نطلق عليها اسم حزب « الشبان التونسيين » . ولا شك أن عبارة « حزب » قد تثير الالتباس . واني أعلم أن زملائي رجال القانون سوف لا يغفرون لي التحدث عن « حزب » ، والحال انه لا يمكن التثبت من انتماء المنخرطين فيه عن طريق البطاقات أو الايديولوجية السياسية . ولكني أصر على التحدث عن « حزب » نظرا الى قواعد تلك الحركة واشتمالها على عدة تيارات ايديولوجية تابعة للنخبة التونسية منذ سنة 1881 الى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

(1) محمد السنوسي « النازلة التونسية » الدار التونسية للنشر 1976 .

وسأقدم في القسم الأول من هذا العرض الجانب المؤسسي من تلك الحركة ومساهمتها في تطوير البلاد التونسية تطويرا أساسيا .

وسأحاول في القسم الثاني ان أتبين هل أن تلك الحركة قد تمكنت من افراز نوع من الحزب الوطني .

والجدير بالملاحظة أن الجانب المؤسسي من تلك الحركة هو الذي يسمح لنا بالتحدث عن مساهمتها في تطوير البلاد سياسيا . ذلك ان تلك الحركة قد أحدثت حولها شبكة حقيقية من الأنشطة الثقافية والتعبئة السياسية .

وأذكر بهذه المناسبة تدخل علي باش حانبة أمام الطلبة الزيتونيين ، ذلك التدخل الذي أفضى الى ظهور تجمع سياسي حقيقي ، كان محل مراقبة ادارية بوليسية من قبل الحماية .

كما أذكر اضراب الترامواي الذي يمثل في نظري أوج نشاط « الشبان التونسيين » . اذ انه كان خاتمة مجموعة من الانشطة الرامية الى التعبئة السياسية . ولقد ظهر ذلك الاضراب لا بمظهر المطالبة بل بمظهر العمل السياسي .

كما ساعدت تلك الحركة على انتشار صحافة سياسة لا علاقة لها بالصحافة التي أنشأتها جماعة خير الدين . فقد اتسع نطاق تلك الصحافة السياسية وازداد اشعاعها وأصبحت تعبر عن آراء سياسية تعتمد على الحمية الوطنية . ولقد أثار سلوك جريدة ناطقة باللغة الفرنسية مثل جريدة « التونسي » ، اعجاب النخبة التونسية بأسرها وكذلك اعجاب حلفائها بفرنسا وحتى داخل الشق المتحرر من الجالية الفرنسية بتونس .

وقد أفرزت الحركة خلال الحرب الطرابلسية عدة هياكل للمقاومة ، تمثلت بالخصوص في مكاتب التعبئة التي احدثت في العاصمة وفي عدة مدن أخرى داخل البلاد . وتشير الوثائق التي حجزت عند القاء القبض على علي باش حانبة ، الى وجود عدة رسائل صادرة عن التونسيين الراغبين في التحول الى البلاد الطرابلسية . وبالفعل فان رسائل كثيرة كانت تعبر عن تحمس التونسيين للمساهمة في الكفاح ضد احتلال طرابلس . وهذه الرسائل واردة من عدة أنحاء من البلاد ، الامر الذي يدل على تركيز حركة « الشبان التونسيين » بفضل تلك الصحافة السياسية وبفضل مكاتب الحركة وشبكات المراسلين ، المنتشرة في جميع أنحاء البلاد »

ومن ناحية أخرى فقد ساهمت حركة « الشبان التونسيين » في التطوير السياسي للبلاد عن طريق الاسهام في وضع مذهب سياسي وطني من النوع الليبيرالي . واننا نجد على وجه العموم ثلاثة اتجاهات داخل تلك الحركة .

فالبشير صفر يمثل الاتجاه المحافظ العربي الاسلامي وعبد الجليل الزاوش يمثل الاتجاه الاقتصادي الليبيرالي ، ويتزعم علي باش حانبة ومحمد نعمان نزعة متصلبة اكثر ومتأثرة اكثر بالاشتراكية . أجل انني لم أعثر في تفكيرهما على قواعد متأثرة بالماركسية ، ولكني اكتشفت فيه ميولا شعبية ، والملاحظ ان باش حانبة ينحدر من عائلة ارستقراطية ادارية ، من نوع « المخزن » بينما نعمان من طبقة تونسية متوسطة ، حيث ان عائلته تنتمي الى وسط من أوساط الحرفيين المتواضعين .

هذا وان حركة « الشبان التونسيين » مع محافظتها على هويتها العربية الاسلامية ، كانت تدعو الى اعتناق مذهب سياسي وطني موجه نحو نظام اقتصادي ليبيرالي متأثر بالانموذج الفرنسي . وهنا يكمن ذلك المشكل المعروف والمتمثل في الخيار الصعب بين التربية الفرنسية العربية او التربية الاسلامية .

ولقد اختار الجناح المتطرف من حركة « الشبان التونسيين » المدرسة الفرنسية العربية والمدارس المهنية الكفيلة باعداد نخبة قادرة على المطالبة والكفاح بواسطة لغة الخصم وفوق ميدانه . ولا شك أن هذا المذهب السياسي متأثر بتفكير خير الدين حينما ينادي بحرية الفرد ويدعو الى ضرورة الدفاع عن الهوية والطموح الى حياة الحرية والتعلق بالعدالة التي يضمنها الدستور والقانون .

كما ان الحرص على الدفاع عن السيادة التونسية ومقوماتها ، وفقا لروح المعاهدات ، يمثل عنصرا آخر من العناصر الموروثة . وأذكر بهذه المناسبة الزميل سريب بان نظام المشاركة المقدوح فيه والقابل للانتقاد ، لم يكن سوى خطة تكتيكية عدلت عنها الحركة في آخر الأمر . فسياسة المشاركة قد فكرت فيها الحركة في أول عهدها باعتبارها وسيلة لتمكين التونسيين من المساهمة في تصريف شؤونهم . ولكن قد تم العدول عن تلك السياسة في أواخر سنة 1912 عندما تبين أنها لا تجدي نفعا .

فهذه السياسة هي حينئذ مجرد خطة كانت ترمي الى عودة السيادة الى التونسيين وفقا لمعاهدة سنة 1881 ، تلك المعاهدة التي أبقت على الدولة التونسية وحافظت عليها .

واعتبارا من تلك المرحلة تحولت الحركة الى حزب وطني وستعمل على تحوير هياكلها الحزبية الخاصة ضمن نظام متسم أكثر فأكثر بالتنوع والتعدد .

واذا ما حللنا الجهاز التشريعي المتعلق بالحريات العمومية لوجدناه قد أحيل الى شكله الأبسط . ذلك أن قانون 15 سبتمبر 1888 المتعلق بالتجمعات والقانون الصادر في شهر أكتوبر 1884 والأوامر التطبيقية لا تسمح باقامة نظام كامل للحريات العمومية .

وحيث أن الجمعيات مازالت خاضعة للرخصة المسبقة فان حزب « الشبان التونسيين » قد بقي في الواقع خارج القانون . ولكنه استطاع ، بفضل إقامة نظام تعبئة حزبي ، ان يفرض في الواقع مذهبا سياسيا مرنا ، يسمح له بالاضطلاع بمهمة تمثيل الجماهير والتحدث باسم الأمة قاطبة . ومن الممكن أيضا ان ننسب لذلك الحزب الوطني مهمة تكتيل الوطنيين . ولقد سبق لي أن أشرت الى تجميع بعض المذاهب السياسية في صلب الحركة .

وختاما أود أن أقوم بمقارنة في هذا الصدد . ذلك ان الحزب الدستوري الجديد سيرث تلك التقاليد الخاصة بالتعبئة والتنظيم واقامة الهياكل الحزبية .

وسيتولى توسيع نطاق تلك التقاليد لتشمل المظاهر المذهبية والتكتيكية (التعلق بالباي وبسيادة الدولة التونسية التي بقيت قائمة الذات رغم الحماية ....) وفي ميدان التطوير السياسي سنجد الحزب الدستوري الجديد اكثر عددا وأشد تلاؤما مع المعارك المذهبية واكثر تنوعا من حيث الأصول الاجتماعية وأشد صرامة في الاهداف وبالخصوص أكثر استعدادا للاتصال بالحركة العمالية وبقسم لايستهان به من نخبة الفلاحين . وستكون للحزب الدستوري الجديد قدرة أكبر على تعبئة الجماهير في المدن والأرياف . الأمر الذي سيمكنه من فرض نفسه بوصفه القوة المسيطرة عند اعلان الاستقلال . فهل واكب ذلك الحدث توسيع أسس المؤسسات بالبلاد وتعدد الهياكل الكفيلة بتمكين المواطنين من المساهمة في ضبط السياسة الاجتماعية والاقتصادية بالبلاد ؟

ان الأمر يتعلق هنا أيضا بمسألة نسبية . وان ما اعتبرته مؤشرا لمساهمة « الشبان التونسيين » في تطوير السياسة والمؤسسات بالبلاد ، يمكن لا محالة ان ينطبق على الحزب الدستوري الجديد بالنسبة للفترة التي تقلد فيها الحكم منذ الاستقلال .

ولكن هل أن التطور السياسي لأمة من الأمم هو قضية عقد أو نصف قرن ؟ انه لا يمكن ان يسمح بالأجابة عن هذا السؤال الا السخاء وفي آن واحد الصرامة في تأويل الاحداث التاريخية .

خالد قزمير
مساعد بمركز الدراسات
والبحوث الاقتصادية والاجتماعية

الجلسة التاسعة

رئيس الجلسة :

ـ **السيد عبد السلام دمق** ، الاستاذ بكلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية بتونس

المحاضرة :

ـ **السيد جرمان عياش** ، الاستاذ بجامعة الرباط

* « ردود الفعل المغربية تجاه الاحتلال الاسباني والفرنسي » :

ردود الفعل المغربية
تجاه الاحتلال الاسباني والفرنسي

ان الصورة السائدة اليوم للهيمنة التي تعرض لها المغرب في الماضي هي صورة زاهية . فيقال ان تلك الهيمنة التي أطلق عليها اسم « الحماية » والتي كانت اولا وبالذات من صنيع فرنسا ، قد تحققت بدون اصطدامات تستحق الذكر وبصورة تكاد تكون لينة ، لتفضي الى نوع من الاتحاد الودي بين المستعمرين (بالفتح) والمدنين (بالكسر) .

ان هذه الصورة المطمئنة التابعة للاسطورة التي نحتها كثير من المتملقين للمرشال ليوتاي ، لا تزال مستمرة ، رغم ما ادخل عليها هنا وهناك من اللمسات . الا ان الوقت قد حان بالنسبة للمؤرخ لتبديد ذلك الركام الاشهاري . وبما أنه لا بد لكل شيء من غاية ، فقد آن الاوان مثلا لنسجل للتاريخ ان ليوتاي لم يتوفق الى « تهدئة » المغرب ـ كما يقال ـ بل بالعكس من ذلك فانه قد انهزم وأطرد من تلك البلاد . ذلك ان المغرب لم يغلب الا بعد ليوتاي ، ولكن بالسيف والنار ، من قبل جيشين أوروبيين متحالفين ، وبواسطة دباباتهما ومدافعهما واساطيلهما وطائراتهما . كلا ، ان المغرب لم يقطف كما تقطف الثمرة الناضجة . وان حرب الخمس سنوات التي خاضها الاسبانيون والفرنسيون بالريف لهي بدون شك من الامور الغريبة ، ولكنها لم تكن من الاحداث الناتجة عن لا شيء والتي لم يترتب عليها أي شيء ، فهي تمثل أوج حركة كبرى من حركات المقاومة التي شملت المغرب الاقصى بأسره والتي اندلعت قبل سنة 1912 ولم تنته الا في سنة 1934 ، لتندلع من جديد بعد حين ، ولو في ضيغ جديدة ، قبل ان تنتهي في شكل كفاح جديد مسلح ، أحرز هذه المرة على الانتصار .

وفي العرض الذي سأقدمه بعد حين ، سوف لا اروي ولو باقتضاب أحداث كل طور من أطوار تلك المقاومة التي دامت مرحلتها الاولى ثلث قرن والتي ستكون موضوع هذا البحث . فسأقتصر على رسم ملامح تلك المرحلة وابراز خطوطها المميزة الكبرى .

ولنبدأ بالتذكير بوجود تقاليد قديمة للكفاح المسلح ضد المعتدي بالمغرب الاقصى ، من الصعب ان نجد مثيلا لها بالبلدان الاخرى . فلقد تمثل المشكل طوال عدة قرون بالنسبة لبقاء الشعب المغربي ، في الوقوف اولا في وجه الاحتلال الاسباني البرتغالي ، ثم في محاولة التخلص منه بتحرير الموانى ، الواحد تلو الاخر ، وقد بقيت كلها او جلها بين أيدي المغتصب . فهذا الكفاح الطويل قد ترك أثره الراسخ في البلاد التي طغى على عقليات ابنائها شعور وطني قوي يقظ . ذلك الشعور الذي سيكون له بدوره ـ على أساس الظروف العامة لذلك العصر ـ اثر في أشكال الحياة السياسية بالبلاد . وهو الذي سيعطي الحكم للسلاطين المنحدرين من ذرية الرسول والذين سيلتف حولهم المغاربة ـ المسلمين جميعا ـ في كنف الوحدة القاضية على جميع الحواجز الجهوية والقبلية . ولكن الدم الذي يجري في عروق أولئك السلاطين الجدد لم يعفهم قط من الاضطلاع بالمهمة الملقاة على عاتقهم والمتمثلة في تجميع وتعبئة الطاقات في سبيل كفاح التحرير . وان أي اخلال بذلك الواجب يفضي بصاحبه الى السقوط ، لفائدة مترشح آخر ، ينتمي لا محالة الى نفس الاسرة ، ولكن استعداده يمثل في آخر الامر عنوان الشرعية . وبحسب هذين المعيارين حل العلويون محل السعديين ، وضمن هاتين الاسرتين ، يحل محل الشريف المخل بواجبه شريف آخر اجدر منه .

وليس من الغريب ، بالنسبة لمن يتذكر المعطيات السابقة ان يلاحظ مدى ردود الفعل المغربية تجاه عودة الاحتلال الاجنبي سواء في آخر القرن الماضي او في مطلع هذا القرن .

وكما هو معلوم ، فان الاصطدام الاول بين المغاربة وأحد الجيوش الاروبية العصرية قد حصل في واد ازلي قبل 68 سنة من عام 1912 الذي هو تاريخ انتصاب الحماية ، ولقد أظهرت الهزيمة التي منيت بها القبائل التي واجه بها السلطان عبد الرحمان ، بوجوه أظهرت بغتة الى المسؤولين المغاربة ما تتمتع به الامم النصرانية من سيطرة ساحقة بفضل ما لها من فنيات وانضباط ومعدات . فهذا الشعور الذي كان من المفروض ان يحثهم على الاستفادة بأحسن وجه ممكن

من الوسائل المتوفرة لديهم ـ كما حرضهم على ذلك الامير عبد القادر حسبما يبدو ـ كان من نتيجته شل حركتهم في المستقبل ، امام الاوامر الصادرة لهم على التوالي من الدول الاروبية . وقد عبر عن تلك العقلية بعد ذلك التاريخ باثنين واربعين عاما المؤرخ الناصري حين قال : « لقد كنا تجاه أروبا بمثابة الطير الذي فقد جناحيه فانقض عليه الصقر . » كان ذلك في سنة 1886 .

وفي الاثناء طالت قائمة التنازلات الحاصلة تحت التهديد : من التنازل عن بعض المناطق الترابية سواء الى الفرنسيين او الاسبانيين ، الى وقف الاعانة المقدمة الى المقاومة الجزائرية وطرد الامير عبد القادر وابرام معاهدة مفجعة مع بريطانيا العظمى . ولئن أجبر سيدي محمد في سنة 1860 على الوقوف في وجه الغزو الاسباني ، فلقد انتهت الحرب مرة أخرى بالهزيمة التي دعمت لديه ولدى كل مساهم من قريب او بعيد في اتخاذ القرارات ، الشعور الراسخ من قديم بالعجز التام .

ولقد أمكن ـ والحق يقال ـ للسلطة المغربية ان تكون حاضرة أحيانا في بعض المعارك التي يشنها رعاياها تلقائيا او بأمر للدفاع عن حوزة الوطن . مثلما وقع عند دخول الفرنسيين لتوات في سنة 1900 او عندما توغلوا في الصحراء انطلاقا من السينيغال والنيجر . ولكن تلك المعارك قد خسرت مسبقا ولم يقع الدفاع عن الارض المفوت فيها .

وهكذا فمنذ اواسط القرن الماضي ، وفي حين كانت البلاد متعرضة من قبل النصارى للاغتصابات الاقتصادية والاهانات السياسية والالحاقات الترابية ، كان الامير يتغاضى عن دعوة المؤمنين الى ان يهبوا للدفاع عن بلادهم .

وهذا مثال ملموس حول ردود فعل أولئك الناس . ففي سنة 1893 كان الفرنسيون يحاولون دفع بعض القبائل التابعة لهم في ضواحي الفقيق الى التوغل في التراب المغربي وطرد سكان المناطق المحتلة . فتوجه أولئك السكان الى مليكهم الذي أخذ في تهدئتهم معربا عن ثقته في النوايا الفرنسية . ولكن السلطان قد لاحظ ان جهوده قد ذهبت سدى ، فكتب يقول :

« لقد كانوا مقتنعين بان تخوفاتهم في محلها . وكانوا حانقين على الجزائريين وعلى ادارتنا (المخزن) حيث كانوا يعتقدون ان السلطة متفقة مع الجزائريين لطردهم من ارض آبائهم واجدادهم » .

هذا بالنسبة للحاضر ، أما بالنسبة للنتائج المتوقعة فقد أضاف السلطان ما يلي :

« اذا لم ترجع فرنسا الامور الى نصابها بدعوة قبائلها الى الهدوء ، فان قبائلنا المهضومة الجانب ستنقلب لا محالة ضد ادارتنا التي تنسب لها أخبث النوايا ، وستشق في وجهها عصا الطاعة وسوف لا تكترث بنداءاتنا الى الحذر لتتولى مصيرها بنفسها » .

ان هذا التحليل المتبصر ينبىء بكل ما سيقع في المستقبل وسيتأكد خلال نفس السنة أثناء الاحداث الخطيرة التي جدت حول مليلة المحتلة من طرف اسبانيا . حيث أقدم المحتل على بناء بعض الاشغال الهجومية في مقدمة المدينة المحصنة فتدخل الريفيون وانجر عن ذلك اندلاع المعركة التي انتهت بفرار الاسبانيين من مليلة . وهكذا نرى ان الريفيين لم يستمعوا الى نصائح الحذر وتولوا بنجاح الدفاع عن أنفسهم . ولكن عقبت ذلك الانتصار حوادث لم يتوقعوها من قبل . ففي حين كانت المعارك الحامية الوطيس تجري بين الريفيين والحامية انزل الاسبانيون جيشا عرمرما بمليلة . فاندلعت الحرب من جديد مثل ما وقع في سنة 1860 . ولكن السلطان لم يكن راغبا في ذلك ، فعندما قدم جيشه الى هناك ، هجم على الريفيين وأرجعهم الى الوراء بعدما دمر خنادقهم والقى القبض على زعيمهم وسلمه الى الاسبانيين .

وهكذا فقد تم بالفعل تجنب الحرب . ولكن ماذا يمكننا ان نقول حول الريفيين ؟ ان أولئك الرجال البواسل الالداء أمام الاسبانيين قد استسلموا لجنود سيدهم ومولاهم دون ان يحركوا ساكنا . أجل انهم لم يحركوا ساكنا ولكن ليس بدون تململ . فماذا سيكون موقفهم مرة أخرى ؟ هل سيركنون الى الطاعة ؟ وهل سيسلمون مرة أخرى الزعيم الذي قادهم أم أنهم سيلتفون حوله ؟

ان المثالين السابقين متطابقان ومتكاملان ، فهما يبينان لنا كيف نشأ وتأكد وتفاقم الانفصال بين السلطان ورعاياه عندما شعروا بان المركب الذي يتقاذفه البحر لم يعد له ربان ، ذلك الانفصال الذي اجبر السلطان على بذل ما تبقى له من جهد يسير لقمع تنطعات رعاياه وبعبارة أخرى لتقويض قاعدته والحكم على نفسه بالعزلة ليصبح بين ذويه أجنبيا او منبوذا ، سيرتمي ذات يوم في أحضان الفرنسيين القادمين لحمايته .

اما الرعايا فقد وجدوا أنفسهم بحكم ذلك الانفصال محرومين من ذلك الزعيم الضروري الذي قبل ان يكون رائدهم ، يمثل الرباط العضوي الوحيد والضامن لما يكفي من الالتحام بين مختلف فئات الشعب . وهكذا فقد كتب لهم ان يواجهوا الخطر ـ بحسب المكان الذي سيظهرفيه ـ في صفوف مشتتة ومتناخرة وتحت قيادة زعماء اختاروهم من بينهم بصورة مرتجلة .

على انه من البديهي ان هذه المحاولات الاولى سيحكم عليها بالفشل اذا لم يقع التوصل الى اعادة الوحدة للبلاد بأسرها وذلك باختيار أمير مؤمنين جديد . وبكل بساطة اتجهت الانظار نحو أمير من الامراء المنتمين الى نفس الاسرة ، القادر بما له من مكانة على تحقيق التفاف أكثر ما يمكن من الناس حول شخصه .

واننا نلمح حتى قبل سنة 1900 هذا الكفاح المستقل والمشتت والصاخب والمضطرب بأكثر او اقل حدة ، وذلك عندما بدأ يطغى في أواخر القرن الاسلوب الوقح والعنيف ، على السياسة التي تتبعها الدول الاجنبية بالمغرب وعلى سلوك رعاياها على عين المكان . الا ان سنة 1900 تمثل نقطة التحول ، فلقد أخفقت آنذاك كل المحاولات ، حيث استولت فرنسا على توات وغورارة وتيدكلت والصاورة وشرعت في خرق الحدود التي اعترفت بها هي نفسها بمقتضى المعاهدة . وأخيرا ستحاول اخضاع السلطان لسلطتها . الا انها فشلت في آخر لحظة . ولكن جميع الدول قد حكمت على المغرب في اجتماع الجزيرة بالتقسيم والعبودية . وخلال تلك السنوات ستضطرم نار الكفاح في جميع ارجاء البلاد .

وفي مثل هذه الحالات كانت الطرق الصوفية في الماضي هي التي تقوم برتق الفتق بفضل الرابطة الدينية وذلك عندما تنهار الهياكل السياسية . اما اليوم فان رؤساء الطرق قد باعوا ذمتهم للاجنبي . وصاروا يسعون الى تضليل الكفاح بتوجيهه ضد السلطان . ولئن كانت الروح الوطنية سائدة ، فانها تتسبب أحيانا في بعث زعماء مزيفين مثل الزرهوني المعروف باسم بوحمارة ، والذي جلب لصفوفه المنطقة الشمالية الشرقية ولا سيما منطقة الريف بأكملها . ولم يكن الريفيون أغبياء ، فلو كانوا يميلون الى الفوضى القبلية ـ كما يقال ـ لما عوضوا السلطان عبد العزيز الضعيف والبعيد عنهم ، بالزرهوني ، ذلك الطاغية الذي عاش على حسابهم وفي حظيرتهم . ولئن استقبلوه وساندوه فذلك لانه في نظرهم الوريث الشرعي

لمولاي الحسن ، حسبما يدعي ذلك ، وقد قدم لانقاذ البلاد من الهيمنة الاجنبية . ولكن عندما رأوه يتحالف هو نفسه مع الاسبانيين والفرنسيين سقط الى مرتبة المغتصب الحقير ، بعدما كان يعتبر في نظرهم مولاي محمد ، واضطر الى الفرار يحيط به الخزي والعار . وتوجهوا بأنظارهم صوب مولاي الحفيظ ، الابن الحقيقي لمولاي الحسن ، الذي يمثل بالنسبة لجميع المغاربة بالعكس من اخيه عبد العزيز ، الامل في بقاء المغرب بلدا مستقلا .

ولئن كان الامر كذلك ، فلان المقاومة قد ظهرت في مناطق اخرى من البلاد وزادت في دعم المطالب بالعرش .

ولقد أشار كثير من الملاحظين الى الغضب الذي استولى على المغاربة غداة مؤتمر الجزيرة ، وكانت النقمة موجهة بطبيعة الحال ضد الفرنسيين . فقتل أحدهم من طرف الجماهير بمراكش ، واغتنم الجيش الفرنسي تلك الذريعة للاستيلاء على وجدة ، الامر الذي لم يكن من شأنه تهدئة الخواطر . فعندما أرادت السلطة فيما بعد تنصيب مراقب فرنسي على الجمارك بالدار البيضاء ، هاجت الجماهير مرة اخرى وقتلت عددا من الاعوان العاملين باحدى المؤسسات الفرنسية .

وكان ذلك الحادث بمثابة الاشارة التي تنتظرها حكومة باريس للشروع في عملية الغزو ، التي يدل على صبغتها الدموية قصف الدار البيضاء بالقنابل ، كما تم انزال عدد كبير من الجنود الفرنسيين . وفي حين كان السلطان عبد العزيز بفاس يهيب بقبائل الشاوية بعدم التحرك ، أسرع أبناء تلك القبائل الى حمل بنادقهم القديمة والانقضاض بها على مدافع ورشاشات الفرنسيين ، فوق أرض منخفضة . الا ان تضحياتهم لم تكن كافية ، فقد كانوا في حاجة الى دعم بقية البلاد . وكان عبد العزيز حجر عثرة في طريقهم . فالتجأوا الى شقيقه عبد الحفيظ لاقصاء السلطان عن العرش وجمع كافة سكان المدن والارياف الراغبين في الوحدة ، حول شخص السلطان الجديد الذي بايعوه في مراكش . والى حد الآن فكل شيء سائر وفق الطريقة التقليدية التي لا يحيد عنها المغاربة قيد انملة . الا ان عنصرا غريبا بالنسبة للمغرب سيتسرب الى تلك الطريقة . حيث ان مدينة فاس قد فرضت على المطالب بالعرش ، في مقابل ولائها عددا من الشروط الرامية الى ضمان استقلال البلاد واسترداد الاراضي المفقودة ، تحت رقابة الامة ولصالح أبنائها . ولكن هذه النتيجة الهامة والجديرة بالتقدير للتجربة الملكية ، قد حصلت بعد

فوات الاوان ، وهي مطابقة جدا للتقاليد ، الى حد انها لا تقدر على توقيف المجرى المتوقع للاحداث . ذلك ان عبد الحفيظ الذي يعتبر هو نفسه وليد تلك التقاليد ، سرعان ما وقع في المأزق عوض ان يخلص منه بلاده . فان خوفه من الشعب ، ذلك الشعب الذي منحه عرشه ، قد أدى به الى الاستسلام الى الرغائب الفرنسية على طول الخط وتوجيه ضرباته الى ذويه . ولقد تصدت الى حد ذلك التاريخ ببسالة للعدو ، وسيضعف حماسها في المستقبل كما ستبتعد لمدة طويلة عن الكفاح الوطني وسيكون الامر كذلك حتى بالنسبة لبقية البلاد التي ما زالت تخوض غمار المعركة ، حيث سيقضي في العاجل على الغنم الكبير المتمثل في القيادة العامة التي ستواجه مشكل التأهل للاضطلاع بمهمة القيادة .

فهل المؤهل لتلك المهمة هو الابن الثالث لمولاي الحسن كما تقتضيه التقاليد ؟ وبالفعل فقد وقع الاختيار على أحد الابناء وهو مولاي الزين ، من طرف القبائل الجبلية التي حاصرت في فاس عبد الحفيظ وقد أصبحت لا ترغب فيه . ولكن سواء لأن التجربة السابقة مع أخويه قد أقنعت الناس ، أو لان مولاي الزين نفسه هو شخص تافه ، فقد أخفقت المحاولة . والأدهى من ذلك ، أن الفرنسيين قد تذرعوا بتهديد القبائل لمدينة فاس لاجبار عبد الحفيظ على الاستنجاد بهم وبالتالي فتح العاصمة في وجههم . وهكذا فان الذي نادت به القبائل سلطانا لاعلان « الجهاد » ، قد تحرر من شعبه ووقع في قبضة المحتل ، وسوف لا يتأخر تحت الضغط عن امضاء المعاهدة التي ستبيع بلاده للفرنسيين ،

وهي بدون شك صفقة مدلسة ، لان مستندات البائع لاغية أو مشكوك فيها في نظر المغاربة . ولكن المشتري قد تمكن من الدخول الى البيت . وهي من ناحية أخرى عملية بيع مقنعة لان المشتري قد تنكر في ثوب حارس حافظ على عبد الحفيظ وتعهد بحمايته فوق عرشه المتزعزع .

ان هذه الحيلة ، رغم انها كانت مفضوحة ، لم تخل من جوانب عملية . أجل ! ان الناس يقولون ان عبد الحفيظ هو سلطان الفرنسيين ولكنه كان السلطان الوحيد ونظرا الى انعدام الحل البديل فقد بقي ، اعتبارا للعادات والتقاليد السائدة آنذاك ، الممثل الوحيد للمجموعة . وكان ذلك مثيرا للمشاكل في ضمائر الناس . فالعاطفة تدعو الى الكفاح ولو بالاستغناء عن السلطان . ولكن العقل يؤيد الفكرة القائلة بانه لا أمل في كفاح تقوم بها جموع مشتتة ومن شأنه القضاء على وحدة

المجموعة . فهل الطاعة أم التمرد ؟ أين يكمن الضرر الحقيقي ؟ وهل الاستقلال أم الالتحام ؟ أين يكمن الواجب ؟

وليس لي من الوقت ما يكفي للبحث هنا عن عوامل الانقسام . ولكن بصورة اجمالية استسلمت المدن للطاعة ولو بعد انتفضات خطيرة ودامية مثلما وقع بفاس على وجه الخصوص . وبعد خضوع المدن بأقل التكاليف ، وجد فيها المحتل نقط ارتكاز حصينة تقع في وسط البلاد ما بين المناطق المحيطة بالمدن ، حيث حوصرت قوات المقاومة وتم عزل بعضها عن بعض .

وخلافا للمدن فان كافة القبائل الجبلية وقبائل مناطق الريف والاطلس والسوس قد اختارت المقاومة . ولكن لئن كانت تلك المقاومة مجزأة حسب المناطق ، باعتبار مواقعها ، فانها لم تكن طوال ثلاث عشرة سنة معركة ميؤوس منها ولا معركة تقوم بها ـ كما يقال ـ مجموعات قبلية متمردة دوما وأبدا على سلطة السلطان . لقد كانت تلك المقاومة حربا وطنية وتحريرية . كانت حربا وطنية لأن القبائل لم تسع الى الانطواء على نفسها بل حاولت بالعكس من ذلك ، تجميع صفوفها ، واضعة نصب أعينها هدفا صريحا لانزاع فيه ، ألا وهو اعادة بناء « المخزن » على الصعيد الوطني ، ذلك المخزن الذي قيل لنا مرارا وتكرار انها تمقته . وكانت حربا تحريرية لان الغاية لم تكن الموت ولا الاستسلام بل كانت طرد المحتل .

نلاحظ ذلك في الجنوب حيث ثارت منطقة السوس حالما اتجه الفرنسيون نحو مدينة فاس . وقد انعقد مؤتمر ضم ممثلي القبائل، وبما أن العائلة المالكة قد استنفذت جميع وسائلها فقد وقع الاختيار على سلطان جديد خارجها وهو أحمد الهيبة . ولكن ذلك السلطان قد وقع عليه الاختيار بوصفه ابن وخليفة رجل ذائع الصيت في كامل انحاء المغرب باعتباره بطل الصحراء ، أمام توغل الفرنسيين ، ويدعى ماء العينين . فهذا السلطان من الممكن ان يكون مقبولا من طرف الجميع . وبالفعل فقد دفعته موجة شعبية ، في كنف الحماس الفياض وبدون اطلاق أي عيار ناري ، الى مراكش عاصمة الجنوب التي خصته هي أيضا باستقبال حماسي . ولكن تبين أن الهيبة الذي وقع عليه الاختيار من أجل أسمه فحسب ، كان غير كفؤ وقد حكم بقصوره على تلك الانطلاقة الرائعة بالاخفاق .

ولقد سدد ذلك الاخفاق ضربة قاسية للغاية للمقاومة المغربية التي انسدت بعض آفاقها مرة أخرى . ولكن بالنسبة للمؤرخ فان من مزايا

تخلي قائد من نوع الهيبة ، ترك المجال فسيحا امام القوى التي بوأته السلطة . فتجاه الغزو الاجنبي ، تملك مجموعات كبرى من الجماهير الشعبية بالارياف وحتى في مثل هذه الحالة بالمدن ، شعور قوي بما فيه الكفاية ، لتحريكها بدون احتياج الى جهاز دولة ، لا لزعزعتها في أول الأمر ولا لتأطيرها فيما بعد بالرغم عنه ، محاولة انشاء جهاز جديد . ولكن الاخفاق كان يتربص بها الدوائر لانها عجزت عن العثور على القائد القادر على اختيار الوجهة المناسبة في ذلك الظرف بالذات .

فهذا القائد ، أو بالاحرى أولئك القادة قد سبق لهم ان برزوا في منطقة أخرى أو سيبرزون فيما بعد . والمنطقة التي أعنيها هنا هي منطقة الريف في الشمال . ولقد أشرت الى القادة ، والواقع ان قائدين قد ظهرا فن ذلك التاريخ . الأول هو محمد أمزيان الذي اكتنفه النسيان ، رغم قلة وجود مثل هؤلاء الاعلام في تاريخ أمة من الأمم . فلقد انطلق ذلك القائد مثل الهيبة من لا شيء ، ولم يكن له حتى اسم لتكوين شهرته . واستطاع تنظيم قبائل الريف التي اتجهت نحوه . وتمكن مدة ثلاث سنين ، منذ سنة 1909 ، من خوض غمار الحرب ، وهي حرب حقيقية ألحقت أضرارا جسيمة بالجنود الاسبانيين ، وقد كانت في أول الامر حربا دفاعية ثم أرغمت الاسبانيين على الانهزام . وفي هذا الغمرة من الانتصارات أدركته المنية بغته يوم 15 ماي 1912 . وبعد وفاته اضطر الريفيون الى قضاء تسع سنوات في المقاومة المستميتة والكفاح السياسي قبل العثور على قائدهم الثاني الذي أصبح اسمه ، خلافا للقائد أمزيان ، معروفا في العالم أجمع ، أعني محمد بن عبد الكريم .

ويكفي لوصف حرب الريف باختصار ، أن نذكر أن المقاومين كانوا في أول الامر كمشة من الفلاحين العزل من السلاح تقريبا ، كان لهم من الجرأة ما مكنهم من التصدي في منطقتهم الصغيرة لتقدم الجيوش الاسبانية ولكن بعد تلك المدة بأربع سنوات أصبح نفس أولئك الفلاحين المؤسسين لدولة والمنظمين لجيش ، قادرين على التصدي لجيشين أروبيين عتيدين على طول مئات الكيلومترات من الحدود والسواحل .

ولقائل ان يقول ان تلك الدولة كانت دولة ريفية لا مغربية ، أجل لقد كانت دولة ريفية في أول الأمر بحكم الضرورة لانها نشأت في منطقة الريف . ولكن ما إن امتدت الى القبائل الاخرى كقبائل صنهاجة وغمارة وجبالة ، حتى أصبحت مغربية الى حد كبير ، ولكي تصبح

دولـة مغربيـة كاملـة ، كان يكفي أن تمتـد الى بضع كيلومترات أخرى ، لـو استطاعت القبائـل في سنة 1925 أن تستولي على مدينة فـاس حيث كـان جميـع الناس في انتظارهـا . ولم يكـن الأمـر يتعلق بمدينة فـاس وحدهـا ، حيث حيى السكـان محمد بن عبد الكريم كأميـر للمؤمنين ، بـل انهم استنجـدو بـه مسبقـا ووضعـوا أنفسهم تحت سلطته ، بل كان الامر يتعلق بجميـع المناطق الأخرى مثل المناطق الجبلية التي تسكنها ـ حسبما يبـدو قبائـل مناهضة لكل سلطـة مركزيـة ، والتي يخوض فيها السكـان غمـار المعركـة ، ولكـن ضـد الفرنسيين . وهنـاك كان الناس يرغبـون في تركيـز الادارة (المخـزن) التابعة لمحمـد بن عبد الكريـم .

وهـذا أمـر صحيح . فلـو استقـرت تلك الادارة « المخزنيـة » علـى الصعيـد الـوطني ، لأمكـن لأولئـك الرجـال الذين فـروا الى الجبـال المكسوة بالثلـوج ، أن يسترجعـوا زراعاتهم ومـاشيتهـم وعائلاتهـم ، وأن يبقـوا مستقلين وأحـرارا . وبالعكس من ذلك فان انهـزام الريفيين قـد كـان بمثابـة الاعـلان عـن هلاكهم . الا أن بعض جيـوب المقاومـة قـد استمرت طـوال تسع سنوات من بوعبـلان الى جبـال الاطلس وجبـل سرغـو . ولكـن كانت بمثابـة المركـز السائـر في طريق الانقـراض . وابتـداء من ذلك التاريخ أصبح العـدو هو وحـده الذي يختار الساعـة أو المناسبـة للقضاء على المقاومة . أمـا حـرب التحريـر او الحـرب الوطنية فهي منذ ذلك الحين حـرب مخسورة .

وفي ختـام هذا العرض المنقوص حـول المقاومة المغربية ضد الاحتـلال المـزدوج الاسباني والفرنسي ، لا يسعنـا الا أن نلقي بعض الاسئلـة ونبـدي بعض الملاحظـات أيضا ، وهي قـد تهم جميـع مؤرخي المغرب العربي ، رغـم مـا هنالـك من اختلافات لا شك فيها بين كل قطر وقطـر .

ولنتـرك جانبـا مسألـة المـدن ، التي تم طرقها بما فيه الكفاية بالنسبة للجزائـر وتـونس . ورغم بعض المتغيـرات ، فـان المشكـل هـو نفسـه بالنسبـة للمغـرب ، ولكـن لنشر باقتضاب الى العلاقة الممكنـة بين الحرب التحريرية والوطنيـة كما حددنـاها آنفـا وبين الصورة التقليدية التي يلـذ رسمها لعـدد كبيـر من المؤرخين وعلمـاء الاجتمـاع المهتمين بالمغـرب في الماضي . انهم يـدعـون ان القبيلة لم يكـن لهـا من ربـاط داخلـي ، الا الخـوف من الاجـوار . لأن السلم بين القبائل ، لم تكن حسب قولهـم ، سوى هدنـة تـدوم ما يكفي من الوقت للتناحـر وتسويـة الحسابـات داخل كل قبيلـة ، ويضيفـون الى ذلك قولهم ان القبائـل كانت تنـاهض الادارة « المخزنيـة » بـدون هـوادة ولم تكـن قائمـة بينهما الا علاقـات

القـوة والخضوع القهـري المتبـوع بالتمـرد . الا اننـا قد لاحظنـا طـوال تلـك الحـرب التي خاضها المغاربـة ضـد المحتل ، قـدوم قبائـل اقصى المناطق المغربيـة ، للاستنجـاد بالسلطان ، كما رأينـا كيف تمكنت القبائـل عند تخلي السلطـان ، من توحيـد صفوفها الى أبعـد حـد ممكـن والاسراع مـرات متكـررة الى اختيـار أميـر مؤمنين جديد ، وذلك للاندماج ضمن ادارة « مخزنيـة » جديـدة .

فكيف يمكـن تحقيق ذلك الوفـاق المستحيل بين مجتمـع ممـزق من الدولة الى الافـراد ، وبين ذلك المجهـود المتجـدد دومـا وأبـدا في سبيل تحقيـق التلاحم الجماعي الذي لم يتوصل الى المس منـه أو وضع حـد لـه الا تفـوق الأسلحـة الأجنبيـة ؟ واذا كـان ذلك الكفاح الوطني ، علـى الأقل ، من المعطيـات الثابتة ، أفـلا ينبغي حينئذ مراجعة الصورة التقليديـة لتاريـخ المغـرب ومجتمعـه مراجعـة تـامـة وبـدون اي تحفظ ؟ وفيمـا يخصني فاني أعتقـد ذلك واني اسعى الى تحقيقه مع بعض الباحثـين في المغـرب .

فما هو رأي الباحثين في الجزائر وتونس حول هذا الموضوع ؟

جرمـان عيـاش
أستـاذ بجامعة الربـاط

الجلسة العاشرة

رئيس الجلسة :

ـ **السيد محمد الهادي الشريف**
الأستاذ المحاضر بكل الآداب والعلوم الانسانية بتونس .

البحوث :

ـ **السيد صالح المثلوثي**
الاستاذ المساعد بدار المعلمين العليا بسوسة

● موقف الباي تجاه الاحتلال الفرنسي :
ـ **السيد سامي البرقاوي** ـ باحث :

● ظاهرة الربا بالبلاد التونسية في سنة 1881 :
ـ **السيد محمد الهادي الشريف**

● استنتاجات الندوة .

موقف البـــاي
تجـاه الاحتـلال الفـرنسي

لقـد أقـرت ثـــورة 1864 بالبلاد التونسية وما تبعهـا من قمع رهيب ، انقسام المجتمـع التـونسي الى شقين متعارضين نهائيـا أو حسب تعبيـــر المؤرخ ابن أبي الضيـاف الى حزبين : « حـزب الباي وأفـراد ينفذون أمره وقليـل ما هم ، وحـزب عامـة المملكـة وخاصتهـــا المرموقـين بعين المقـت والسخط والابعـــاد » (1) .

فبعد مـا تخلص البـاي من المعارضة التي زعزعت أركـان عرشه ولكنه أصبح معـــزولا أكثـر من أي وقت مضى ، استعد لحكم الايالة بمساعـــدة طبقـة المماليـك المكروهين والفاسديـن .

وتفاقم الحكم القهري وراجت من جديد الممارسات التعسفية . ونذكـــر على سبيـل المثـال عـــزل رئيس الشرطيـة حسن المقـرون وأخيه أحمـد والقايـد مـراد والجنـرال السني والجنـرال رشيد . وبعد مـدة قليلـــة سيلقى هـــذان الأخيـران حتفهمـا ، حيث سيموتـان مخنوقين في معابـر قصـر بـــاردو وذلك على اثـــر اتهامهمـا بالمشاركـة في مؤامـرة العـادل بـــاي ، شقيـق الصادق بـاي ، الذي تمكـن من الفرار ليضع نفسه علـى رأس الثائريـن بمنطقة خميـــر .

ولقد دفـع الخوف من التعسف عـددا كبيـرا من المواطنين اليهـــود والمسلمين الى الاحتمـاء بالـدول الاجنبيـة . ففي منطقة الكاف مثلا حـاول

(1) ابـن أبـي الضيـاف « اتحـاف اهـل الزمـان ... » الجـزء الخـامس صفحة 191 .

الأعيان التابعون لخمس وخمسين عائلة اثبات نسبتهم الأندلسية للاحتماء بقنصل إسبانيا .

« وفي هذه المدة (1866) كثرت الأراجيف بالحاضرة ، حسب قول ابن ابي الضياف ، وساءت ظنون الباي في رعيته واستريابهم وبذلك جعل جواسيس في البلاد يثق بأنبائهم من غير تبين . فأمر بالقبض على سليم قورصو أحد مماليك المشير أبي العباس أحمد باي وكان استعمله على جربة وغيرها فأمر بسجنه لانه يتخرص على الغيب ويتردد عليه من اثارة من علم الحد ثان الرمل ثم أمر بنفيه ثم سرحه .

وتقبض على الوجيه محمد زوليم من بيوت الجرابة صهر محمود بن عياد ونفاه بجربة واعتقله ببرجها ولم يدر أحد ذنبه ثم سرحه » . (2)

ومن الناحية المالية استمر نهب الأموال العمومية تحت اشراف مصطفى خزندار المنتصر .

ولم تتأخر نتائج هذا الوضع عن الظهور . ففي سنة 1869 وضعت الايالة تحت وصاية اللجنة المالية الدولية : وبذلك فقدت البلاد استقلالها الاقتصادي واصبحت على قاب قوسين أو ادنى من التبعية السياسية .

أضف الى ذلك تتابع الأوبئة والجفاف والمجاعات من سنة 1865 الى سنة 1869 . ولقد أصيبت البلاد في رصيدها الدمغرافي وفقدت حوالي الخمسين (2/5) من سكانها .

أجل لقد مرت الايالة بعد ذلك بفترة استراحة وشهدت شيئا من الازدهار في عهد وزارة خير الدين . ولكن ذلك الانتعاش لم يكن كافيا لوضع حد لمسيرة البلاد نحو الهاوية . فبعد سقوط خير الدين وجدت البلاد في شخص مصطفى بن اسماعيل حاكما جديدا لا يقل نهما ولا انعدام ذمة عن مصطفى خزندار .

ففي مثل هذه الظروف بدأت تظهر فكرة انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية .

(2) ابن ابي الضياف المرجع السابق ج السادس ص 86 .

1 ـ الباي ومشاريع الحماية الأولى :

يرجع تاريخ فكرة التدخل الفرنسي بالايالة الى شهر اكتوبر 1867 (3) وان ما أتاح تلك الفرصة هو انهيار البلاد سياسيا واقتصاديا . ولقد أشار باستغلال تلك الفرصة القنصل الفرنسي بوميليو . فهو الذي اقترح على حكومته منذ شهر أوت ضم البلاد التونسية الى الجزائر لا أكثر ولا أقل . وكانت الأوساط الحكومية بباريس مقتنعة هي الأخرى بمبدا الاستيلاء على الايالة . ولم تختلف الآراء الا حول الصيغة التي يمكن أن يكتسيها ذلك الاستيلاء وطريقة تحقيق تلك العملية . ولقد انعقد مجلس وزاري يوم 17 أكتوبر 1867 وضبط طرق التدخل ولكن أحداثا غير منتظرة ، وهي احتلال دول البابا من طرف جيش غاريبلدي، قد حالت دون تحقيق الاغراض الفرنسية . وبقيت الحالة على ما هي عليه .

ولم يقع الحديث من جديد عن تلك القضية الا بعد مؤتمر برلين . فلم ينقض أسبوع واحد على رجوع الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية ، وادنغتون ، من برلين ، حتى وجه خطابا الى رسطان يستفسره عن مدى استعداد الباي لقبول مبدا الحماية . وفي أواسط شهر أوت استدعي القنصل الى باريس حيث تباحث مع كل من وادنغتون وكلوزي الوالي العام على الجزائر . وبعد قليل غادر باريس محملا بمشروع حماية ومكلفا باقناع الباي بالموافقة عليه بالتراضي ، والا فانه سيقع الالتجاء الى القوة بواسطة مناورة ارهاب بحرية وتدخل على الحدود .

وهكذا أصبحت وعود مؤتمر برلين وشيكة التحقيق في أسرع وقت ممكن بالنسبة لفرنسا .

ولكن الأمور لم تسر على ذلك المنوال من البساطة . ذلك أن ايطاليا المنشغلة البال ، قد أوفدت بعثة اخبارية الى تونس وقامت بمراقبة تحركات الاسطول الفرنسي بالبحر الأبيض المتوسط . ومن ناحية أخرى فان المشروع لم يحظ بموافقة جماعية بفرنسا نفسها . حيث أن غمبطا الزعيم القوي للحزب الجمهوري يعارضه بكل قوة . وبناء على ذلك ففي أول سبتمبر طلب وادنغتون من رسطان وضع حد لمساعيه .

الا أن الأمور كانت تسير بتونس في اتجاه ملائم لفرنسا . ذلك أن مصطفى بن اسماعيل الذي ساعدت فرنسا على ترقيته ، قد أصبح رسميا وزيرا أكبر يوم 24 أوت 1878 وأبدى بدوره استعدادا لمساعدة

(3) غانياج (J. Ganiage) اصول الحماية الفرنسية بتونس . الدار التونسية للنشر .

المشاريع الفرنسية . ولقد منح شركة عنابة ـ غالمة ربط السكة الحديدية الذي كان قد رفضه خير الدين .

وبناء على ذلك فان رسطان لم يضع حدا لمساعيه بل واصلها بصورة شبه رسمية . وتحقيقا لذلك الغرض فقد كون مركز قوى يتركب من الايطالي فولتيرة وطبيب الباي مسكارو والمؤتمن على أسرار ابن اسماعيل علالة بن الزاي وبطبيعة الحال الياس موصلي وزوجته .

وكانت مهمة هذه الجماعة تتمثل في مضايقة الوزير لاقناع الباي بقبول الحماية .

وبالفعل فبعد شهرين من تعيينه في خطة وزير أكبر جمع مصطفى بن اسماعيل في بيته رسطان وابن الزاي والياس . وانتهز القنصل الفرصة للدفاع عن نفسه ، متوجها الى ابن اسماعيل بقوله :

« ان كنت تريد ما تستريح به استراحة تامة فاطلب من الباي أن يدخل هو تحت حماية فرنسا وهي تحميكما معا مدة حياتكما ، لأن سيدك أيضا صار بتوليتك عرضة لأغراض العموم ، فيبقى الملك لسيدك والوزارة لك وان كره جميع الناس . وزيادة على ذلك فان فرنسا تحميك من مطالب قناصل الدول المتكررة عليكم ولا تستطيعون ردها » (4)

ولكن مصطفى ابن اسماعيل لم يرد التعهد بأي شيء دون الحصول على ضمانات صريحة . وبناء على ذلك فقد تحصل بطلب منه على وضعية محمي فرنسي بمقتضى الأمر المؤرخ في 17 جوان 1879 (5) ، وبعد ذلك حاول مصطفى بن اسماعيل اقناع الباي بشرعية المطالب الفرنسية بالبلاد التونسية . ولكن الباي رفض ذلك الرأي رفضا قطعيا وطلب من وزيره عدم الاشارة من جديد الى هذا الموضوع (6) .

ووفقا للخطة التي وضعها رسطان تدخل في القضية طبيب الباي مسكارو ولكنه لم يكن أسعد حظا . اذ أمره محمد الصادق بالاهتمام بصحته ليس الا وترك السياسة جانبا .

(4) سيرة مصطفى بن اسماعيل ـ تحقيق رشاد الامام ـ تونس ص 26 .
(5) نفس المراجع ص 28 .
(6) غانياج (J. Ganiage) المرجع السابق ص 445 .

الا أن رسطان لم ييأس . حيث استمر طوال سنة 1879 في الالحاح على مصطفى ابن اسماعيل للوفاء بتعهداته مستعملا في آن واحد وسائل الترغيب والترهيب .

فلقد « اجتمع رسطان وعلالة بن الزاي في دار الياس فقال رسطان لعلالة بن الزاي أن سي مصطفى الى الآن لم يتمم خدمته في دخول الباي تحت حماية فرنسا مع أنه ليس لفرنسا غرض الاستيلاء على تونس لأنها الى الآن لم تسترح في مملكة الجزائر . فكيف تضيف اليها تونس . وغاية مرادنا انما هو حفظ البلاد من مطالب الاجانب بدخولها تحت حماية فرنسا . ومع ذلك اذا صدق سي مصطفى بن اسماعيل في خدمته يأخذ هو خمسة ملايين فرنك ويأخذ أعوانه ثلاثة ملايين فرنك من فرنسا وهي تضمن له الوزارة مع هذا الباي ومن يأتي من بعده . فاجابه ابن الزاي بان ابن اسماعيل خاف من الباي حيث لم يرد ذلك أولا . فقال له رسطان وكيف يخاف منه والحال ان بيده تذكرة حماية فرنسا وهو انما أخذها ليقدر بها على مقاومة الباي حتى لا يخاف منه . وان كان مراده الاستهزاء بفرنسا بمجرد أخذ التذكرة فان ذلك يضره ، وانا أخاطب الباي شفاهيا واعلمه أن وزيره صار فرنساويا وأعطى كلمته لفرنسا في الدخول تحت الحماية » (7)

ولكن كل ذلك لم يجد نفعا حيث ظل الباي معارضا لاي شكل من أشكال الحماية . وفي شهر جويلية 1879 اضطر رسطان الى الاعتراف بهزيمته قائلا : « اننا نلاحظ دوما وأبدا نفس التعصب ونفس الجهل . فلا يمكن أبدا اقناعه . وهو لن يخضع الا للقوة » (8)

ولكن رسطان واصل مساعيه استجابة لنصائح وزيره . فتوجه هذه المرة لولي العهد علي باي شقيق محمد الصادق ، وأبلغه اقتراحاته بواسطة الطاهر الزاوش الذي يثق به . ولكنهما لم يستجيبا الى طلبات القنصل . فاتجه عندئذ . الى الطبيب شقيق الباي الثاني ، وذلك بمساعدة بورني ، الطبيب الخاص للأمير ، واعدا اياه بخلافة الصادق باي ، فقبل الطبيب ذلك العرض . (9)

(7) سيرة مصطفى بن اسماعيل ـ ص 36 .
(8) غانياج ـ المرجع السابق ـ ص 445 .
(9) برودلاي (Broad ley) الحرب البونيقية الاخيرة ج ص 309 .

وأصبح رسطان يتصرف حينئذ في ورقة جديدة سيستعملها في الوقت المناسب (10) أي بالضبط عندما ستقرر الحكومة الفرنسية التدخل في الايالة .

2 ـ موقف الباي من التدخل الفرنسي :

لقد اتخذ قرار التدخل العسكري في الايالة في غضون شهر مارس 1881 بعد موافقة غمبطا على مشروع الحماية .

وبسرعة فائقة تم ضبط التدابير اللازمة لادخال ذلك القرار حيز التنفيذ . وفي يوم 4 أفريل أعلم رئيس الحكومة مجلس الشيوخ بان الحكومة قد أذنت باتخاذ الاجراءات اللازمة لمعاقبة أهالي خمير وفي نفس الوقت أحاط وزير الحرب مجلس النواب علما بالأمر . وفي يوم 5 أفريل تمت المصادقة على رصد اعتماد قدره 5 ملايين فرنك لتسديد نفقات الحملة العسكرية . وأخيرا في يوم 7 أفريل وجه الوزير لقائد القوات المسلحة التعليمات المتعلقة بمخطط العمليات العسكرية الواجب تنفيذها باشراف الجنرال فورجمول .

وبينما كانت تجري تلك لاستعدادات بباريس ، كانت تدور عملية أخرى بتونس بين الباي ورسطان . حيث كان القنصل يعمل على توفير الظرف الملائم للتدخل العسكري . وكانت خطته تشتمل على نقطتين : اقناع الناس من جهة بوجود حالة عامة من الفوضى وانعدام الامن بالايالة ، تهدد في نفس الوقت المصالح الفرنسية بالبلاد التونسية وراحة الجالية الأروبية واقامة الدليل من جهة أخرى على عجز الباي على وضع حد لتلك الحالة . وستساعده على القيام بتلك المهمة على أكمل وجه ممكن السلط الفرنسية بالجزائر والصحافة الفرنسية والجزائرية ووزارة الشؤون الخارجية الفرنسية . ولكن لئن كانت للطرف الفرنسي فكرة واضحة عن الأهداف التي يرمي الى تحقيقها ولئن وفر لنفسه الوسائل الملائمة لذلك ، فقد كانت حكومة الباي عرضة للبلبلة التامة ولم تكن شاعرة بالمأزق الذي ورطت فيه البلاد .

ذلك ان الباي قد كان من جهة مفصولا عن شعبه الذي آل به الى الهلاك ومن جهة أخرى عاجزا عن التصدي بنجاعة للأطماع الفرنسية التي أخذت تتضح يوما بعد يوم ، وتبعا لذلك فقد ظل يتخبط في

(10) نفس المراجع ص 302 .

تلك الصعوبات الى أن استسلم نهائيا في 12 ماي 1881 ، ولا شك أنه قد استنجد بالسلطان العثماني ولم يتأخر عن الاعلان عن تبعيته له كما استنجد بالدول الأروبية ، ولكن تلك النداءات قد بقيت بدون جواب وسوف لا يكون لها أي تأثير في العملية التي كانت تدور أولا وبالذات بالبلاد التونسية .

1 ـ من قضية خمير الى دخول الجيوش الفرنسية للبلاد التونسية

لم ينتظر رسطان تصويت مجلس النواب للشروع في الهجوم . فلقد اثار منذ 12 مارس شكوى من طرف شركة عنابة غالمة التي شهرت بحالة انعدام الامن السائدة في شمال الايالة والمتمثلة في الهجومات الموجهة ضد اعوانها واتلاف معداتها . وفي 14 مارس ، دائما تحت تأثير القنصل ، عبرت الجالية الفرنسية عن قلقها وسلمت اليه خطابا يتضمن مآخذها على حكومة الباي وقد ختمته « بنداء ملح لتدخل حكومة الجمهورية تدخلا حاسما » . وفي 20 مارس خاطب رسطان الجالية الفرنسية بقوله : « يجب الانتقام بطريقة فعالة لعلم فرنسا الذي تعرض للاهانة » (11) .

وأخيرا حصل في يومي 30 و 31 مارس اشتباك بين كتيبة من الجنود الفرنسيين وبعض عناصر من أهالي خمير ، وذلك بايعاز من السلط العسكرية بالجزائر (12) ، وكان ذلك الاشتباك التعلة التي يبحث عنها رسطان .

ولقد ثارت ثائرة وسائل الاعلام بفرنسا . واستغلت ذلك الحادث وكالة هافاس والصحافة وشبهته بمذبحة بعثة فلاتيرس وذلك لتهيئة الرأي العام للتدخل الوشيك (13) .

وفي تونس أخذ رسطان في المزايدة مؤكدا « أن أعمال العنف قد تفاقمت وتزايدت منذ مدة قريبة بشكل يبعث حقيقة على القلق .... ولم يعد الأمر يتعلق الآن بهجومات واعمال سطو منعزلة يقوم بها فرد

(11) نفس المرجع ص 284 .

(12) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 218 الملف 300 تقرير العقيد يونس الجزيري .

(13) هذه نماذج من عناوين الصحافة الفرنسية بعد حوادث 30 و 31 مارس « غارات جريئة من طرف القبائل التونسية » ـ « معارك مسترسلة على الحدود »

أو عـدة أفـراد ، بل انـه يتعلق بغـارات حقيقيـة تستـدعى ارسـال الجيـوش وابقاءها في حالة حـرب » (14) .

ولا شـك ان الباي كان يجهل ان شبح الاحتلال يلوح وراء تلك الضجة المبيتـة » ولكنـه لم يبق مكتـوف اليديـن . فمنذ اندلاع الحوادث الأولى بمنطقـة خميـر أرسل على عين المكـان كاهيـة الوجق على رأس كوكبـة من الفرنسان ، كما أوفـد من ينوبـه في اجتماع ذراع الكروان الذي انعقـد في شهـر فيفـري لتسوية المشاكـل الحدوديـة (15) . ولقد أراد بذلـك بـدون شك اقامـة الدليـل على قدرتـه على التحكم في رعيته واستعداده للتفـاوض .

وفي نفس الوقت احتج على الحملـة الصحافيـة الموجهـة ضـده في الصحف الجزائريـة وعلى مظاهـرة الجالية الفرنسية (16) .

والجديـر بالملاحظـة في هذا الصدد ان البـاي ، طوال الأزمـة التـي امتـدت من أواخـر مـارس الى 12 مـاي 1881 ، لم يتخل عن هـذا المـوقف المتسم في آن واحـد بحسـن الاستعـداد (17) والـرفض القطعـي (18) .

والى حـد ذلك التاريـخ لم يكـن الأمـر يتعلق الا ببعض الاحتجاجات التي كـان الباي متعـودا عليها ولم تكـن تكتسي خطـورة بالغـة .

وفي 5 أفريـل أصبح البـاي يواجه وضعا جديـدا فقد أخبـره رسطان رسميـا بـواسطة سوماريبا المتـرجـم الاول بالقنصليـة بالقـرارات التـي اتخذتها الحكومة الفرنسية بعد ما وافـق عليهـا مجلس النـواب ومجلس الشيـوخ .

وفي 7 أفريـل أبلغـه رسالـة من برتيلمي سانت هيلار يقول فيهـا الوزيـر الفـرنسي بالخصوص « ان خطـرا كبيـرا يهـدد سـلامة تـرابنـا وأمـن السكـان الذيـن يعيشون فوقـه .... وهذا الخطـر متأت من القبائل التـي تحتل قسمـا من مملكـة البـاي » (19) ويضيف الـوزير قائلا : « ان

(14) وثـائق الحكـومة التـونسية ـ الصنـدوق 215 ـ الملـف 300 .
(15) وثـائق الحكـومة التـونسية الصنـدوق 215 الملـف 300 .
(16) نفس المـرجـع .
(17) بـرودلاي ـ المـرجع السـابق ،
(18) دي تـورنال (D'Estournelles) « الحمـاية ونشأتهـا » .
(19) وثـائق الحكـومة التـونسيـة ـ الصنـدوق 215 الملـف 300 .

واجـب الدفـاع الشرعي يحتم علينـا معاقبة تلك القبائل ، ولكن لا يمكننـا الاعتمـاد على البـاي لتحقيـق تلـك الغـاية . الا انـه مـن الممكـن التعويل على تعـاون الجيـوش لتقـديم المساعدة الى ذلـك القمـع الضروري . ويختم الوزيـر رسالتـه بقولـه « لقـد تلقى قوادنـا العسكريـون الاذن بالتفاهـم بصـورة وديـة مع قـواد الجيوش التونسية في الوقت الذي أصبحت فيـه ضـرورات العمليـات العسكـرية تـدعو الى اقتحام التـراب التونسي سواء بالقرب من القالة أو بوادي مجـردة » (20) .

ولقـد واجه البـاي هذا الوضع بـرفض مـزدوج : فهو من جهة لا يقبل بـاي وجـه من الـوجوه دخـول الجيوش الفرنسية الى بـلاده ومن جهـة أخـرى لا يمكنـه التعاون معهـا .

ويقـول في هذا الشأن انـه لم يـر الى حـد الآن في القضيـة التي تشغـل بالنـا سـوى بعض الوقائع الصغيرة المتعارفة لدى القبائل المتجاورة والمنتسبـة في غالـب الاحيـان الى نفس البلـد (21) .

ومن ناحيـة أخـرى فقـد احتج البـاي للمـرة الأولى بحقـوق الباب العالي على الايالـة ومصالح الـدول الاجنبيـة بالبلاد . وقـد كتب الـى رسطـان رسالـة يقـول فيها بالخصوص :

« اذا أصرت (الحكومة الفرنسية) على قرارها رغـم تطميناتنا فانـه لا يسعنـا الا اعلامها الآن بـان مثـل هذا القـرار من شأنـه ان يفقـدنـا الاعتبـار لـدى سكان بلادنا أنفسهم ولدى الدول الأجنبية وأن تترتب عليه مضاعفـات أخـرى واخطـار لا يمكن توقعها في الوقت الحاضر . هذا من جهـة ومن جهـة اخـرى فان دخـول الجيـوش الفرنسية الى التـراب التونسي يمثل خرقـا لحقوقنـا المطلقـة ومن شأنـه ان يضر بما للحكومات الاجنبيـة من مصالح في بلادنـا موضوعـة تحت رعايتنـا . وهـو يمثـل بالخصوص خـرقا لحقـوق البـاب العـالي . » (22)

ولم يتأخـر الباي عن توجيـه انـذار أخيـر الى الحكومة الفرنسيـة معلنـا انـه في صورة حصـول التدخل بالرغم من كل ذلك فانه يحملهـا مسؤوليـة ما قد ينجـر عنـه من عواقـب .

(20) نفس المـرجـع .
(21) نفس المـرجـع .
(22) نفس المـرجـع .
(23) نفس المـرجـع .

فهل يعني ذلك انه يفكر في المقاومة المسلحة ؟ أبدا . فموقفه واضح في هذا الصدد ولن يتغير قط طوال الازمة التي سبقت توقيع معاهدة الحماية . فهو لن يقاتل الجيوش الفرنسية اذا ما دخلت تراب الايالة ولو لرد الهجوم . الا انه لا يمكنه ضمان ردود فعل الشعب في مثل هذا الاحتمال .

فلقد أعلم رسطان مرار وتكرار بأنه لا يفكر أبدا في معاملة الجنود الفرنسيين بغير الطرق الودية والطيبة .

... وان جنوده لا غاية لهم سوى تسوية مطالب الطرفين ومعاقبة المجرمين الذين تثبت التهمة الموجهة ضدهم . ثم يضيف قائلا :

« ... والله يشهد انه ليست لنا في هذه الحملة أية نية من شأنها الاساءة الى الحكومة الفرنسية بأي وجه من الوجوه . ولقد أصدرنا الاذن لجيوشنا لتفادي أي نزاع ولو لرد الهجوم . « أما اذا ما هجمت الجيوش الفرنسية على ترابنا ذاته او ضد قبائلنا ، فانه بامكان تلك القبائل رد الهجوم بالرغم من أوامرنا . وفي هذه الحالة فانه لا يسعنا الا التبري من مسؤولية ماقد ينجر عن مثل ذلك النزاع من عواقب » (23) .

ورغم ذلك فان الباي لم يفقد بعد الأمل في ان ترجع حكومة الجمهورية الى جادة الصواب وتتخلى عن عمليتها . على أن هذا الأمل وهمي . ولكن هل يستطيع الباي ان يفكر غير ذلك ؟

وفي نفس الوقت لم يتخل عن قراره القاضي بارسال شقيقه على باي الى منطقة خمير ليقيم الدليل على أنه ماسك بزمام الأمور وعلى قدرته على أن يتولى وحده حفظ الأمن بتلك المنطقة .

ففي يوم 14 أفريل ، أمام جمهور غفير وبمحضر قناصل الدول الاجنبية ، تحولت المحلة الى منطقة خمير بقيادة علي باي المزود بالتعليمات التالية :

في صورة دخول الجيوش الفرنسية التراب التونسي رغم ارادتنا (ونحن مازلنا نود الاعتقاد بان ذلك سوف لا يحدث) ، يجب عليه أن يضع حدا لأية عملية من جانبه . (24)

(24) نفس المرجع .

ولكن ذلك لم يجد نفعا . فما ان غادر آخر جندي الساحة حتى أسرع رسطان ، بسوء نيته المعهودة ، الى الاحتجاج لدى الباي ضد نوايا جيش علي باي العدوانية . ثم وجه اليه من الغد رسالة يقول فيها بالخصوص : من بين الجنود المغادرين وضمن الجموع الغفيرة الحاضرة ، لا يوجد أي جندي ولا أي مشاهد يعتقد ان أولئك الجنود موجهون ضد أهالي خمير لا ضد الجيوش الفرنسية . (25)

واستمر حوار الصم بين الملك والقنصل بضعة أسابيع فقد واصل رسطان بدون كلل ولا ملل عملية التصعيد (26) مع مضاعفة الاتهامات والانذارات والتظاهر بالاغتياظ أو المفاجأة . وكان محمد الصادق يرد عليه على نسق واحد ، مظهرا حسن نيته ومعلنا عن قدرته على ارجاع الأمن واحد ، مظهرا حسن نيته ومعلنا عن قدرته على ارجاع الأمن الى نصابه بوسائله الخاصة ورافضا أية امكانية لدخول الجيوش الفرنسية الى البلاد التونسية او التعاون معها .

وفي 17 أفريل استنكر رسطان ما سماه « بعمل عدواني جديد » . وهو يتعلق بحادث السفينة الحربية الفرنسية التي قدمت للقيام بأعمال سبر في مياه طبرقة تحسبا لعملية انزال الجيوش الوشيكة ، فتعرضت لطلقات نارية من طرف السكان المتجمعين على الشاطيء (27) وفي 19 وجه الى مصطفى بن اسماعيل شكوى من شركة عنابة ـ غالمة بخصوص الاعمال العدوانية المرتكبة ضد أعوانها ومعداتها (28) .

وفي 20 وجه تحذيرا شديد اللهجة الى كل من الباي ووزيره الاكبر ، جاء فيه بالخصوص ما يلي : ان حكومتي التي لا يمكن أن تبقى مكتوفة اليدين تجاه هذا الوضع قد كلفتني باعلام سموكم انه اذا ما لحق أقل ضرر بمواطنينا أو بالمواطنين الاجانب على وجه العموم ، فانها تحمل سموكم ووزيره الاكبر بصورة شخصية مسؤولية ذلك (29) .

واخيرا ففي يوم 22 طلب الترخيص في انزال كوكبة من البحارة ومدفعين من السفينة « جان دارك » الراسية بميناء حلق الوادي وذلك لحماية الحي الأوروبي .

(25) نفس المرجع .
(26) دي تورنال ـ المرجع السابق .
(27) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 215 ـ الوثيقة 300 .
(28) نفس المرجع .
(29) نفس المرجع .

ولقد صمد الباي أمام هذه العملية الهجومية الحقيقية التي قام بها رسطان . ففند تهمة الاعتداء الموجهة اليه بمناسبة حادث 16 أفريل بطبرقة وحمل السفينة الفرنسية مسؤولية ذلك الحادث لانها قدمت للقيام بعمليات سبر بدون رخصة (30) .

واجتنب العملية الانتحارية السياسية التي أراد رسطان أن يحمله على ارتكابها وذلك برفضه لسحب جنوده من طبرقة لتمكين الجيوش الفرنسية من الانتصاب بتلك المدينة ومعارضته لانزال البحارة الفرنسيين من السفينة الحربية (جان دارك) بتونس .

وما عدا ذلك فقد ظل وفيا لموقفه السلمي ، فقد كتب يوم 20 أفريل رسالة الى رسطان يقول فيها بالخصوص : ان نفس مبدا دخول الجنود الفرنسيين الى التراب التونسي غير مقبول من طرفنا . الا انه اذا ما احتل الجنود الفرنسيون اية نقطة من ذلك التراب بالعنف ورغم ارادتنا فان جنودنا لن يقاوموهم (31) .

ولكن بعد رفض الاقتراح الأخير الرامي الى انزال كوكبة من الجنود الفرنسيين لحماية الحي الأروبي ، لم يلح رسطان على طلبه . ذلك انه بعد يومين من ذلك التاريخ أي يوم 24 أفريل ، بدأ جيش الاحتلال في اكتساح الايالة ، وقد اجتاز الحدود بالقرب من ساقية سيدي يوسف .

والحال أن الباي لم يدخر أي جهد لاجتناب ذلك الوضع ، سواء بابلاغ ممثل فرنسا مرارا وتكرارا رفضه القطعي لطلباته أو بتوجيه النداء تلو النداء . للاستنجاد بالباب العالي وتوجيه الاحتجاجات الى الدول الأروبية .

2) الباي والدول العظمى والسلطان :

ذلك أن الوضع الصعب الذي وجد فيه الباي نفسه ازاء المطامع الفرنسية والمضايقات المستمرة التي كان يتعرض لها من قبل رسطان ، قد دفعته الى محاولة القضاء على عزلته وذلك بالخصوص بمخاطبة الدول الأروبية العظمى والباب العالي .

(30) نفس المرجع .
(31) نفس المرجع .

فمنذ يوم 28 مارس أرسل الباي منشورا الى قناصل الدول الاجنبية الممثلة بتونس لاعلامهم بالحوادث التي جدت بالحدود التونسية خلال شهر فيفري ، وبالاجراءات التي اتخذتها حكومته لتسوية ذلك المشكل وبالخصوص عن طريق عقد اجتماع ذراع الكروان الذي فشل بسبب سوء نية الطرف الفرنسي .

وفي نفس الوقت أعلم الصادق باي بالامر الصدر الاعظم العثماني ، وقد وجه اليه برقية بواسطة ممثله بمالطة .

وذلك هو الموقف الذي حافظ عليه الباي منذ ذلك التاريخ . فبمناسبة أي مسعى جديد من طرف رسطان كان يعلم بذلك القناصل والباب العالي .

ففي يوم 9 افريل ، اي بعد بضعة ايام من القرار الفرنسي المتعلق بالتدخل بالبلاد التونسية ، خاطب الباي القناصل الاجانب بقوله : حيث ان مصالح الاجانب من رعايا الدول الاروبية مرتبطة بمصالح الايالة ، راينا من واجبنا ان نتوجه اليكم والى زملائكم ممثلي الدول العظمى ، طالبين منهم اعلام حكوماتهم بذلك .

واننا نتوجه الى مشاعرهم المقامة على حب العدل والانصاف ليمدوا الينا يد المساعدة في سبيل صيانة حقوقنا وحقوق الباب العالي ووضع حد للاعمال والتهديدات التي من شأنها أن تتسبب في أخطار نحن نتبرأ من مسؤوليتها . (32)

وأعاد نفس الطلب في 10 أفريل واضعا ثقته في الدول العظمى المحبة للعدل ، اذ يقول : ان الدول العظمى لا تسمح بان يعتدي القوي على الضعيف . (33)

أما مع الباب العالي فتكاد تكون الاتصالات يومية ، حيث كان الباي حريصا على اعلام السلطان بكل ما يحدث وكان يوجه اليه نسخا من الرسائل الموجهة الى رسطان طالبا منه امداده بتعليماته (34) .

الا أن الوقت كان يمر ونداءات العاهل التونسي لا تجد اي صدى ، وبقيت أروبا صامتة . واكتفت حكومة اسطنبول بتقديم النصائح والتعبير

(32) نفس المرجع .
(33) نفس المرجع .
(34) برودلي ـ المرجع السابق .

عن رضاها عن الاجراءات المتخذة . وهذه تسلية زهيدة بالنسبة لبلد على وشك الخضوع للاحتلال الاجنبي .

وان ما يجهله الباي هو ان مصير الايالة قد تقرر في معابر مؤتمر برلين المنعقد خلال شهر جويلية 1878 ، وان كل دولة من الدول العظمى قد حددت موقفها تجاه تلك القضية منذ ذلك التاريخ .

ذلك انه من المعلوم ان المانيا كانت تؤيد بدون تحفظ استيلاء فرنسا على تونس وتحثها على « جني الاجاصة التونسية » قبل تلقها . ولأسباب مغايرة ، ومع بعض التردد ، اتخذت انجلترا موقفا مماثلا . أما النمسا وروسيا فكانتا غير مكترثتين بالقضية التونسية . (35)

فالبلاد الأوروبية الوحيدة التي كانت تعارض المشاريع الفرنسية هي ايطاليا . ولكنها كانت ضعيفة ومنعزلة دبلوماسيا ولم يكن لها حينئذ أي وزن في هذه القضية .

بقي الباب العالي وهو البلد الشقيق والملاذ الأخير بالنسبة للمسلمين المتمسكين بالخلافة .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان العلاقة بين الايالة والخلافة العثمانية ، منذ قيام الدولة الحسينية ، كانت مقامة بالخصوص على أساس الروابط الروحية . ذلك أن البايات كانوا يتمتعون باستقلال تام تجاه السلطان وكانوا يختصون بجميع مقومات السيادة . فباستطاعتهم على وجه الخصوص اعلان الحرب وابرام السلم . وكانوا مرتبطين بعلاقات دبلوماسية مع الدول الاجنبية . وأخيرا فان الخلافة على العرش الحسيني كانت تتم بدون تدخل الباب العالي .

الا ان محمد الصادق باي لم يتأخر منذ بداية الأزمة مع فرنسا في أفريل 1881 عن التأكيد على كون الايالة جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية .

وانتهز الباب العالي من جانبه هذه الفرصة للتاكيد من جديد على « حقوقه التاريخية » على البلاد التونسية والتذكير « بالامتيازات التي يتمتع بها في تلك البلاد » .

ويمكن تفسير موقف الباي لا محالة بالوضع الميؤوس منه الذي وجد نفسه فيه . ذلك انه كان يعتقد الخروج من المأزق بالاحتماء بالباب العالي .

(35) المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 ـ 1913 ـ 1973 تونس .

أما الحكومة العثمانية ، فربما كان يراودها الامل في ارجاع الايالة الى حظيرتها بمناسبة احتمال تدويل القضية التونسية .

وبناء على ذلك سيقوم الباب العالي بنشاط دبلوماسي مكثف لفرض نفسه كطرف كامل الحقوق بالنسبة للقضية التونسية وللحصول على تأييد الدول الاروبية العظمى ، ولكن نتائج ذلك النشاط كانت زهيدة للغاية .

فلئن وعدت ايطاليا وعدا غامضا بالقيام بمساع مشتركة ، بالعكس من ذلك أبدت الدول الأروبية الاخرى كثيرا من التحفظ (انجلترا وروسيا والنمسا) اذا لم تكن مناهضة بصورة صريحة مثل ألمانيا .

أما فرنسا فقد أعلمت السفير العثماني بباريس بكل وضوح منذ يوم 4 أفريل ، انها تعتبر الايالة دولة مستقلة ولا تعترف بفرمان سنة 1871 . (36)

3) الباي وشعبه :

وهكذا فان المأزق تام بالنسبة للباي . فلأسباب مختلفة لا يمكن للدول الاروبية ان تقدم اليه يد المساعدة . والباب العالي عاجز هو أيضا على نجدته .

فالقوة الوحيدة التي في استطاعتها مساعدته بدون قيد ولا شرط هو الشعب التونسي ذاته . ولكن صاحب المملكة التونسية ، بمقتضى تصوره للحكم الفردي والقهري كان قد أولى رعاياه ظهره ، فهو لم يعمل فحسب على عدم امدادهم بأية معلومات حول ما كان يجري منذ بداية الأزمة بل أنه كان يسعى الى تغليطهم وذلك بتشويه الحقيقة ونشر الغموض وأخيرا الدعوة الى الخضوع والاستسلام للحوادث الجارية .

وفي اطار هذه المغالطة ، تجدر الاشارة الى الدور الذي قامت به ما يمكن أن نسميها بوسائل الاعلام في ذلك التاريخ والمتمثلة أولا وبالذات في جريدة الرائد التونسي .

وبالفعل فحتى يوم 6 أفريل لم يظهر في تلك الجريدة ما من شأنه أن يشير من قريب أو من بعيد الى الأخطار الكبرى المحدقة بالبلاد .

(36) المرجع السابق .

ففي 6 أفريل ، بينما كان الباي قد تلقى الخطاب المتعلق بالقرار الفرنسي حول التدخل في الايالة ، نشرت جريدة الرائد الخبر التالي :

مازال الهدوء سائدا في كافة أنحاء المملكة والحمد لله . ومن المتوقع ان تكون الصابة طيبة نسأل الله ان يتحقق ذلك . الا ان اشتباكا قد حصل في جبل خمير مثلما يحدث عادة . وقد أذنت الحضره العلية كاهية وجق تونس بان يتوجه الى عين المكان للتحقيق حول تلك الاحداث ووضع حد لتصرفات أهالي خمير . وصدر اذن آخر لارسال المحلة المتركبة من جنود المشاة والخيالة وستتبعها محلة اخرى في القريب وذلك كالعادة بقيادة المرفع شأنه سيدي علي باي ، باي المحال (37) .

وفي العدد الموالي (13 أفريل) لم تتغير اللهجة . ونلاحظ نفس الثقة السائدة في جريدة الرائد التي تقول ان الاخبار الواردة من الحدود تؤكد السكون التام السائد في تلك المناطق وهدوء الرعايا التونسيين (38) .

والواقع ان الحالة مخالفة لذلك تماما ، كما اكد ذلك الباي نفسه في رسالته الموجهة الى رسطان : ان تلك القبائل مشغولة البال بأمنها ذاته ، على اثر تحركات الجيش التي يشاهدونها في التراب الفرنسي والتي يعتقدون انها موجهة ضدهم (39) .

واخيرا ففي يوم 20 أفريل ، بينما كانت الجيوش الفرنسية قد احتلت مدينة الكاف قبل ذلك بيوم لم تجد جريدة الرائد ما تنشره الا الخبر التالي : ما ان وصلت المحلة الى منطقة خمير حتى استقبلتها القبائل بالخضوع والطاعة مؤكدة بأنه لا يوجد من بينها أي شخص يتمرد أو يرفض الولاء للباي وأنها مستعدة لتقديم التعويضات التي ستطلب منها . وهكذا فقد استتب الأمن والهدوء وزالت الاشاعات والاكاذيب التي رجات في الأيام الأخيرة . كما ان سكان الحاضرة ليس لهم ما يثير قلقهم (40) .

ومن سوء الحظ بالنسبة للسلطة فان المستقبل سيتولى تفنيد جميع تلك الادعاءات . ولم يعد بامكان الباي ولا الرائد مغالطة أي شخص . حيث ان ضجيج المعارك سيغطى اصواتهما .

(37) الرائد التونسي 6 افريل 1881 .
(38) الرائد التونسي 13 افريل 1881 .
(39) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 215 الملف 300 .
(40) الرائد التونسي 27 افريل 1881 .

3 ـ من الاكتساح الى معاهدة باردو :

يوم 24 أفريل اجتازت الجيوش الفرنسية الحدود التونسية من نقطتين . وبعد ذلك بيومين أي يوم 26 وصلت كتيبة لوجرو الى مدينة الكاف التي احتلتها بلا قتال .

ومع ذلك فقد حاولت المدينة المقاومة واتخذت القوات الفرنسية الاستعدادات اللازمة للهجوم ، عندما فتح العامل (القايد) جميع أبواب المدينة في وجهها ، تنفيذا لأوامر الباي .

الا ان ذلك لم يمنع محمد الصادق من الاحتجاج لدى السلطان على خرق الحدود التونسية بالرغم من عدم اعلان الحرب بين البلدين ، والاستغراب من توغل الجيش الفرنسي داخل التراب التونسي ، بعيدا عن الاهداف المحددة من قبل . كما تولى تكذيب ادعاءات الجنرال فورجمول التي ابلغها الى علي باي ومفادها ان الجيوش الفرنسية قد دخلت التراب التونسي بموافقته (41) .

كما وجه الى الدول العظمى نداء ملحا للتدخل ، جاء فيه بالخصوص ما يلي : اننا نوجه نداءنا الى حليفنا المعظم جلالة ... والى كافة الدول العظمى الموقعة على اتفاقية برلين للتوسط بيننا وبين حكومة الجمهورية ... ونتوسل الى الدول العظمى للقيام بمساعيها الحميدة لفائدتنا (42) .

وفي حين كان الباي يجهد نفسه للقيام بذلك النشاط الدبلوماسي الذي لا يجدي نفعا ، بدأ الجيش التونسي يتقهقر أمام الجيش الفرنسي ، على نحو مثير للسخرية .

والغريب في الامر ان جيش الباي قد تلقى تعليمات تدعوه الى التزام الحياد التام بين الرعايا التونسيين وجيش الاحتلال والانسحاب كل ما تقدم ذلك الجيش في الاتجاهات التي حددتها قيادة الوحدات الفرنسية .

وحصل أول اشتباك بين الجيوش الفرنسية والقبائل التونسية يوم 26 افريل بعين اسماعيل التي لا تبعد كثيرا عن الحدود التونسية . وبالضبط ففي ذلك اليوم كانت محلة الجنرال سليم موجودة بالقرب

(41) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 215 الملف 300 .
(42) نفس المرجع .

من ذلك المكان . ولكن الجنرال سليم لم يمتنع فحسب عن المساهمة في المعركة بل انه حاول منع ابناء خمير الموجودين في محلته من الالتحاق باخوانهم في القتال .

ولقد وصف لنا ذلك الحادث الصحافي الانجليزي بركينس الذي كان يرافق المحلة ، حيث قال : « في فجر يوم 26 افريل اكتشفنا ان الفرنسيين الذين كانوا مقيمين في معسكرهم على بعد 5 كلم قد اقتربوا منا خلال الليل . وبينما كنا نبحث عن الطريق التي يمكن ان يكونوا قد سلكوها استمعنا فجأة ، وكانت الساعة تشير الى التاسعة صباحا ، الى طلقات نارية في الجبل والى قصف المدفع بطبرقة في نفس الوقت تقريبا » .

ولا يمكن لنا وصف المشهد الذي تبع ذلك : « ففي لمحة البصر طوى أهالي خمير خيامهم واخذوا يركضون في اتجاه الطلقات النارية وهم يصيحون بأعلى صوتهم . واتجهت مجموعة تضم نحو الخمسين شخصا الاكثر شجاعة ، نحو برج رمل السوق ثم استمعنا الى كوكبة من الخيالة اتت لملاقاتهم . ذلك ان سي سليم قد ارسل اليهم في الحين عددا من الخيالة لحثهم على الرجوع القهقرى ، وقد تمكن المبعوثون بالفعل من ارجاع أولئك المقاتلين البواسل الذين كانوا يتوسلون اليهم والدموع تنهمر من اعينهم قائلين : اتركونا على الاقل نطلق الرصاص على محتلي البرج ولو تسبب ذلك في قتلنا فيما بعد » . (43)

وتكررت نفس الحادثة يوم 30 أفريل في ابن بشير مع علي باي . ذلك ان باي المحال الذي انسحب أمام الجيوش الفرنسية ، قد وصل يوم 28 افريل الى ابن بشير التي تبعد 6 كلم عن سوق الاعراب . وفي ذلك المكان بالضبط هجمت القوات الفرنسية يوم 30 أفريل على أبناء الشيحية الذين رفضوا الاستسلام وقد كانت المعركة عنيفة ودامية حيث خسرت القبائل التونسية اكثر من 300 مقاتل . وبالاضافة الى ذلك فقد قام الجنود الفرنسيون بأعمال فظيعة بعد المعركة اذ أنهم أجهزوا على الجرحى وشقوا بطون النساء (44) .

ولقد كان الامير الحسيني ، مثل الجنرال سليم ، يشاهد تقتيل رعاياه دون أن يحرك ساكنا . واكتفى برد الفعل بعد انتهاء العملية

(43) برودلاي ـ المرجع السابق ج 1 ص 263 .

(44) لقد اثارت القضية جدالا حادا بين السلط التونسية وبين وسطان ولوجروا اللذين كذبا تلك الوقائع تكذيبا قطعيا .

وذلك باعداد تقرير حول فظائع ابن بشير ، وجهه الى أخيه الذي لم يتأخر عن الاحتجاج لدى وسطان .

ولكن موقف الباي وسلوك أخيه علي قد بثا البلبلة في نفوس كافة السكان الذين لم يفهموا كيف تخلى الملك عن رعاياه في مثل تلك الفترة الحرجة ، وقد منعهم ، علاوة على ذلك ، من الدفاع عن أنفسهم .

ولقد كانت الجماهير الحانقة تصيح في وجه علي باي بعد معركة ابن بشير قائلة : « لقد أتلفت محاصيلنا وماشيتنا وخيولنا . ولقد وقع الهجوم علينا . وكل ما تطلبونه منا التزام الهدوء ، اننا كلنا رعايا الباي . فلماذا لا يقوم بأي عمل لانقاذنا ؟ ولماذا تمنعنا من مقاتلة اعدائنا ؟ » (45)

ولقد أثارت أخبار تقتيل الشيحية في ابن بشير بعد اخبار احتلال مدينة الكاف بدون قتال ، هيجانا كبيرا لدى القبائل .

فقد اخذ السكان في التعبير عن غضبهم ، ولم يقتنعوا بعد بانحياز الباي الى الجانب الفرنسي ومحاولة مغالطة الرأي العام . المحليين بالانضمام الى الطرف الفرنسي ومحاولة مغالطة الرأي العام . واضطر عدد كبير من عمال الآفاق الى الفرار الى العاصمة للنجاة من تهديدات منظوريهم . والآخرون الذين فضلوا البقاء في أماكنهم ، قد كانوا محل حراسة مشددة ولم تبق لهم سوى مظاهر السلطة .

وفي الاثناء سيسلط حادث غير متوقع أضواء جديدة على الوضع . ذلك أن عمال ماجر وشارن وأولاد بوغانم وأولاد عيار قد قرروا التحول الى باردو والالتقاء بالباي قصد توضيح ما يخالج نفوسهم من شكوك حول مشاعر الحكومة التونسية .

وعند ذلك احتجزوا رسالة موجهة الى علي باي من شقيقه . وما أشد دهشتهم حينما علموا من الرسالة المحجوزة أن محمد الصادق ، عوض أن يشجع المقاومة ، قد أذن أخاه بالانسحاب امام الجيوش الفرنسية والتزام موقف الحياد التام ازاءها .

وانتشر ذلك الخبر في جميع أرجاء البلاد وأثار غضبا شديدا . وابتداء من ذلك الحين بدأ الحديث عن « خيانة الباي » و « تسليم البلاد الى النصارى » وعن « الباي الذي باع البلاد للفرنسيين »

(45) برودلاي ـ المرجع السابق ج 1 ص 268 .

ولم يكن تخلي القبائل عن الباي ، الموضوع الوحيد الذي اثار قلق محمد الصادق . ففي أول ماي أرسى في ميناء بنزرت اسطول فرنسي متركب من عدة وحدات . وفي الحين وجه انذارا الى العامل لتسليم المدينة بطوع ارادته ، والا فسيتم احتلالها بالقوة . واستجابة لأوامر الباي امتثل العامل للانذار (46) وفي آخر النهار اصبح العلم الفرنسي يخفق على البرج وفوق المدينة .

ولقد فاجأ خبر احتلال بنزرت حكومة باردو ، حيث لم يكن احد من حاشية الباي يتوقع ذلك . فهل فكر محمد الصادق ووزيره مصطفى ابن اسماعيل بعد احتلال بنزرت في المقاومة واعلان الجهاد انطلاقا من القيروان ، كما تؤكد ذلك بعض المصادر (47) .

ان هذا غير صحيح .

أجل ! لقد احتج الباي على دخول الجيوش الفرنسية لبنزرت ولكنه أمر أيضا بعدم معارضتها بالقوة ، كما ذكر ذلك هو نفسه في الرسالة الموجهة الى رسطان ، وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي :

بما اننا في حالة سلم مع حكومتكم الفخيمة فقد اصدرنا اوامرنا الى من يهمهم الامر لاجتناب المواجهة بين جنودنا وجنودكم . وبمقتضى ذلك لم يقم العامل المذكور بصد هجوم الجنود الفرنسيين الذين نزلوا في تلك المدينة ورفعوا العلم الفرنسي على بروجها .

والحال انكم تعلمون ان مثل هذه التصرفات التي لم يسبق لها مثيل في اوقات السلم ، مخالفة لجميع القوانين والعادات المعروفة . وعليه فاننا نحتج على ذلك اشد الاحتجاج . (48)

ومن ناحية اخرى فقد اظهر الباي دوما وابدا نفوره من أي عمل مسلح ولم يفتأ يكرر ذلك منذ بداية الازمة . ولا نرى لماذا سيغير موقفه فجأة .

أما مصطفى بن اسماعيل فاننا نعلم كيف قام بدور المحامي عن الحماية الفرنسية لدى الباي لحساب رسطان . ولئن وجد نفسه بصورة وقتية في الشق المناهض لفرنسا ، فليس ذلك من

(46) وثائق الحكومة التونسية ـ الصندوق 215 ـ الملف 300 .
(47) وثائق فانسان (Vincennes) الملف 3 .
(48) وثائق الحكومة التونسية الصندوق 215 ـ الملف 300 .

باب الوطنية بل من اجل الطموح والاخطاء التي ارتكبها قنصل فرنسا . فلا يمكنه حينئذ التفكير ابدا في الجهاد وحتى في المقاومة .

على ان سلوكه فيما بعد يتعارض تماما مع تلك الاتهامات . فما ان تم التوقيع على معاهدة الحماية حتى اصبح مصطفى بن اسماعيل الصديق المخلص لفرنسا التي يسعى الى خدمتها كلما سمح له بذلك .

ومهما يكن من امر فقد اسرعت الحكومة التونسية الى تكذيب تلك الاشاعات في البرقية الموجهة الى الجنرال حسين الذي كان موجودا بأروبا آنذاك ، وهذا نصها : « لقد حاول بعض اصحاب النوايا السيئة بدون جدوى تعكير راحة السكان وذلك بنشر الاشاعة القائلة بان مولانا المعظم قد قرر التحول الى القيروان لاعلان الجهاد ضد النصارى . كما وجهوا رسائل الى الصحف الاروبية لاثارة الرأي العام . وبناء على ذلك فاننا نكذب بصورة رسمية مثل هذه الاشاعات . اذ لم يفكر في اي شيء من هذا القبيل لا مليكنا ولا اي عضو من اعضاء الحكومة ولا اي رجل من رجال الدين ، وبالعكس من ذلك فان الهدوء مستتب في جميع انحاء البلاد وان مولانا الملك يسعى الى تأكيد السلم واقناع السكان الذين ليسوا على بينة من الامر بان مصالحهم سواء منها الدينية او المادية تدعوهم الى الاستسلام والسكنية . كما ان مولانا الملك واعضاء حكومته ورجال الدين يعتبرون من جانبهم ان الاروبيين يجب ان يعاملوا مثل انفسهم وانه لا وجود لاي فرق بينهم وبيننا . فلنا نفس الحقوق ونحن مطالبون بنفس الواجبات » (49) .

وبناء على ذلك يحق لنا الاعتقاد بان الاوساط الفرنسية هي التي اختلقت هذه الاشاعة المتعلقة بالجهاد ، كمناورة لتضليل الرأي العام بعد احتلال بنزرت . ذلك ان فتح واجهة جديدة ببنزرت يفند بصورة قطعية اسطورة « الحملة التأديبية ضد اهالي خمير » ، تلك الاسطورة التي اختلقتها الحكومة الفرنسية لتبرير تدخلها في الايالة .

ومن ناحية اخرى فقد بدأت العمليات العسكرية تتعثر منذ مدة ، حيث اجبر فساد الطقس ببنزرت قوات بريار وموروان على

(49) نفس المرجع .

التوقف . كما اخذ فور جمول وفانسندر في ملاحقة اهالي خمير بدون جدوى .

الا ان تأجيل العمليات العسكرية لم يدم مدة طويلة فمنذ يوم 8 ماي اغتنمت قوات بريار وموروان تحسن الاحوال الجوية للتقدم نحو العاصمة التونسية . ووصلت يوم 10 ماي الى منطقة الجديدة حيث انتصبت في انتظار التوجه الى باردو . وقد تم ذلك بالفعل يوم 12 ماي صباحا .

وخلال تلك المدة كرر الباي الاحتجاجات الموجهة الى رسطان واستنكر ارسال مبعوث فرنسي الى اهالي ماطر ليطلبوا منهم الاستسلام (50) . كما احتج على وصول القوات الفرنسية الى الجديدة (51) . واستنكر ايضا زحف جنود الجنرال بريار على قصره ، اذ يرى في ذلك « وسيلة لارغامه على قبول التسوية المعروضة عليه » . واحتج للمرة الاخيرة عند توقيع معاهدة الحماية .

ومجمل القول ان الباي قد اظهر الى آخر لحظة معارضته لتدخل الحكومة الفرنسية بالبلاد التونسية ورفضه الاعتراف بشرعية تلك الاعمال .

ولكن ذلك الموقف قد بقي سلبيا وغير ناجع ما دام الباي قد اولى شعبه ظهره ورفض تشريكه في تقرير مصير البلاد .

وبصنيعه هذا ، كان محمد الصادق يسعى الى الدفاع عن مصالحه الانانية . وان اكبر دليل على ذلك سلوكه بعد التوقيع على معاهدة الحماية .

صالح المثلوثي
الاستاذ المساعد
بدار المعلمين العليا بسوسة

(50) نفس المرجع .
(51) نفس المرجع .

ظاهرة الربا بالبلاد التونسية في سنة 1881

ان الوثائق التي نقدمها اليكم هنا قد تبدو لا علاقة لها بصورة مباشرة بموضوع وأغراض هذه الندوة .

والواقع انها تسمح بالتعرف على جانب من جوانب الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالبلاد التونسية في سنة 1881 وبتفسير الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية ولو بصورة جزئية .

فلقد أشارت التدخلات التي جرت بالأمس وبالخصوص تدخل السيد محمد الهادي الشريف ، الى محدودية ردود فعل المدن . وان الوثائق التي سنتناولها بالدرس تسمح لنا بادراك حالة سكان المدن وسكان الارياف . ذلك اننا قمنا بدراسة زهاء 340 عقد قروض مستخرجة من دفاتر العدول ، يرجع عهدها الى ما قبل سنة 1881 ، حيث انها تتعلق بالفترة الممتدة من سنة 1875 الى سنة 1881 . وهذه العقود مستخرجة من دفاتر العدول بالعاصمة التونسية وببلدة سيدي علي الحطاب التي تبعد حوالي 20 كلم عن العاصمة (1) .

فالحرفاء المعنيون بتلك الدفاتر ينتمون الى فئات متنوعة تابعة في آن واحد للريف والمدينة .

(1) دفتر العدول ـ قصر العدالة بتونس : 3 ـ 1 ـ 3 ، 25 ـ 1 ـ 2 ، 12 ـ 1 ـ 1 .

وأول سؤال يمكن ان نطرحه هل اننا نستطيع تقدير ظاهرة الربا حق قدرها ؟ أي تقدير مدى حجمها واتساعها ونسبة السكان التونسيين المعنيين بالامر ؟

فبالنسبة للعاصمة تبدو لنا العملية صعبة شيئا ما ، على الاقل اذا كان الأمر يتعلق بباحث واحد ، لانه من الواجب فرز جميع دفاتر العدول بمدينة تونس وضواحيها . ومن المعلوم انه ينبغي لفرز دفتر واحد وبالوسائل الحالية ، فترة من العمل تتراوح بين 15 يوما وشهر بالنسبة للباحث الواحد ومن اليسير حينئذ تقدير المجهود الواجب بذله لفرز دفاتر المائتي عدل (200) الذين كانوا بتونس آنذاك وربما يكون الامر أيسر بالنسبة لسيدي علي الحطاب نظرا لقلة عدد العدول العاملين هناك ولو ان بعض سكان تلك المنطقة يتجهون الى مراكز حضرية أخرى كمدينة تونس وكذلك طبربة والمحمدية أيضا . وعلى أساس الارقام الواردة في المذكرات المتعلقة بالقبائل التونسية والموجودة بوثائق قصر فانسان (2) قدرنا عدد المعنيين بظاهرة الربا بنسبة 25% من السكان ، سواء بعنوان الدائنين او المدينين . كما ان 20% من السكان كانوا في حاجة الى اقتراض الاموال . والجدير بالملاحظة ان النسبة الحقيقية قد تكون أعلى من ذلك . ولكن تلك النسبة بعينها مرتفعة بما فيه الكفاية وهي تكفي لاقامة الدليل على ما بلغته الازمة السائدة في الارياف من حدة .

ومن المتوقع ان يكون سكان العاصمة متعرضين لتلك الأزمة بنفس تلك الحدة على أقل تقدير . ذلك ان نسبة عقود القروض الواردة في دفاتر العدول بالعاصمة هي أهم بكثير ، فهي تمثل ضعفين أو ثلاثة أضعاف العقود التي تتضمنها دفاتر سيدي علي الحطاب . فجميع المعلومات متظافرة للتأكيد على مدى اتساع تلك الظاهرة في ذلك التاريخ . فقد كان التونسيون في حاجة ملحة الى المال . وهذا شيء اكيد . ولكن ما هو نوع تلك الحاجيات ؟ .

فان فروقا كبيرة تظهر بين العاصمة وسيدي علي الحطاب من جهة وبين مختلف الفئات الاجتماعية من جهة أخرى .

ففي سيدي علي الحطاب يبلغ معدل قيمة القرض 198 ريال أي 102 ريال بالنسبة لكل مدين و 238 ريال بالنسبة لكل دائن . اما بالنسبة للعاصمة فان تلك الارقام هي على التوالي 1725 ريال و 1966 ريال

(2) وثائق قصر فانسان – السلسلة -2H- الصندوق 2 – التقرير 3 –

و 3752 ريال . وهذه الفوارق في الارقام بين العاصمة وسيدي علي الحطاب تدل على شيء أساسي وهو ان الجماهير الريفية تطلب مبالغ زهيدة . وهناك معلومات أخرى تؤيد هذا القول : ففي سيدي علي الحطاب 60 % من القروض الممنوحة حينئذ الى الريفيين هي اقل من 100 ريال و 32% أقل من 50 ريال .

فالحاجيات هي اذن حاجيات أناس فقراء فقرا مدقعا . وتلك الحاجيات تبرز بالخصوص في فصلي الخريف والشتاء . وهي حاجيات الخماسة والفلاحين الذين لا يملكون الارض والمستقرين بضيعات الحبوب الواقعة في ضواحي العاصمة القريبة . ويتجلى فقرهم المدقع في نوع العقود التي يبرمونها ، فهي دائما عقود قروض بدون رهن .

اما في العاصمة ، فلئن كان عدد القروض اكبر ، الا انه من الواجب التمييز بين عدد كبير من الدائنين والمدينين : من أروبيين ويهود واعيان تونسيين وجمهور غفير من عامة الشعب ، ولئن كان معدل القروض ارفع ، فان ذلك ناشيء عن اقلية تتصرف في مبالغ باهظة . وفي الواقع فان 50% من القروض بالعاصمة هي أقل من 125 ريال ولا يمثل مجموعها سوى 1،24 % من القيمة الجملية للقروض الممنوحة . وان المقترضين هم من عامة الشعب ، يتركبون من العملة اليوميين والحمالين وصغار التجار والحرفيين . وهم ينتمون ايضا الى الطبقات المتوسطة المتكونة من التجار والحرفيين المتوسطين باسواق المدينة وربض باب سويقة .

وفي الطرف الآخر نجد اهم الدائنين من تجار اروبيين ومحميين يهود ومالطيين . ورغم انهم لا يمثلون سوى 7% فقط من الدائنين بالعاصمة فانهم يسيطرون على الاسواق المالية الخاصة مع نسبة 50% من القروض الممنوحة . ويمثل المدينون بالنسبة اليهم أهم الدائنين بالعاصمة وبالخصوص الاخوة ابن عياد .

أما اليهود التونسيون فانهم يكتسون اقل أهمية حيث انهم يمثلون 10 % من الدائنين بالعاصمة ولا يتصرفون الا في 5،5 % من مجموع القروض . وخلافا للاروبيين فان لهم حرفاء من بين الريفيين والعامة بالعاصمة . كما ان جميع عقود شراء المواد قبل ميعادها تقريبا ولا سيما زيت الزيتون هي من اختصاصهم .

وينتمي الدائنون المسلمون الى أوساط مختلفة للغاية . ففي سيدي علي الحطاب 77% من الدائنين هم من أصيلي المنطقة ذاتها أي انهم هم أنفسهم ـ تابعون للقبائل المقيمة في المنطقة وقد منحوا 70% من القروض . وأهم أولئك الدائنين هم الذي يقومون بدور الوسطاء بين سكان العاصمة وأعوان حكومة الباي من جهة وبين السكان المحليين من جهة أخرى .

أما في العاصمة ، فان سكان المدينة رغم انهم يمثلون الأغلبية الساحقة من الدائنين (83%) لا يقدمون سوى 45% من القروض الممنوحة . ويعتبر الاخوة ابن عياد من اهم الدائنين بالعاصمة حيث انهم يقدمون الاموال الى حكومة الباي ويستخلصونها مباشرة من السكان (سواء بواسطة اللزمة أو بدفع نفقات الجيش) . ويتسلمون الاموال المقدمة الى السلطة من التجار الاروبيين مقابل رهن ممتلكاتهم التي يضطرون في أغلب الاحيان الى بيعها للوفاء بتعهداتهم . وهكذا فان علاقتهم بالاروبيين ومحمييهم مرتبطة باستغلالهم للشعب التونسي في ذلك التاريخ . وهناك تونسيون آخرون لا يتمتعون بنفس الاشعاع يمارسون الربا بأتم معنى الكلمة وذلك بتقديم مبالغ قليلة ومتوسطة الى عدد كبير من صغار ومتوسطي التجار والحرفيين والى عدد مرتفع للغاية من العملة اليوميين . ونلمح من كل ذلك مشهد مجتمع ريفي يتخبط في أزمة حادة ويعاني من ضعف الحالة الاقتصادية ، وهو مستغل من طرف المرابين الريفيين او المسلمين واليهود الحضريين . ونلاحظ نفس الشيء بالنسبة لعامة السكان بالعاصمة حيث أنهم مجبورون على اقتراض اموال زهيدة في اغلب الاحيان للتحصيل على موارد رزقهم .

أما الطبقات الحاكمة في المدن ، فرغم انها تعاني هي أيضا من الأزمة ، الا انها تعرف كيف تستغل الجماهير الشعبية بفوائد يتراوح سعرها بين 12 و 25% وبواسطة أموال يقدمها لهم الأروبيون في غالب الاحيان ، وبذلك فقد سهلوا لهم تغلغلهم واستيلاءهم على اقتصاد البلاد . فلا نرى حينئذ كيف يمكن لأولئك الأعيان أن يواجهوا المحتل بمقاومة شديدة ، فالجماهير الشعبية بالمدن والارياف هي التي ستقاوم أكثر من غيرها . الا ان فقرها المدقع تجاه القوات المالية سيكون سببا من أسباب ضعفها .

وختاما فاننا حينما حرصنا على تقديم هذه الوثائق ، قد أردنا أيضا التأكيد على أهمية المصادر التي استعملناها وعلى ثرائها البالغ .

والجدير بالملاحظة ان تلك المصادر قد تم تنظيمها بمقتضى أمر أصدره الجنرال خير الدين في سنة 1874 . وهي تتمثل في دفاتر العدول المجمعة في الوقت الحاضر والمحفوظة بالمحاكم الجهوية . فهذا ميدان مازال غير مستغل بالنسبة لتاريخ تونس المعاصر .

سامي البرقاوي
باحث

اختتام أشغال الندوة

كلمة السيد محمد الهادي الشريف

لعله من باب الغرور أن نحاول من الآن استخلاص نتائج هذه الندوة . وبناء على ذلك فسأقتصر على ابداء بعض الملاحظات حول سير أشغالنا .

فلقد اتسمت تلك الأشغال بسرعة نسقها . واني أشكر المساهمين على ما تحلوا به من صبر .

وبالرغم من الشحنة العاطفية التي يحتوي عليها حدث تاريخي هام مثل حدث سنة 1881 ، فلقد حرصنا على الامساك عن كيل اللوم أو الثناء . ولم نحاول التنويه ببطولة المقاومين ولا التشهير بخيانة الخائنين . فقد أردنا فهم وتوضيح الاحداث التاريخية بأقصى ما يمكن من التبصر . واني أعتقد أن أشغالنا قد نجحت من هذه الناحية .

ولقد تمحورت تلك الاشغال حول ثلاثة محاور كبرى .

فتناولنا بالدرس أولا ردود الفعل التونسية على أحداث سنة 1881 . ذلك أن الناس بتونس لا يتذكرون غالبا ما وقع في سنة 1881 . فلقد حصل نوع من الفجوة في الذاكرة الجماعية . والواقع أن الأمر لم يكن يتعلق « بمعركة صورية » ، كما يؤكد ذلك بعضهم في أغلب الأحيان ، بل أن هناك مقاومة حقيقية . ولكنها كانت أضعف من المقاومة التي حصلت في الأقطار المجاورة . وذلك لأسباب ينبغي البحث عنها من جانب الهياكل الاجتماعية التونسية في ذلك التاريخ . وعلى ذكر تلك الهياكل يمكن الاشارة الى « كيس البطاطا » الذي ذكره ماركس

عندما تحدث عن طبقة الفلاحين الفرنسيين في القرن التاسع عشر . ذلك أن المجتمع التونسي بأقسامه « وتجزئته » لا يختلف كثيرا عن « طبقة الفلاحين الفرنسيين » ، وذلك ما يمثل السبب الأصلي في فشل المقاومة المسلحة ضد الغاصب في سنة 1881 . ومع ذلك فان تلك المقاومة قد حصلت بالفعل : في صفاقس وقابس ولدى قبائل الوسط والجنوب . أما في المناطق الأخرى فقد تمثلت المقاومة في الاستنكار الصامت والسري ، الذي لا يقبل المنازعة حسب الشهادات التي أدلى بها الملاحظون بالاجماع وربما كانت هذه المقاومة السلبية تستحق تفصيلات أوسع .

وخصصت المجموعة الثانية من البحوث للبعد الزمني ، ولا سيما للفترات التي سبقت أحداث سنة 1881 . ولقد أدركنا فعلا أن تلك الاحداث تندرج في طيات الواقع وعلى الاقل منذ سنة 1869 ان لم يكن منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وبالنسبة للسيد عز الدين قلوز منذ أوائل القرن الثامن عشر . ولقد عرج بعض المتدخلين أيضا على المستقبل وما كان ينتظر الحركة الوطنية التونسية من مصير . ذلك ان تلك الحركة قد نشأت فيما بعد في المدن والمناطق التي لم تقاوم في سنة 1881 ولكنها ستمسك بزمام الكفاح الوطني منذ غداة الحرب العالمية الأولى .

كما أثيرت مجموعة ثالثة من المشاكل من طرف المتدخلين الذين اهتموا بالأحداث التي جدت بالأقطار المجاورة وبالخصوص في الجزائر وايطاليا . وبالنسبة لهذا البلد الأخير ، فقد وقع لفت النظر الى الظاهرة المناهضة للاستعمار التي عاملها التاريخ الرسمي معاملة جائرة . وحسب رأيي فقد حصلت نفس ردود الفعل على مستويات مختلفة ولكن على نفس المستوى الاجتماعي ، أي على مستوى القبائل التابعة لأعماق المغرب العربي ، أعني المناطق المغربية الأقل تأثرا بالتسرب الاروبي الحاصل قبل 1830 أو 1881 أو 1912 . ذلك أن الاحداث قد جرت في الأقطار المغربية الثلاثة على نفس النمط ، مع بعض الفوارق الراجعة الى أسباب جغرافية سياسية وتاريخية .

ومجمل القول ان عدة مشاكل قد أثيرت بمناسبة أشغال الملتقى ، وهي مشاكل لم تلق دائما الاجابات الملائمة . ولكن طموحنا لا يرمي

الى تقديم الاجابات الجاهزة بل يتمثل في طرح المشاكل واثارة نوع من الفضول الذي هو مصدر المعرفة حسب عبارة افلاطون .

ومن المتوقع ان تعقب هذه الندوة ملتقيات أخرى ستهتم بصيغ المقاومة خلال الفترات اللاحقة . واني أترك الى لجنة تاريخ الحركة الوطنية مهمة اختيار مواضيع الملتقيات المقبلة .

كلمة الاستاذ شارل اندري جوليان

اسمحوا لي بأن أدعوكم « بأصدقائي الأعزاء »

إنه لمن الأمور المؤثرة جدا بالنسبة لرجل مثلي قد جاب أطراف البلاد منذ 61 سنة للالتقاء ببعض المثقفين الفرنسيين وبعض المثقفين التونسيين أيضا ـ ولكن بصورة أقل أو اكثر سرية لأسباب أمنية ـ ، أن يجد نفسه بين مجموعة من الشبان والشابات المجتمعين لبحث نفس الموضوع ، ومنهم صديقي الشريف . ولتسمحوا لي بأن أدعوه هكذا ، حيث كنت من بين « جلاديه » مرتين : المرة الأولى عندما اجتاز شهادة الدراسات العليا وبعد ذلك بعشرين سنة عندما وجدت نفسي من جديد من بين أعضاء لجنة أطروحته . ومما يزيد في سعادتي أن أرى نفسي في موقع جديد حيث لم يعد السيد الشريف الممتحن (بالفتح) بل الممتحن (بالكسر) . فلقد تولى درس الوضع وطرح بعض المسائل التي تهم التدقيق والمراجعة والتي لا أجد من بينها ما يستحق التناول من جديد . ولا شك أن قضية التدقيق تثير كثيرا من المسائل التي هي دائما في حاجة الى الدرس . ولكني لم أجد الى حد الآن شخصا لا يشكو من هذا النقص . فيجب علينا ادراك الأشياء على علاتها . فما هي قيمة ذلك التدقيق ؟ إنها تكمن في هذا التبادل للآراء الذي سيثير الفضول في مستقبل الأيام ، وذلك بغض النظر عن كوننا ننتمي الى مجموعة حريصة على البحث .

وان ما اتسمت به استنتاجاتكم من نقص يعود الى كوننا لا نستطيع استخلاص أي شيء من هذا المزيج المعقد . ولكن بعد 10 سنوات يمكن أن تكون لهذه الجملة أو تلك الفكرة نتائج باهرة .

ولتسمحوا لي بأن أختم هذه الكلمة بملاحظة عاطفية . فاني أشعر بأكثر من الابتهاج (لا أجد الكلمة المناسبة للتعبير عن ذلك) حينما أرى كيف أمكن ـ بعد كل الخصومات وسوء التفاهم بيننا ـ تحقيق هذا الانسجام الوثيق بين الحاضرين هنا ، وحينما ألاحظ ما يسود هذا الاجتماع من جو أخوي ، أود أن احتفظ به في أعماقي بكل قواي .

وشكرا لكم جميعا

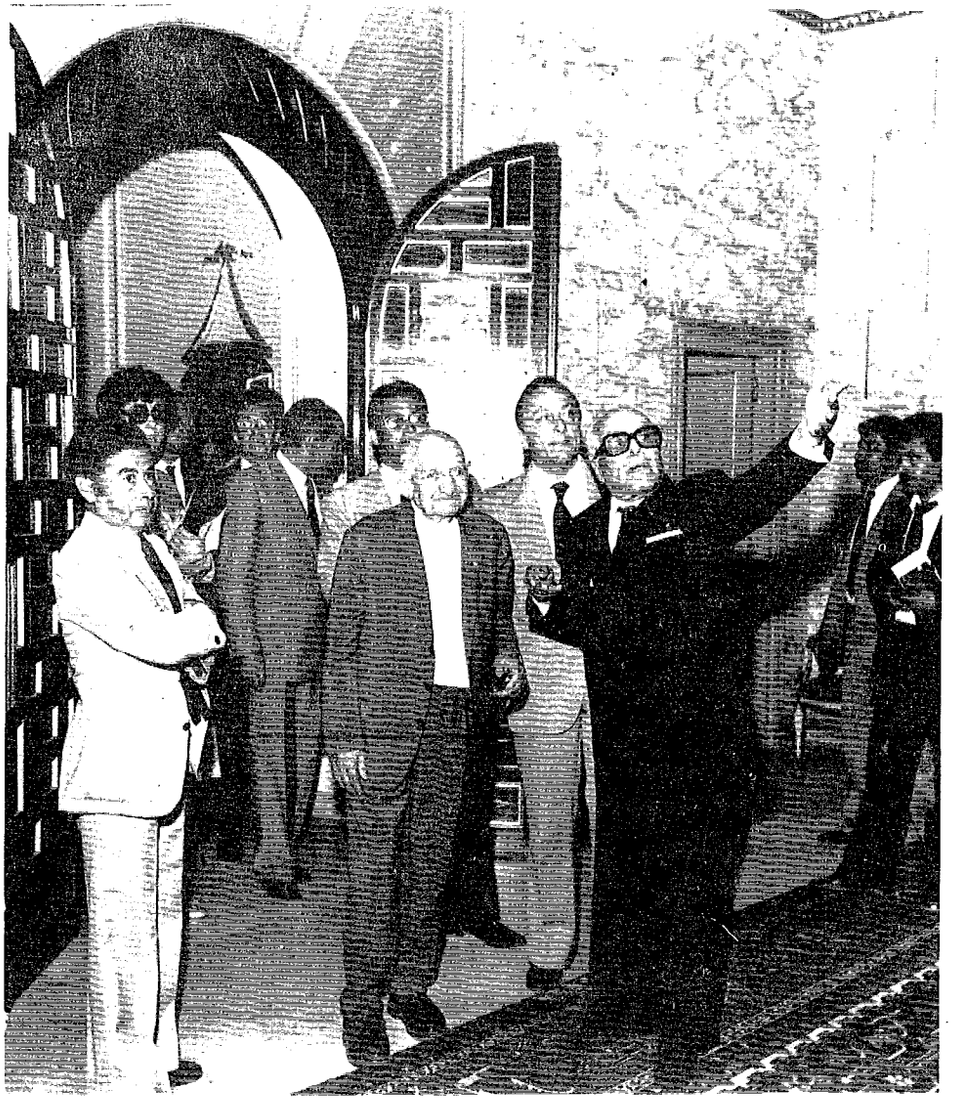

فخامة رئيس الجمهورية السيد الحبيب بورقيبة
يستقبل المشاركين في الندوة وذلك بقصر قرطاج
يوم 29 ماي 1981

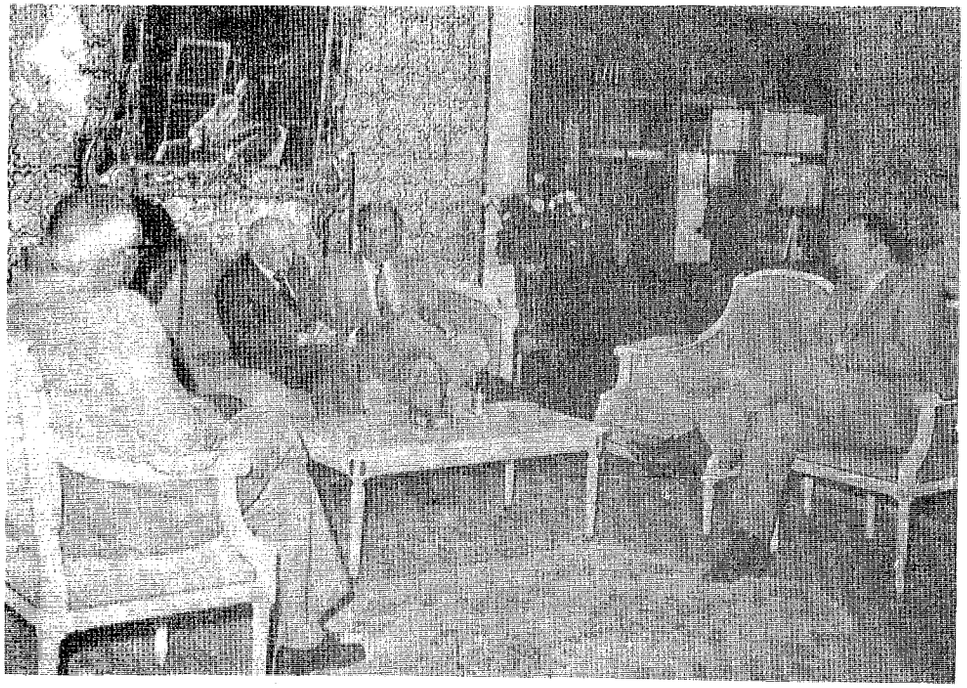

السيد محمد مزالي الوزير الاول يستقبل السيد
شارل اندري جيليان بحضور السيدين عبد العزيز بن ضياء
وزير التعليم العالي والبحث العلمي والمنصف الشنوفي
منسق البرنامج الوطني للبحث

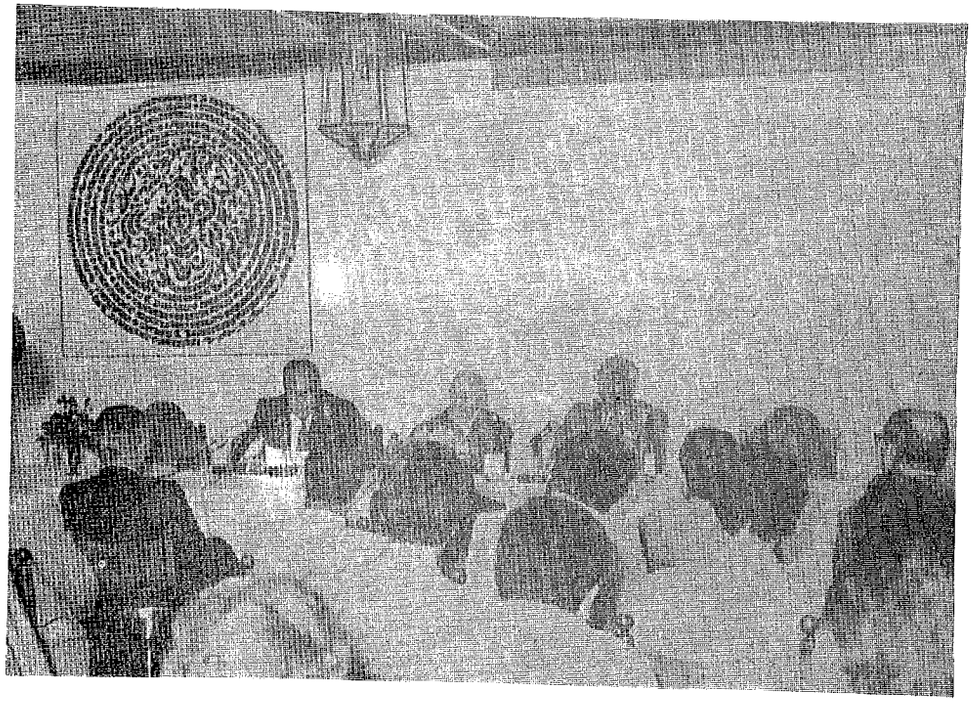

صورة لاشغال الندوة

تم طبـع هذا الكتـاب
بالمطبعة الرسميـة للجمهوريـة التـونسية
1986